النبي إسماعيل عليه السلام

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾

سورة البقرة ١٢٧

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير

النبي إسماعيل (عليه السّلام)

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: 54–55]

تأليف

د. علي محمّد محمّد الصّلّابي

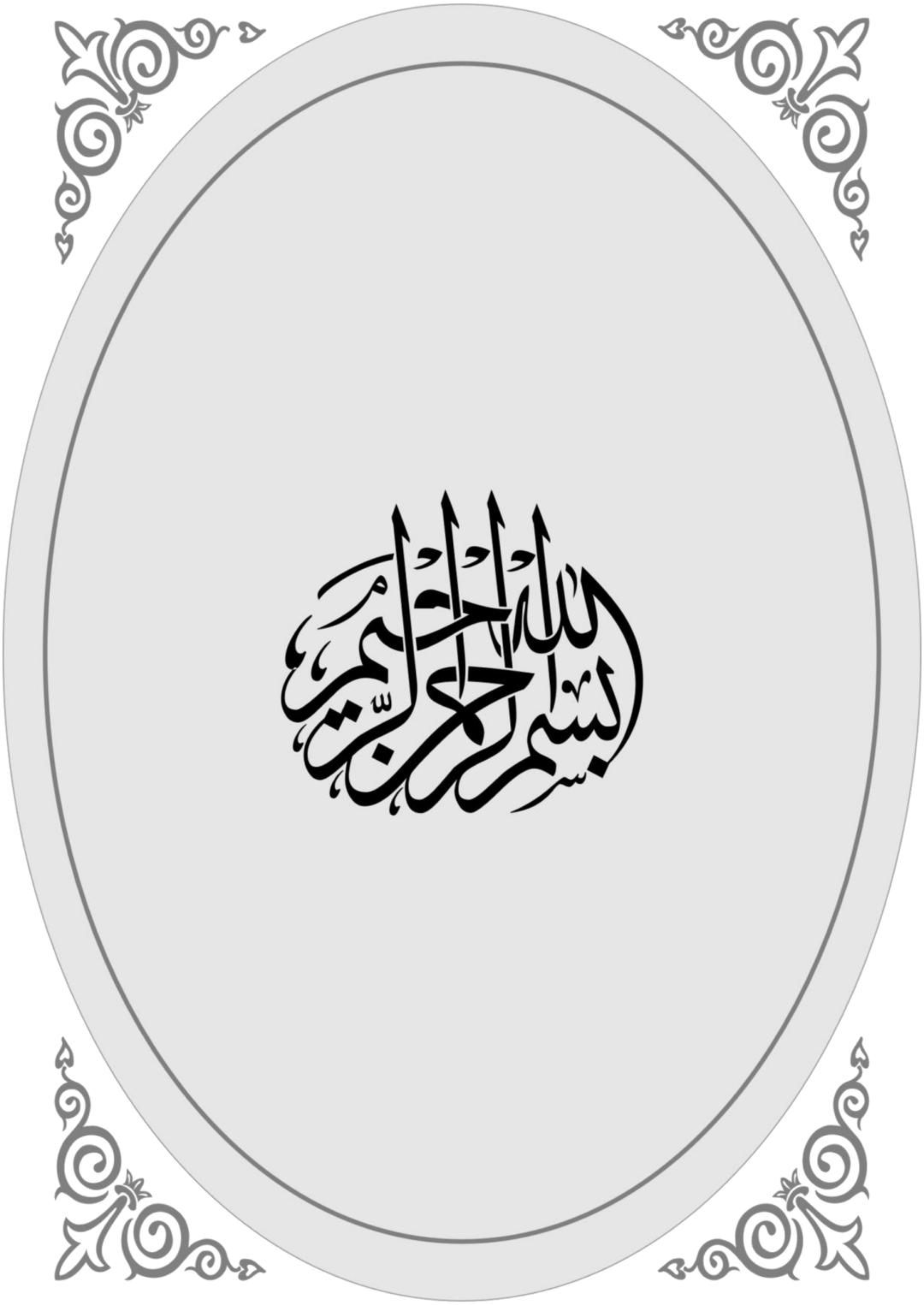
بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أصحاب العقول النيّرة، وأصحاب الفطرة السليمة، والأفئدة النقيّة من بني الإنسان أينما كانوا.

إلى الباحثين عن القدوات الحسنة، وسِيَر الأنبياء والمرسلين.

إلى حملة رسالة الحقّ، والدعوة إلى توحيد الله، وإفراده سبحانه بالعبوديّة.

إلى الذين يهمّهم السموّ الروحيّ، وتطهير النفوس والتمسّك بالقيم الرفيعة والأخلاق الحميدة والصفات الجميلة.

إلى الذين يسعون إلى السعادة في الدارين الدنيا والآخرة.

أُهدي هذا الكتاب ..

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 . 71].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

إن هذا الكتاب (إسماعيل عليه السلام)، من ضمن مشروع سلسلة الأنبياء والمرسلين، وقد تحدّثت عنه في كتابي (إبراهيم خليل الله، داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة)، فأخرجت ما كتبته عن إسماعيل (عليه السلام)، وأضفت له الكثير، وأفردته بكتاب خاص به، ويأتي هذا الكتاب ليأخذ مكانه الطبيعي بين سلسلتنا المتعلّقة بالأنبياء والمرسلين.

والتي صدر منها:

- موسوعة (نشأة الحضارة الإنسانيّة الأولى وقادتها العظام: آدم ونوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد عليهم أفضل الصلاة والسلام.
- النبيّ الوزير يوسف الصدّيق (عليه السلام) من الابتلاء إلى التمكين.
- الأنبياء الملوك داود وسليمان (عليهما السلام) وهيكل سليمان المزعوم.
- لوط (عليه السلام) ودعوته لقومه الظالمين وعقاب الله لهم.
- هود (عليه السلام) وزوال حضارة عاد.
- نبي الله صالح (عليه السلام) وأسباب هلاك قوم ثمود.
- أيّوب (عليه السلام) طريق الشفاء ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.
- يونس (عليه السلام) وطريق الخروج من المحن والكربات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وإن هذا الكتاب الذي أُقدّم له هذه المقدّمة، فقصّة إسماعيل (عليه السلام) قصّة أصيلة في القرآن مرتبطة بأبيه إبراهيم في محطات مهمّة في تاريخ البشريّة، ولا وجود لها في أيّ تراث بشريّ، من ناحية الدقّة والصواب والبُعد عن التحريف والتزييف والأباطيل كالتي جاءت في القرآن وما ثبت عن النبيّ ﷺ، فهذا الكتاب يُقدّم لبني الإنسان قصّة عظيمة من أروع القصص في التاريخ البشري، فيها من الدروس والعبر والعظات والسنن والابتلاءات الشيء الكثير. وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى مباحث:

المبحث الأوّل: إسماعيل (عليه السلام) نسبه ومولده ونشأته، وحديث التاريخ والسنّة النبويّة عنه، وجاء في هذا المبحث: من هو أوّل من غيّر دين إسماعيل، وقصّة زواج هاجر أمّ إسماعيل من إبراهيم (عليه السلام)، والذمّة والعهد لأهل مصر، وسكن هاجر في بلاد الشام، ومولد إسماعيل (عليه السلام)

وانتقالهم إلى الحجاز، وقصّة زمزم، وتعهّد إبراهيم (عليه السلام) لزوجته هاجر وابنه إسماعيل، وذكر إسماعيل (عليه السلام) في القرآن الكريم.

وفي المبحث الثاني: قصّة إسماعيل مع والده إبراهيم في سورة الصافات:

فتحدّثت عن رؤيا ذبح إسماعيل، وبيّنت في هذا المبحث من هو الذبيح، والآيات التي ذكرت إسماعيل (عليه السلام)، وذكرت ما ذكره علماء التفسير من تفسير هذه الآيات. وقد احتوى هذا الكتاب ما ذكرته كتب السنّة عن إسماعيل (عليه السلام) في مهارته بالرماية، وأنّه أوّل من نطق العربيّة الفصيحة، وتعويذ إبراهيم (عليه السلام) لولديه إسماعيل وإسحاق (عليهما السلام)، وكون كنانة من ولد إسماعيل، ونفى الاستقسام بالأزلام عن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، وقد نقلت ما ذكرته كتب التاريخ عن إسماعيل (عليه السلام).

وفي المبحث الثالث: كان الحديث عن مكانة إسماعيل عند والده إبراهيم، وفي بناء بيت الله، وفي دعوته. وتمّ تفسير الآيات الكريمة المتعلّقة بذلك، والتي ذُكرت في سورة البقرة، وذكرت في هذا المبحث بعد شرح الآيات معتمداً على الله ثمّ علماء التفسير قديماً وحديثاً فضائلَ الكعبة والحجر الأسود، وعلاقة المسجد الأقصى بالكعبة المشرّفة، ووسطيّة الكعبة في أبعادها ودين الإسلام، وعن الإبطال لنظريّة الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان.

وفي المبحث الرابع: دعاء إبراهيم (عليه السلام) لذرّيته ولمكّة وحمده لله على أن وهب له إسماعيل وإسحاق (عليهم السلام) في سورة إبراهيم.

وقد قمت بتفسير الآية الكريمة في هذا المبحث، وهي قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: 54-55].

وقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: 85-86].

وقوله تعالى في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 48].

وختمت الكتاب، بأهمّ صفات إسماعيل (عليه السلام)، كحلمه ووفائه وصدقه، وصبره، وغير ذلك من الصفات، ثمّ وفاته.

وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة

3/ رجب/ 1446هـ/ الموافق 3/ يناير/ 2025م

في تمام الساعة الثانية وسبعة عشر دقيقة بعد صلاة الجمعة بالدوحة، بدولة قطر (حفظها الله من كلّ سوء وسائر بلاد المسلمين).

وإن الفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبّل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يُكرمنا برفقة النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا يسعني في مرحلة الانتهاء من هذا الكتاب إلّا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه متبرّئاً من حولي وقوّتي، ملتجئاً إليه في كلّ حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضّل، وربّي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفّق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد منّي العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم بصّرني بما يُرضيك واشرح صدري، وجنّبني اللهم ما لا يُرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري.

أسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلا أن تُثبّتني وإخوتي الذين أعانوني على تمام هذا العمل.

اللهم اجعله لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم، كما أرجو من كلّ ممن يطّلع على هذا الكتاب ألّا ينسى العبد الفقير إلى ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه

د. علي محمّد محمّد الصلّابيّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

المبحث الأوّل: إسماعيل (عليه السلام) نسبه ومولده ونشأته وحديث التاريخ والسنّة النبويّة عنه:

نبيّ الله إسماعيل عليه السلام له مكانةً عظيمة في مسيرة التوحيد الإلهي، فهو الابن البكر لخليل الله إبراهيم عليهما السلام، وقد اقترنت سيرته المباركة ببدايات التأسيس لعمران البيت الحرام، وسُكنى مكة المكرمة. ويشكّل الحديث عن نسبه ومولده ونشأته مدخلاً مهمًّا لفهم أبعاد الرسالة التي حملها ودوره في بناء معالم الدين الحنيف. كما أنّ الرجوع إلى نصوص السنّة النبويّة وما أثبته التاريخ من مواقف هذا النبي الجليل، يُسهم في ترسيخ القيم الإيمانية، واستحضار النماذج النبوية في الدعوة والتضحية. وفي هذا المبحث نسلّط الضوء على أبرز محطّات حياته، مستنيرين بما ورد في المصادر الشرعية المعتمدة.

أوّلاً: إسماعيل عليه السَّلام نسبه ومولده ونشأته:

1- النسب والمولد والنشأة:

هو إسماعيل بن إبراهيم (عليه السَّلام)، وُلد في فلسطين حوالي عام (1794) ق.م، في منطقة بئر السبع غالبًا، وكان عمر أبيه ستًّا وثمانين سنة، وكان قد مضى على وجوده في أرض فلسطين حوالي عشر سنوات، ولم يُنجب أولادًا، فدعا ربّه أن يهبه الذُّرّيةَ، قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: 100-101]، فهو الابن الأول والأكبر لإبراهيم، وهو ـــ على الراجح ـ الذبيح الذي فداه الله تعالى بذِبح عظيم، وكان وحيدًا لأبيه حينذاك[1].

[1] عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، دار حطين للدراسات والترجمة، دمشق، سورية، ط1، 1993م، ص308.

وأمُّ إسماعيل (عليه السَّلام) هي هاجر المصرية التي كانت أميرة وأسيرة عند أحد فراعنة مصر، فأهداها إلى سارة في القصة المعروفة، فسافر بها إبراهيم إلى فلسطين، وأنجب منها إسماعيل، ونشأ وترعرع وهو في سن الرضاعة في فلسطين، ثم انتقل إبراهيم بهاجر وإسماعيل (عليهما السلام) إلى مكة المكرمة التي قدمت إليها القبائل العربية، واستقرّت فيها[2].

ولما شبّ إسماعيل (عليه السَّلام) تزوج من امرأة يُختلف في اسمها، فيُقال هي عمارة بنت سعد بن أسامة، وقيل: إن اسمها جداء بنت سعد، وقيل: حبى بنت أسعد بن عملق، وقيل: ريبة أو ميريبة، ثم فارقها وطلَّقها، وتزوّج الثانية رَعْلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وبقيت معه، فولدت له اثني عشر ولدًا ذكرًا وبنتًا واحدة، هم آباء العرب المستعربة اليوم، فإسماعيل (عليه السَّلام) هو جدُّ العرب، ويقال: إنه تزوّج من ثالثة وهي: سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف[3].

وتذكر كتب التاريخ أن إسماعيل عليه السَّلام أول من تكلّم العربية البليغة، وكان قد نقلها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من قبيلة جرهم[4]، والعماليق، وأهل اليمن، من الأمم السالفة من العرب قبل إبراهيم الخليل (عليه السَّلام). ورُوي أن أول من فتق لسانه بالعربية البيّنة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة[5].

ولما حلّت جرهم بمكة المباركة، وهب كل صاحب خيمة لإسماعيل (عليه السَّلام) شاة أو شاتين، حتى تشكّل له بعض قطيع، وهو ما يزال في عمره النديّ ويترعرع في كنف أمه ويدرج بين أطفال جرهم،

---

[2] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص236، وعالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص309.

[3] عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، ص310.

[4] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص310.

[5] عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص311 . 312.

فلما بلغ مبلغ الفتيان والشباب انصرف إلى الرعي والصيد على عادة الناس الذين يعيشون حوله[6]. وذكر علماء النسب وأيّام الناس: أنّه أوّل من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها[7]، وكانت هاجر وإسماعيل ينعمان بقدوم إبراهيم (عليه السَّلام) والمكوث عندهما، والاطمئنان عليهما، حتى حصلت قصة الذبح والفداء كما سبق في قصّة إبراهيم (عليه السلام)، وتمّ التعاون على بناء الكعبة المشرَّفة كما سيأتي بإذن الله.

وقد وصف القرآن الكريم إسماعيل (عليه السَّلام) بأنه: غلام، حليم، صادق الوعد، يحافظ على الصلاة، ويأمر أهله بها، وأن الله تعالى برّأه من كل ما نسب إليه الجاهلون[8].

وعاش إسماعيل (عليه السَّلام) (137) عامًا إلى أن مات، ودُفن بالحِجْر «بجوار الكعبة» مع أمه هاجر[9].

ولازم إسماعيل (عليه السَّلام) والده في أوقات إقامته بمكة المكرمة. وكان التشريع الإلهي لإسماعيل (عليه السَّلام) مقترنًا بشرعة أبيه إبراهيم (عليه السَّلام) التي سبقت وهي: الهجرة، تعدُّد الزوجات، حضانة الولد عند أمه، إقامة الصلاة، الختان، بناء الكعبة، الطواف، الاعتكاف، تحقيق الأمن في مكة، مناسك الحج، الرؤيا بذبح الولد، الشورى، طاعة الله تعالى والتسليم لأمره، الذبح والفداء والأضحية، السَّعي بين الصفا والمروة، رمي الجمرات، وتطهير البيت الحرام[10]، وسيأتي بإذن الله بيان ذلك بشيء من التفصيل.

---

[6] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص244.

[7] الأنبياء في القرآن قصص وعبر، هدى صالح العبوسي، ص184.

[8] عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص311.

[9] عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، المصدر السابق، ص310.

[10] شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2018م ، ص202.

وبعد بناء الكعبة المشـــرفة ورفع قواعدها، على يدَيْ إبراهيم وإسماعيل (عليهما الســـلام)، بقي إسماعيل مع والدته في مكة، وكان إبراهيم عليه السَّلام يرجع مرارًا إلى بيت المقدس وفلسطين وإلى زوجته سارة ثم ابنه إسحاق (عليه السَّلام) [11].

وأما إسماعيل فهو المقيم الدائم في مكة المكرمة، وكان أول من تولَّى شـــؤون بيت الله الحرام، وبعد وفاته تولَّى شؤونَه ابنُه «نابت»، ثم تحولت السدانة إلى أخواله من بني جرهم، وكان ملكهم مضاض بن عمرو الجرهمي أول من ولي البيت منهم، ثم جاء ابنه الحارث، ثم انتقلت إلى عمرو بن الحارث، واستمرت الولاية في بني جرهم ما داموا مُتمسِّـــكين بالدين الحنيف، يُعظِّمون مكة وبيتَها الحرام، ولم يُقرُّوا فيها بغيًا ولا ظلمًا، ولم يسفك العرب فيها دمًا، ولم يقطعوا شجرًا، ولم يطردوا صيدًا، ولم يقتلوا ظهيرًا، وكان الحرم كله آمنًا مطمئنًا.

ولكن ولاة البيت من جرهم لم يستطيعوا الحفاظ على حرمات مكة وكعبتها المشرّفة وبيتها الحرام، بل بَغَوْا فيها وطَغَوْا واستحلّوا الحرمات المقدسة، وأكثروا الفساد، وألحدوا بالمسجد الحرام، وصاروا يظلمون من يدخل إليها من غير أهلها، وأكلوا ما يُقدَّم للبيت من هدايا وأموال، حتى ابتلاهم الله؛ فهلك كثير منهم. واستمرت ولاية البيت فيهم نحو (300) سنة، ثم تحولت الولاية إلى العماليق بقيادة السميدع بن هوبر بعد هزيمة جرهم أمامهم، وزاد العماليق في بناء البيت، ورفعوه على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السَّلام [12].

ثم صـــارت ولاية البيت في ولد إياد بن نزار بن معد، وقامت حروب بين مضـــر بن نزار وإياد، وكانت النتيجة لمضر، الذين أجْلَوْا إيادًا ومن معه من مكة باتجاه العراق. ثم آلت الولاية إلى خزاعة، ومنها

---

[11] شرعة الله للأنبياء، المصدر السابق، ص210.

[12] شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص210.

إلى قصي بن كلاب، الذي كان صهرًا لخزاعة، الذي فوّض جميع أعمال البيت ورئاسة قريش إلى ابنه عبد الدار، وتفرقت بطون قريش إلى بني عبد الدار وبني عبد مناف، ثم اتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وتكون الحجابة والندوة واللواء لبني عبد الدار، واستمر الأمر كذلك مدّةً طويلة[13].

ولما فتح الله تعالى مكة على يد محمد ﷺ، كانت السقاية للعباس بن عبد المطّلب وبني عبد مناف، وهو الموضع الذي يُسقى فيه ماء زمزم[14].

وكان مفتاح الكعبة بيد عثمان بن أبي طلحة العبدري من بني عبد الدار، فأخذه رسول الله ﷺ منه ودخل الكعبة، وصلى بها وكسر الأصنام، وأخرج مقام إبراهيم، ونزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن أبي طلحة وابن عمه شيبة بن أبي طلحة، وأعطاهما المفتاح وحفظ البيت[15]. وقال لهما: «خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»[16]، وبقي مفتاح الكعبة وسدانتها في يد بني شيبة إلى اليوم[17].

وقد تحدّث العلّامة السيد سليمان الندوي في كتابه (تاريخ أرض القرآن) عن بني هاجر وإسماعيل (عليه السَّلام) وأولاده والقبائل التي تفرّعت من إسماعيل (عليه السَّلام) كآل غسان والأوس والخزرج من الأنصار، كفرع من فروع نابت بن إسماعيل، وعن قريش وأصولها من مضر بن نزار بن عدنان بن قيدار بن إسماعيل، وغير ذلك من فروع القبائل التي ترجع إلى إسماعيل (عليه السَّلام). ومن أراد التوسّع فليرجع

---

[13] عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، ص328 . 330، بتصرف.

[14] صحيح البخاري، البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط 4، 2002م، رقم (1553).

[15] تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط1، 1427هـ، 2006م، (423/6).

[16] شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص211.

[17] شرعة الله للأنبياء، المصدر السابق، ص211.

إلى ذلك الكتاب[18]. وقد ذكر عبد المجيد همّو بأنّه: عن إسماعيل (عليه السلام) خرجت قبائل عربيّة كثيرة أهمّها ربيعة ومضر وإياد وأنمار. وعن مضر خرجت قبائل كثيرة، قيس وعيلان وتميم وقريش وكنانة، وهكذا صارت الجزيرة العربيّة تعجّ من جديد، وعادت إليها حيويّتها، وأصبحت جاهزة لتخرج من أبنائها دفعة جديدة تعمر بلاد الشام والعراق كما عمرها الأجداد[19].

2- أول من غيّر دين إسماعيل عليه السَّلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لأكثَمَ بن الجَونِ الخُزاعِيّ: «يا أكثَمُ، رَأيتُ عَمرَو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ بن خِندِفَ يَجُرُّ قُصبَهُ[20] فِي النّارِ، فما رَأيت رَجُلًا أشبَهَ بِرَجُلٍ مِنك بِهِ، ولا بِك مِنهُ». فقالَ أكثَمُ: عَسى أن يَضُرّنِي شَبَهُهُ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: «لا، إنّك مُؤمِنٌ وهُوَ كافِرٌ، إنّهُ كانَ أوّلَ مَن غَيّرَ دِينَ إسماعيلَ، فنَصبَ الأوثانَ، وبَحَرَ البَحِيرةَ[21]، وسَيّبَ السّائِبةَ[22]، ووَصَلَ الوَصِيلةَ[23]، وحَمَى الحَامِي[24]».

---

[18] تاريخ أرض القرآن، سليمان الندويّ، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2016م، ص257 . 426.

[19] أنبياء القرآن، ص94.

[20] قصبه: أمعاءه.

[21] البحيرة: هي التي يمنح درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس

[22] السائبة: هي التي يسيبونها لآلهتهم فلا يُحمل عليها شيء ولا تُحبس عن المراعي ولا تُركب.

[23] الوصيلة: الناقة البكر، تبكر بنتاج أنثى ثم أنثى بعد أنثى ليس بينهما ذكر.

[24] الحامي: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ثم يزكوه للطواغيت. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1415هـ، 1995م، (243/4)، وإسناده صحيح.

ثانياً: قصة زواج هاجر أم إسماعيل من إبراهيم عليه السَّلام:

بعد إقامة إبراهيم (عليه السَّلام) في الأرض المقدسة فلسطين المباركة، وبعد زمن لا يعلمه إلا الله دخل إبراهيم عليه السَّلام بتدبير من الله (عزّ وجل) إلى أرض مصر، وبما أنه (عليه السَّلام) رسول يدعو إلى الله، فكل خطواته وحركاته موجَّهة للدعوة، ولتبليغ الرسالة للناس[25].

وكان من نتيجة هذه الرحلة أن أُهديت هاجر إلى سارة زوج إبراهيم (عليه السَّلام)، وأصبحت فيما بعد زوجًا ثانية لإبراهيم، وأمًّا لابنه الكبير إسماعيل (عليه السَّلام)، ومعلوماتنا عن هذه الرحلة مُستمَدّة من حديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذباتٍ؛ ثِنتَينِ منهنَّ في ذاتِ الله: قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله للملك الظالم عن زوجه سارة: أنّها أخته»، وقد بيّنت أن هذا من المعاريض في قصة إبراهيم في سورة «الأنبياء» وفي سورة «الصافات»، كما مرّ معنا سابقًا في قصّة إبراهيم (عليه السلام).

و«بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبّار من الجبابرة، فقيل له: إنّ ههنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تُكذِّبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذ[26]، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرّك، فدعت الله، فأُطلق، ثم تناولها ثانية، فأُخذ مثلها أو أشدّ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرّك، فدعت، فأُطلق، فدعا بعض حَجَبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمَها هاجر، فأتته وهو قائم يُصلّي، فأومأ بيده: مَهْيا؟ قالت: ردّ الله كيد الفاجر في نحره، وأخدم هاجر»، قال أبو هريرة: فتلك أمّكم يا بني ماء

---

[25] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (375/1).

[26] فأخذ: قُبِض قبضة شديدة.

السـماء[27]. وإن هذا الحديث الذي رواه البخاري ومسـلم وغيرهما، يذكر الحادثة العجيبة التي جرت لإبراهيم (عليه السَّلام) وزوجه عندما توجَّها إلى مصر، والكرامة التي أكرمت بها سارة، وعصمتها من ذلك الملك الجبار الفاجر[28].

1- الذّمّة والعهد والرحم لأهل مصر:

إنَّ الذي يدلُّ على هذه الحادثة التي جرت لإبراهيم وهو في مصر، وأن الملك الجبار الفاجر هو ملك مصر، حديث آخر ينصّ على أن «هاجر» مصرية. فقد روى مسلم ورواه آخرون عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّكُم تَستَفتِحُونَ مِصرَ، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القِيراطُ، فإذا فتحتُمُوها، فأحسِنُوا إلى أهلِها، فإنَّ لهم ذمّةً ورَحِمًا، أو قال: ذِمّةً وصِهرًا، فإذا رأيتَ رَجُلَينِ يَختَصِمانِ فيها في مَوضِعِ لَبِنةٍ، فاخرُجْ منها»، قال أبو ذر: فرأيتُ عبدَ الرَّحمنِ بن شرحبيلَ بن حَسنةَ وأخاهُ رَبيعةَ يَختصمانِ في مَوضِعِ لَبِنةٍ، فخَرجتُ مِنها[29].

فهذا الحديث ينصّ على أنّ لأهل مصر ذمّة ورحمًا وصهرًا للعرب، قال العلماء: القيراطُ: جزء من أجزاء الدينار أو الدرهم، وأهل مصر يُكثرون من استعماله والتكلُّمِ به. والذّمّة: الحرمة والحق. والرحم: لكون هاجر أمّ إسماعيل منهم، فأهل مصر هم أخوال لأهل مكة والحجاز. والصّهر: لأنَّ أهل مصر صاهروا رسول الله ﷺ؛ لأنَّ حاكم مصر المقوْقس أهداه «مارية» القبْطية، أمَّ ابنه إبراهيم الذي مات وهو صغير، وأن ملك مصر أهدى «هاجر» لإبراهيم فأنجبت منه إسماعيل عليه السَّلام، وأن حاكم مصر فيما

---

[27] صحيح البخاري، رقم (2217)، صحيح مسلم، رقم (2371).

[28] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق – الدار الشامية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1998م، (376/1).

[29] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م، رقم (2543)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (95).

بعد أهدى محمدًا ﷺ «مارية»، فأنجبت ابنه إبراهيم، ولهذا كان الرسول ﷺ يُوصي الصحابة بالمصريّين خيرًا، ويدعوهم إلى مراعاة ذمّتهم ورَحِمهم ومصاهرتهم[30].

2- من دلالات الحديث عن زيارة مصر:

عندما ننظر في الحديث الذي سجَّل قصة إبراهيم (عليه السَّلام) وسارة مع ملك مصر، فإننا نخرج منه ببعض النتائج والفوائد، ولعل منها:

- اسم زوج إبراهيم (عليه السَّلام) هو سارة كما ورد مصرَّحًا به في الحديث.
- كانت سارة رضي الله عنها من أحسن النساء وأجملهن.
- كان ذلك الملك جبارًا من الجبابرة، وكان فاجرًا شهوانيًّا، وكان مُرتكِبًا للفاحشة مُلاحِقًا للنساء.
- كانت له حاشية أو عصابة، مهمتها البحث عن النساء الجميلات وإحضارهن إليه طوعًا أو كرهًا؛ لِيَفجُر بهن، وتحويل مُهمّة الملك ليكون «صائد نساء»، وهذا من سمات الأنظمة الجاهلية في كل زمان ومكان[31].
- أمر إبراهيمُ سارة لتقول للملك أنّها أُخته، لكيلا يأخذها الملك، وهناك يُقدِّم الله لذلك الملك آية ومعجزة، ليُحقِّق قَدَره سبحانه، فيعصم سارة من فجوره، وتأخذ هاجر معها.
- قال إبراهيم عن سارة إنّها أخته، وأرادَ الأخوةَ في الدين، فهو مسلم وهي مسلمة، والإسلام جمع بينهما في أخوة إيمانية وإن كانا زوجين، ولقد كان إبراهيم عليه السَّلام صادقًا عندما قال: إنّها أخته، وأراد بذلك الأخوة الإيمانية، وقد وضّح إبراهيم عليه السَّلام هذا لسارة،

---

[30] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (378/1).

[31] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (378/1).

وذلك في قوله لها: يا سـارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، ولأنَّ حاشـية الجبّار فهموا من كلامه الأخوة في النسب، فاعتُبر كلامه كذبًا ظاهرًا، لأنه شابه الكذب في الظاهر؛ لكنه صدق في الحقيقة[32].

- إنَّ إبراهيم (عليه السَّـــلام) نبيٌّ، وإن الله هو الذي يُوحي إليه ويُوجِّهه، فالله هو الذي قدَّر إرسالها وتسليمها، وعليه أن يطمئن، ولا يقلق فستكون عند الملك في رعاية الله وحفظه، ولن ينال الملك منها شيئًا، وكان إبراهيم (عليه السَّلام) واثقًا بوعد الله مسلّمًا أمره إليه.
- عصـم الله سـارة من فجور الملك، ووهب لها كرامة بارزة، وقدّم لذلك الفاجر الجبار آية على قوة الله وقدرته وعلى عجز ذلك الجبار، فلما مدَّ يدَه إليها أول مرة قبضـــها الله وعطّلها، فعجز الملك عن تحريكها أو التحكُّم فيها، فتعجَّب واستغرب لأنّ ذلك أول مرة يحصل معه، وطلب من سـارة أن تدعو ربّها ليطلق يده ولن يؤذيها، ولما فعلت ذلك عاود الملك الكرّة مرة ثانية ثم مرة ثالثة، عند ذلك علم الملك أنه ممنوع من الوصـول إليها، وأيقن بعجزه عن مسّـها، وأن هناك قوة أخرى تحفظها وتعصـــمها وتحميها منه، وهذا هو المراد من الحادثة، وهذه هي الحكمة.
- أراد الملك إكرام هذه المرأة المحفوظة العفيفة، فقدَّم لها إحدى النســـاء؛ لتكون خادمة لها وجارية عندها وهي هاجر، وأعادها إلى إبراهيم (عليه السَّلام) معزَّزة مكرَّمة عفيفة مَصونة.
- كان إبراهيم (عليه السَّـــلام) أثناء غياب امرأته عند الملك مُلتجِئًا إلى الله يُصـــلِّي له ويدعوه ويسـتنصـره، ويطلب منه حفظ امرأته، وعادت إليه سـارة وهو يُصـلِّي، وقد كان دأب النبي محمد ﷺ، إذا حزبه أمر أو وقع في ضيق، أن يفزع إلى الصلاة[33].

---

[32] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، المصدر السابق، (379/1).

[33] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (380/1).

- كان من دعاء سـارة (عليها السـلام) وهي في طريقها إلى الجبار: «اللَّهمَّ إن كنتَ تعلمُ أني آمنتُ بك وبرسـولِكَ، وأحصـنتُ فَرجي إلّا على زَوجي، فلا تُسـلِّط عليّ الكافر»[34]، فاستجاب الله لها.
- فرح إبراهيم (عليه السَّلام) بعودة سارة، وهو متلهّف متسرّع ليعرف ماذا جرى لها، ولهذا لم ينتظر حتى يفرغ من الصلاة، بل أومأ بيده أثناء الصلاة متسائلًا: مَهْيا؟ ومعنى «مَهْيا»: ما الخبر؟ ولم يتكلم بلسانه، لأنه كان في الصلاة، وإنما كانت إشارة يده تُوحي بهذا الاستفهام.
- يتجلَّى من جواب سارة (عليها السلام) قوّةُ إيمانها بالله، فقد أسندت الحفظ والرعاية إلى الله، وأعادت الفضل إلى مانحه سبحانه وتعالى، وذلك قولها: ردّ الله كيد الفاجر في نحره، وأخدمَ هاجر.
- قدَّم أبو هريرة راوي الحديث رضي الله عنه على الحادثة تعقيبًا ذكيًّا لطيفًا، وذلك في قوله: «فتلك أمُّكم يا بني ماء السماء»، وهو بهذا يخاطب الصحابة ويقول لهم: هاجر المصرية القبطية هي أمُّكم؛ لأن إبراهيم جعلها «سرّيته» فيما بعد، وأنجبت له إسماعيل وبما أنكم أبناء إسماعيل فهاجر أمُّكم[35].
- معنى قوله «يا بني ماء السماء»: أن العرب في بلادهم يعتمدون على ماء السماء ـ وهو المطر ـ في الزراعة والكلأ والعشب والرعي، ولذلك صاروا كأنهم أبناء المطر ماء السماء.

وهذه بعض الفوائد والدلالات السريعة التي نخرج بها من هذا الحديث الصحيح[36]:

---

[34] رواية البخاري في صحيحه عن الأعرج في أواخر كتاب البيوع.

[35] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (381/1).

[36] المرجع نفسه، (381/1).

- يجب الحذر وبيان بطلان ما تدَّعيه توراة اليهود: أن سبب هجرة إبراهيم (عليه السَّلام) إلى مصر كانت لأسباب معيشيّة، حيث إن أرض الشام أصابها في ذلك الوقت القحط والجدب، والصحيح أن هجرته (عليه السَّلام) إلى مصر كانت لأسباب دينية كالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، كما أن الحالة الدينية في مصر في زمن هجرة الخليل عليه السَّلام كانت مهيَّأة لنشر دعوة إبراهيم (عليه السَّلام) بين الناس.
- إن ما ورد في أسفار اليهود حول قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر متناقض مع ما ورد في الروايات الإسلامية حول تلك القصة، ويجب الحذر مما ألصق اليهود في أسفارهم بإبراهيم (عليه السَّلام) من صفات قبيحة وأعمالٍ دنيئة يندى لها الجبين، ويقشعرُّ منها البدن، مثل: الكذب، والخوف على حياته من الموت، والدياثة، والتكسُّب بالمال عن طريق المتاجرة بشرف زوجته، والمخاطرة بالعرض والشرف... إلخ. وإن غرض اليهود من إلصاق هذه التُّهم بإبراهيم (عليه السَّلام): أن يُبيحوا لأنفسهم التخلُّقَ بهذه الصفات القبيحة، وممارسة الأفعال الدنيئة، وأن ذلك لا حرج عليهم لأنهم يقتدون في أخلاقهم وسلوكهم بإبراهيم (عليه السَّلام) [37].

3- هاجر في بلاد الشام ومولد إسماعيل عليهم السلام:

عاد إبراهيم (عليه السَّلام) وزوجه سارة من مصر إلى فلسطين، وأقاما فيها معًا مع «هاجر» الجارية، وكانت سارة لا تُنجب ولا تَلد، وقد أخذ العمرُ بإبراهيم (عليه السَّلام) وليس له أولاد، هذا وعزّ عليها ألا يكون لزوجها أولاد، وبما أنّها عقيم، فلماذا لا تُهديه وتهبُه جاريتَها هاجر؛ لتكون جارية له، يتسرّى بها، ويُعاشرها، لعلها تحملُ منه؟![38].

---

[37] إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود "عرض ونقد"، فاطمة بنت خالد ردمان، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1421هـ، 2001م، ص154.

[38] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (381/1).

ومن الطريف في سيرة هاجر: أنّها أحبّت مولاتها وسيّدَها، ورأت منهما الطُّهْرَ والنقاء، فاعتنقت دينهما، وآمنت بالله تعالى إيمان المحبّين المخلِصين. وكانت هاجر راضية النفس؛ لأن الله تعالى أراد لها الخير وهداها إلى عبادته، وكانت إذا قامت إلى الصلاة نسيت كل شيء من حولها وتعلّق قلبُها بالله، ولم تكن هاجر تريد غير المناجاة وغير العبادة، وما دار بخلدها أن الله تعالى ما بعث إبراهيم وسارة إلى مصر إلا ليعودا بها، فهي الدّرّة الغالية في قافلة الإيمان، وهي الجوهرة العظيمة التي بارك الله فيها، والتي يُعدُّها ليوم عظيم.

كانت سارة وهاجر (عليهما السلام) متصافيتين، فقد أحبّت كلُّ واحدة منهما الأخرى، وراحتا تجتهدان في عبادة الله تعالى، وحمدت هاجرُ اللهَ كثيرًا أن أخرجها من الظلمات إلى النور، وجعلها من بيت مبارك قام على الإيمان وتوحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة.

وكان يخطر ببال سارة (عليها السَّلام) دعاءُ إبراهيم الصادق المخلص ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فتتأمَّل في موقفها وسني عمرها، وبأنها أصبحت عجوزًا عقيمًا، فبرقت بارقة أمل في ذهنها، وعاشت في صفاء ربَّاني، فقالت في سرور لزوجها إبراهيم (عليه السَّلام): هذه هاجر، خُذْها لعلَّ الله أن يرزقك منها الولد[39].

وحصل ذلك ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾، ومضت الأيام والشهور، وهاجر سعيدة بحَملها، ووضعت هاجر طفلًا جميلًا، وها هو صوته يملأ الرحاب، ويشقُّ صمت الكون، وحملت سارة إسماعيل بين يديها برفق وحنان ومحبة وقدَّمته إلى أبيه، فألقى إبراهيم نظرة الحبِّ على الابن الموعود، فإذا ينابيع الرّقة تتفجر من قلبه المتهلّل بالفرح، وإذا به يلثم الوليد ويضمّه في تلك اللحظات المشرقة، قال إبراهيم وسارة وهاجر: الحمد لله رب العالمين، يا ربّ إنّا نُعيذ بك ابننا إسماعيل وذُريَّتَه من الشيطان الرجيم.

---

[39] الحياة الزوجية في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الخطيب، دار اليمامة، دمشق، ط1، 1425هـ. 2004م، ص220.

وبدأت حياةٌ زوجية لإبراهيم وهاجر، بدأت حياة جديدة بهذا الطفل إسماعيل، الذي غيّر مجرى حياة إبراهيم الزوجية مع هاجر وسارة، فقد بدأ الطفل إسماعيل يكبر في حين بدأت حكمة الله تتجلّى في أن ينقل إبراهيم هاجر وإسماعيل إلى حيث يأمره ربُّه، إلى أمِّ القرى، لتعود الحياة إليها، ولتظلّ قائمة إلى أن يشاء الله.

إنَّ بعض المفسرين والمصنفين من أهل العلم أرجع نقل هاجر وإسماعيل إلى مكة بسبب غَيرة سارة من جاريتها هاجر، حيث طلبت من إبراهيم (عليه السَّلام) أن يُبعدَها وأن يغيّبها عنها، ومن هؤلاء العلماء والمصنفين ابن قيِّم الجوزية، حيث قال في (زاد المعاد): إنَّ سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشدّ الغَيرة، فإنَّها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبّه أبوه اشتدَّت غَيرة سارة، فأمره الله سبحانه أن يُبعدَ عنها هاجر وابنَها، ويُسكنَهما في أرض مكة؛ لتبرد عن سارة حرارة الغَيرة، وهذا من رأفته ورحمته تعالى[40].

ونحن نعتقد أن السيدة سارة (عليها السَّلام) فوق كل هذا الأمر، فهي تقيّة نقيّة عابدة، نشأت في كنف خليل الرّحمن نشأة الصفاء، وصُنعت على عينه، وتعلّمت شيئًا كثيرًا من مكارمه وفضائله؛ ولذا فلا يمكن أن تستحكم الغَيرة في قلبها، وتطلب من زوجها أن يُبعد طفلًا رضيعًا وأمّه دون سبب، بل إنَّ ذلك يعود إلى أمر الله ومشيئته فهو علّام الغيوب. وفي هاتيك الأيام، أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إلى الأرض المباركة أمِّ القرى، تلك البقعة التي أراد الله أن يبارك فيها للعالمين[41].

---

[40] الحياة الزوجية في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص223.

[41] الحياة الزوجية في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص223.

وقد قال الصّـــاوي: أمره الله تعالى بالوحي أن ينقلها إلى مكة، وأتى بها بالبُراق[42]. وامتثل إبراهيم لأمر ربّه، وأنزل هاجر وإسماعيل (عليهما السلام) حيث أمره[43].

ولا بُدّ من الحذر من الروايات التي تزعمها الأساطير والإسرائيليات من أن سارة أصبحت تغارُ غَيرة شديدة من هاجر، بعدما أنجبت الأخيرة الولد لإبراهيم، وأن هاجر لم تعد تستطيع رؤية هاجر وابنِها في البيت، وأنها أمرت الخليل إبراهيم بإبعادهما عنها، ووضـــعِهما في مكان بعيد بحيث لا تراهما، فنفّذ إبراهيم أمر سارة، وذهب بهم إلى الحجاز. ولا نقول بهذا؛ لأنه لم يَرد في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، ولا نقبل في تفاصيل القصص القرآني أيَّ كلام لأيٍّ كان، إذا لم يُقدِّمِ الدليلَ على ذلك، إمّا من آية صريحة أو حديث متصل صحيح، ثم إنّ سارة أعظم إيمانًا مما صوّرها به رواة الإسرائيليات، فهي التي قدَّمت هاجر لإبراهيم، وهي التي رَجت أن يكون له ولد، أمّا وقد جاء الولد فأصـــبحت تريد التخلص منه والقضاء عليه، وأنّها لو فعلت ذلك لكانت ظالمة، وإبراهيم لو ذهب بهاجر وإسماعيل إلى الحجاز لهذا الســـبب لكان ظالمًا، وحاشـــا لإبراهيم (عليه السَّـــلام) أن يظلم، وزوجته المؤمنة ســـارة بريئة من ذلك الظلم[44].

4- هاجر وإسماعيل في بلاد الحجاز:

توجَّه إبراهيم عليه السَّلام بهاجر وإسماعيل، ووضعهما في بلاد الحجاز في وادٍ غير ذي زرع، تنفيذًا لأمر الله، ولما غادرهما توجَّه إلى الله ودعا دعاءً خاشـــعًا منيبًا، كما ســـيأتي في حديث البخاري المطوّل، والراجح أن البيت الحرام لم يكن قد بُني عندما وضـــع إبراهيم هاجر وإسماعيل في تلك البقعة، وأن البلد لم

---

[42] حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، (242/2).

[43] الحياة الزوجية في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الخطيب، ص223.

[44] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (385/1)، أنبياء الله، أحمد بهجت، ص134.

يكن قد وُجد ـ كما سنبحث هذا فيما بعد إن شاء الله ـ وعرف أنه سيكون في تلك البقعة: البلد الحرام والبيت المعظَّم الكعبة المشرّفة، وذلك عن طريق الوحي من الله تعالى[45].

جاءت تفاصيل وضع هاجر وإسماعيل (عليهما السلام) في ذلك الوادي في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتّخذ النساء المِنْطَق[46] من قبل أمِّ إسماعيل، اتّخذت منطقةً لتعفي أثرها عن سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ـ وهي ترضعه ـ حتى وضعها عند البيت عند دوحة[47] فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء[48].

أ– وضع هاجر وإسماعيل والبحث عن مغيث:

لقد وضعها هناك، ووضع عندها جرابًا من تمر وسقاء فيه ماء، ثم قضى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟! وقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيّعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثّنيّة، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

---

[45] القصص القرآني، المصدر السابق، (385/1).

[46] المنطق: الحزام الذي تشد به المرأة ثوبها على وسطها.

[47] الدوحة: شجرة صحراوية كبيرة.

[48] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (387/1).، الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سمعون جزومي، ص191.

وجعلت أمُّ إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنُها وجعلت تنظر إليه يتلوّى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فهَبَطَت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعَت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَهْ [49] ـ تريد نفسها ـ ثم تَسَمَّعَت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعتَ إن كانَ عندَكَ غَوَاث[50].

ب– الملك ونبع ماء زمزم ومجيء جُرْهم:

فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو بجناحه ـ [51] حتى ظهر الماء، فجعلت تَحوطُه بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في ســـقائها، وهو يَفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: "يَرحَمُ الله أمَّ إسماعيلَ، لو تركَت زمزمَ ـــ أو لو لم تغرف في الماء ـــ لكانت زمزم عينًا مَعينًا"[52]، فشـربت وأرضـعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّـيعة، فإن ههنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيّع أهلَه.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهم، مقبلين من طريق «كداء»[53]، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا[54]، فقالوا:

---

[49] صه: (اسم فعل)، كلمة تنبيه للانتباه والاستماع لمعرفة ماذا يحدث.

[50] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (388/1).

[51] بحث بعقبه أو بجناحه: ضرب الأرض برجله أو بجناحه، فظهر ماء زمزم.

[52] أي: لو أن هاجر لم تجمع ماء زمزم فيما يشبه الحوض، لكان زمزم عينًا جارية.

[53] كداء: هو ثنية «كدى» التي في أعلى مكة.

[54] الطير العائف: الذي يحوم فوق الماء.

إنّ هذا الطائر ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأمّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، قالت: نعم. ولكن لا حقّ لكم بالماء، قالوا: نعم، فقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس»[55]، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى كان بها أهل أبيات منهم، وشبّ الغلام وتعلَّم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك[56] زوّجوه امرأة منهم، وماتت أمُّ إسماعيل[57]، التي كانت محل احترام وتقدير في المجتمع الجديد، وذرف إسماعيل (عليه السلام) الدموع حزناً عليها، وشوقاً إليها، وشاركه في هذا الحزن الوادي كلّه نساء الحي ورجاله، بكوا بحرقة على السيّدة الكريمة المضيافة، بكوا أميرتهم وسيّدة مكّة فقد رحلت أوّل امرأة سكنت مكّة، وأوّل امرأة شربت زمزم، رحلت من اصطفاها الله لتكون أمّاً لإسماعيل وأمّاً لقبائل عظيمة من العرب، رحلت المناضلة التي صبرت على الابتلاء في الغربة وفي المعاناة والبذل لله وابنها البار إسماعيل، وضعها في قبر مع الدموع[58]، والرضا بقضاء الله وقدره.

5- إبراهيم في زيارته لبيت إسماعيل:

فجاء إبراهيمُ بعدما تزوّج إسماعيلُ يُطالع تركته، فلم يجد إسماعيلَ، فسأل امرأتَه عنه فقالت: خرج يبتغي لنا[59]، ثم يسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدّة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام، وقولي له يُغيّر عَتَبَةَ بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال:

---

[55] أي: إن هاجر كانت تحب الاختلاط بالناس، ولا تحب العزلة.

[56] أدرك: كبر وبلغ مبلغ الرجال.

[57] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (390/1).

[58] في ظلال الأنبياء قصصهم في القرآن والسنة، محمد حمد عبد الله الصوباني، ص64.

[59] يبتغي لنا: يطلب لنا الرزق.

هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرتُه، فسألني: كيف عيشُنا؟ فأخبرتُه أنا في جَهْد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عَتَبةَ بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقَكِ! الْحَقِي بأهلك.

فطلَّقها وتزوَّج منهم أُخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده، فدخل على امرأته فسأل عنه. قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللَّهمَّ بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ــ ﷺ: "ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ"[60]، ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

وفي رواية: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأتُه: ذهب يصيد؛ ثم قالت: ألا تنزل، فتَطعَم وتَشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء، قال: اللَّهمَّ بارك لهم في طعامهم وشرابهم. قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بركة دعوة إبراهيم». قال: فإذا جاء زوجُك فاقْرَئي عليه السلام مُرِيهِ يُثَبِّتُ عَتَبةَ بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تُثَبِّتَ عَتَبةَ بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العَتَبة، أمرني أن أُمسِكَك. ثم لبث عنهم ما شاء الله[61].

---

[60] الحب: هو القمح والشعير.

[61] تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (207/1).

6- التقاء إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت:

جاء نبيُّ الله إبراهيم (عليه السلام) بعد ذلك وإسماعيل يَبرِي نَبلًا له تحت دَوحةٍ قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربُّك؟ قال: وتُعِينُنِي، قال: وأُعِينُك، قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتًا ههنا، وأشار إلى أكَمَة[62] مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفع القواعدَ من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[63].

وهذا حديث صحيح مرفوع للرسول ﷺ، ويتحدَّث عن مسائل ومشاهد من قصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام جميعًا[64].

7- رؤيا ذبح إسماعيل وبناء الكعبة:

هل كانت رؤيا ذبح إسماعيل (عليه السَّلام) في زيارة إبراهيم الثالثة إلى مكة، التي قابل فيها إسماعيل، وبَنيا فيها الكعبة المشرفة؟ أم كانت هذه الرؤيا ومشهد الذبح والفداء في زيارة أخرى لاحقة فيما بعد؟

---

[62] الأكمة المرتفعة: أرض مرتفعة كالتل.

[63] صحيح البخاري، رقم (3363)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (90).

[64] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (392/1).

ليس عندنا من النصوص الصريحة ما يُحدِّد ذلك، فلا نستطيع التحديد والجزم والله أعلم، وهناك رواية موقوفة غير مرفوعة، فقد أخرج الفاكهيُّ عن علي بن أبي طالب رضـــي الله عنه قال: كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق، يغدو غدوة فيأتي مكة، ثم يرجع فيَقيل في منزله بالشام[65].

ولعلَّ الأمرين ــ بناء الكعبة ورؤيا ذبح إسماعيل ــ كانا في الزيارة نفسها التي قابل فيها إبراهيمُ ابنَه إسماعيل (عليهما السلام) بعد غياب سنوات عديدة، فبنيا البيت، وأذّن إبراهيم بالحج، ورأى إبراهيم رؤيا ذبح إسماعيل، وكان الفداء وكانت الأضحية، وكان عيد الأضحى، وكانت مناسك الحج، لعلّ هذا هو الراجح[66].

8- تعدُّد الزوجات في الأمم السابقة:

كان تعدُّد الزوجات سائدًا في الأمم السابقة، وجاء الإسلام ليقرّره شرعًا إلهيًّا، وحكمًا دينيًّا، قال تعالى: ﴿فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3]، وفي التعدُّد حكمة عظيمة، وخاصّة عند الحاجة، كأنْ تكون المرأة لا تنجب، كما حصل مع سارة، فالتعدُّد حلٌّ سديد، وأفضل من طلاق الأولى لزواج الثانية، ولغير ذلك من الأسباب، كان التعدُّد في الزوجات حلًّا إلهيًّا، ومعجزة في التشريع الإلهي حتى تقوم الساعة.

وإنَّ التعدُّد في الزوجات موجود في الشريعة اليهودية، وعند النصارى في العهود الأولى، حتى حرّمته ومنعته الكنيسة فيما بعد، وهو شائع في العالم اليوم إلا في بعض البلاد التي يعترف الرجل فيها أن له مع زوجته أكثر من صاحبة أو خليلة، ثم جاءت الطامة الكبرى في العصر الحاضر في الامتناع عن

---

[65] فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ، (287/6).

[66] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (395/1).

الزواج أصلًا لسهولة الوسائل الأخرى للغريزة الجنسية، وتهرُّبًا من مسؤولية الزواج وتربية الأولاد، ثم جاء الأدهى والأمرّ والنكسة البشرية بالزواج المثلي «اللواط والمساحقة»، وإصدار الأنظمة والتشريعات التي تبيح ذلك وتشجّع عليه. نسأل الله ألا يهلكنا بما فعل السفهاء منّا، وأن يجنّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، ويحمي أمتنا ومجتمعاتنا من أوضار الجاهلية الحديثة[67].

9- حضانة الأم لولدها:

ترك إبراهيم زوجته هاجر وترك ابنها إسماعيل (عليهم السلام) في حضانتها، واستغربَت ذلك منه، وسألته عدة مرات فلم يُجب، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فاذهب، فإن الله لن يُضيّعنا[68].

بقي إسماعيل (عليه السَّلام) في رعاية أمه وحضانتها لتقوم بجميع شؤونه، وتُؤمّن له الطعام والشراب واللباس والمأوى، ونهضت بهذه المهمّة الجليلة لحفظه وهو صغير وهو لا يستقلُّ بأمر نفسه، مع تربيته بما يُصلحه، ووقايته مما يؤذيه، ولأنَّ الإنسان أكثر المخلوقات حاجة في صغره إلى رعاية غيره وكفالته لأطول مدة بين المخلوقات؛ لأنه يهلك بتركها ويتضرر عند التقصير بها، فوجب حفظه من المهالك، ولذلك خلق الله تعالى غريزة الأمومة وفطر الوالدين على العطف والحنان على الصغير، وخاصّة الأم، وحضانتها لولدها في الصغر أكثر أهمية وضرورة، ولذلك أوجب الله تعالى على الوالدة الرضاعة وما يتعلَّق بها، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 233].

---

[67] شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص157.

[68] صحيح البخاري، رقم (3185).

إنَّ حضـانة الأم لولدها رافق البشـريةَ منذ مهدها، وسـيبقى معها إلى آخرها، وأقرّته جميع الشـرائع والأنظمة والقوانين إلا الشـرائع المادية البحتة التي تخلّت عن الإنسـانية؛ كالشـيوعية، فإنها نزعت الأطفال من أمهاتهم، ولذلك تحتّم انقراضُـــها، بل إنَّ القوانين والأنظمة اليوم تمنح الأم إجازة دائمة أو متقطعة لحضـــانة أولادها، لينعموا بالعطف والحنان وحســـن الرعاية والعناية، وهذا ما بدأ مع حواء وأولادها، ثم هاجر وابنها إسماعيل، وسـارة وابنها إسـحاق، وجميع البشـرية، وهذا أحد الأسـباب في منح الأم الأفضـلية والمكانة العليا في الحياة[69]

ثالثاً: إسماعيل عليه السّلام في كتب السّنة:

ذكرنا فيما مضى قصة إبراهيم (عليه السّلام) مع ملك مصر ورجوعه، وقصته مع هاجر وإسكانها مكة المكرمة، وزيارته لهاجر وابنها كل شهر مرة، وتوكل هاجر على الله ووصية النبي صلّى الله عليه وسلّم بأهل مصـــر، وقصـــة هاجر مع زمزم، وبناء الكعبة المشـــرفة، ومشـــاركة إسماعيل والده في البناء، ومن الأحاديث الصحيحة المتعلقة بإسماعيل – عليه السّلام –:

1– تعويذات إبراهيم عليه السّلام لولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام:

من حديث ابن عباس (رضـــي الله عنهما) قال: كان النَّبيُّ ﷺ يُعوِّذُ حسَـــنًا وحُســـينًا: "أُعيذُكما بكلماتِ اللهِ التَّامَّةِ مِن كلِّ شـيطانٍ وهامَّةٍ ومِن كلِّ عينٍ لامَّةٍ " ثمَّ يقولُ ﷺ: "كان إبراهيمُ صـلواتُ اللهِ عليه يُعوِّذُ به ابنَيْهِ إسماعيلَ وإسحاقَ" [70].

---

[69] شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص149.

[70] صحيح ابن حبان، محمد بن حبان التميمي الدارمي البُستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ، 1993م، رقم (1012).

2- مهارة إسماعيل عليه السّلام بالرماية:

من حديث سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم ينتضلون بالسّوق فقال: ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فإِنَّ أَبَاكُمْ كانَ رَامِيًا ارْمُوا، وأَنَا مع بَنِي فُلَانٍ، قالَ: فأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بأَيْدِيهِمْ، فَقالَ: ما لَكُمْ لا تَرْمُونَ؟، قالوا: كيفَ نَرْمِي وأَنْتَ معهُمْ؟ قالَ: ارْمُوا فأَنَا معكُمْ كُلِّكُمْ[71].

3- أول من نطق بالعربية المبينة إسماعيل عليه السّلام:

من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، وهو الحديث الطويل الذي سبق أن ذكرناه: ... فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى كان بها أهل أبيات منهم، وشبّ الغلام وتعلم العربية منهم[72].

ومن حديث علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة[73].

وقال ابن حجر في الفتح: تكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان لا الأولية المطلقة، فيكون بعد تعلمه أصل العربية من جَرهم، ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة، فنطق بها[74].

---

[71] صحيح البخاري، رقم (2899)، الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1995م، ص72.

[72] الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1995م، ص72.

[73] صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1408هـ، 1988م، رقم (2581).

[74] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (403/6).

وقال الديلمي: أصل الفتق الشقّ، أي أنطق الله لسان إسماعيل (عليه السّلام) حتى تكلّم بها، وكان أول من نطق بها كذلك، وقال في المصـــباح: يقال العرب العاربة، هم الذين تكلموا بلســـان يعرب بن قحطان، وهو اللســـان القديم، والعرب المســـتعربة هم الذين تكلموا بلســـان إسماعيل بن إبراهيم (عليه السّلام) وهي لغة أهل الحجاز وما والاها[75].

4- كون كنانة من ولد إسماعيل:

من حديث واثلة بن الأســقع رضــي الله عنه قال: قال رســول الله ﷺ: إنَّ اللَّهَ اصــطَفى من ولدِ إبراهيمَ بني إسماعيلَ، واصطفى كنانةَ من بني إسماعيلَ، واصطفى قُريشًا من كنانةَ، واصطفى بني هاشمٍ من قريشٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ[76].

5- نفي الاستسقام بالأزلام عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

من حديث ابن عباس (رضـــي الله عنهما) قال: إنَّ رَســـولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ البَيْتَ وفيهِ الآلِهَةُ، فأمَرَ بهَا فَأُخْرِجَتْ، فأخْرَجُوا صُـــورَةَ إبْرَاهِيمَ، وإسْمَاعِيلَ في أَيْدِيهِما الأزْلَامُ، فَقالَ صـــلّى الله عليه وسـلّم: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، أَما واللَّهِ لقَدْ عَلِمُوا أنَّهُما لَمْ يَسْـتَقْسِـما بهَا قَطُّ. فَدَخَلَ البَيْتَ، فَكَبَّرَ في نَوَاحِيهِ، ولَمْ يُصَلِّ فِيهِ[77].

---

[75] فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ، (3/92-93).

[76] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، 1412هـ، (27/472).

[77] صحيح البخاري، رقم (1601).

رابعاً: إسماعيل (عليه السلام) في القرآن الكريم:

اسم إسماعيل (عليه السلام) يعني في اللغات السامية القديمة: سامع الربّ، أو سميع الرب، أي: المستجيب له.

وقد وردت كلمة إسماعيل (عليه السلام) في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرّة، في ثمان سور، وهي: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، وإبراهيم، والأنبياء، ص، ومريم.

ومعظم المرّات التي ذُكر فيها كان يُذكر فيها اسمه فقط ضمن ذكر أسماء مجموعة من الأنبياء (عليهم السلام)، جعلهم الله من ذريّة إبراهيم (عليه السلام): إسحاق ويعقوب، وداود وسليمان، وأيّوب ويوسف وموسى وهارون، وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس، وإسماعيل واليسع، ويونس ولوطاً، ومن قبلهم نوح (عليه السلام) والمذكورون في هذه الآيات ثمانية عشر نبيّاً. وفي سورة مريم ورد اسمع في آية التاسع والثلاثين التي تُثبت شكر وحمد إبراهيم لربّه، لأنّه وهبه على الكبر إسماعيل وإسحاق (عليهم الصلاة والسلام). وفي سورة مريم ورد اسمه مرّة، حيث أشاد الله به، وأثنى عليه، لأنّه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبيّاً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان مرضيّاً عند الله عزّ وجل. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: 54-55].

وفي سورة الأنبياء ورد اسمه في الآية (85) مقروناً مع إدريس وذا الكفل. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: 85- 86].

وفي سورة ص ورد اسمه مع اليسع وذي الكفل. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 48][78].

[78] القصص القرآني، (1/ 384).

وقد ارتبط ذكر إسماعيل (عليه السلام) بذكر أبيه في دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وفي الابتلاء العظيم في الذبح والفداء بذبح عظيم، وفي مساعدة أبيه في بناء بيت الله الحرام والأشراف على مناسك الحجّ، وتأتي الآيات في الصفحات القادمة مبيّنة ذلك كلٌّ في محلّه بإذن الله تعالى[79].

[79] القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1996م، ص221، دعوة الأنبياء الرسل في القرآن الكريم، د. بسام الصباغ، ص 83، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرّسل، محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1997م، ص140.

المبحث الثاني: قصّة إسماعيل مع والده إبراهيم (عليه السلام) في سورة الصافات:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: 99-107].

جاءت قصّة إبراهيم (عليه السلام) في سورة الصافات في حلقتين رئيسيتين، حلقة دعوة قومه، وتحطيم الأصنام، وهمّهم به ليقتلوه، وحماية الله له، وخذلان شانئيه، وهي حلقة تكرّرت من قبل في سور القرآن، وقد بيّنتُ تفاصيلها في كتابي (إبراهيم خليل الله داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة). وحلقة جديدة لم تعرض في غير السورة وهي الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء مفصّلة المراحل والخطوات والمواقف في أسلوبها الأخّاذ وأدائها الرهيب مُمثّلة في صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم في عالم العقيدة وتاريخ البشريّة الطويل[80].

[80] في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق للطباعة، القاهرة، ط 32، 2003 م، (5/ 2992).

وإليك تفسير الآيات الكريمة:

أوّلاً: قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)﴾ [الصافات: 99-101]:

هذه حلقة أخرى من قصة إبراهيم (عليه السّلام)، لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه، لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين ونجّاه من كيدهم أجمعين، وعندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة وطوى صفحة لينشر صفحة[81].

1- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾:

هكذا ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾؛ إنّها الهجرة وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية، هي هجرة وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته، يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس، ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل، ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء، طارحاً وراءه كل شيء، مسلماً نفسه لربّه لا يستبقي منها شيئاً، موقنٌ أن ربَّه سيهديه، وسيرعى خطاه وينقلها في الطريق المستقيم.

إنّها الهجرة الكاملة من حالٍ إلى حال، ومن وضعٍ إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء، إنَّه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين.

وكان إبراهيم (عليه السّلام) حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى والصحبة والمعرفة، وكل مألوف له في ماضي حياته، وكل ما يشدّه إلى الأرض التي نشأ فيها والتي

---

[81] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2994/5).

انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه في الجحيم، فاتجه إلى ربّه الذي أعلن أنه ذاهب إليه، اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح[82].

2- قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

لما غادر إبراهيم (عليه السّلام) العراق متّجهاً إلى الشام، وفي الطريق أحسّ (عليه السّلام)، بأنه يسير دون أن يكون في صحبته ولد يؤنسه ويعينه، لقد شعر بالحاجة إلى وريث للدعوة معين فيها، وأحسَّ بالشعور الفطري، شعور الأبوة، يريد أن يتحقق هذا الشعور، فهو أمر فطري في الإنسان.

ولم يكن إبراهيم (عليه السّلام) قد أنجب آنذاك أولاداً، فاتّجه إلى الله في تبتّل وضراعة وخشوع، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الصالحين للدعوة، والصالحين للحياة، والصالحين في أنفسهم، والصالحين لله، إنَّ كلمة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ فيها من المعاني ما فيها، وقد استجاب الله دعاء عبده الصالح النبيَّ المهاجر، الداعية المتجرد صاحب القلب السليم[83].

3- قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾:

قال ابن كثير: وهذا الغلام هو إسماعيل (عليه السّلام)، فإنه أول ولد بُشّر به إبراهيم (عليه السّلام)، وهو أكبر من إسحاق، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصِّ كتابهم أن إسماعيل وُلد وعمر إبراهيم (عليه السّلام) ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم (عليه السّلام) أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة "بِكْره"، فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً "إسحاق"، ولا يجوز هذا؛ لأنَّه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا "إسحاق"؛ لأنَّه أبوهم وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادهم ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان

---

[82] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2994/5).

[83] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص125.

ذهب به وبأمه إلى جانب مكة، وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يُقال: "وحيدٌ" إلّا لمن ليس عنده غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزّةٌ ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السَّلف، حتى نُقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنَّة وما أظنُّ ذلك تُلقى إلّا عن أحبار أهل الكتاب، وأُخذ ذلك مسلّماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:112]. ولما بشّرت الملائكة إبراهيم بإسحاق، قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:53]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:71]؛ أي: يولد له في حياتهما ولدٌ يُسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأنَّ الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيل وُصف ههنا بالحليم؛ لأنَّه مناسبٌ لهذا المقام[84].

هذا وقد استجاب الله دعاء إبراهيم (عليه السّلام) وبشّره بغلام حليم، والحِلم كما نعلم هو العقل والأناة والتبصّر والرزانة والصبر[85].

وما من شكٍّ أنَّ الحِلم من الأسس الأصيلة للنجاح في الدعوة، وقد أتى هذا الغلام على كُبر من سنّ والده وأتى والده لهفة للولد، وأتى بكر والده وكان وحيداً وكان أمل والده فيه ومستقبله كبيراً؛

---

[84] تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ابن كثير، تحقيق: يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1434هـ، 2013م، (27/7).

[85] درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ام كي للنشر والتوزيع، ط1، 2019م، ص265.

خصـــوصـــاً لأنَّ الله منحه عقلاً وذكاءً ونجابة، ومن أجل ذلك كان قرّة عين والديه، وكان حبّهما له كبيراً[86].

وفي قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾؛ انطوت البشارة في الآية على ثلاثة: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان – الحُلم – فالصبي الصغير لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً موصوفاً الحلم، و"الغلام" هو الصبي من حين يولد إلى أن يشبّ، ومثناه: غلامان، وجمعه: غَلمة وغُلمان [87].

وقد بيّنا أنَّ الغلام الذي بشر الله به إبراهيم (عليه السّلام) هو إسماعيل، وإسماعيل: اسم أعجمي، فهو لا يتصرف للعلمية والعجمية، وفي تاج العروس قال السيد الزبيدي: إسماعيل معناه بالسريانية: مُطيع الله، ولذا يكنى من كان اسمه إسماعيل بأبي مطيع، وفي بصائر ذوي التمييز، قال الفيروز آبادي: وإسماعيل بن إبراهيم هو أول من سُمي بهذا الاسم من بني آدم[88].

وبعض اللغويين يرى أن "إسماعيل" مركب من كلمتين: الأولى مشـــتقة من سمع، والثانية من إيل، وهو اســـم الله عزّ وجل، فإن كان وزنه "أفعاليل" فمعناه: أسمعه الله أمره فقام به، والّذي قال: وزنه "فعاليل"؛ لأنّ أصله سماعيل، قال: معناه سمع من الله قوله فأطاعه[89].

الوالدين على العطف والحنان على الصغير، وخاصّة الأم، وحضانتها لولدها في الصغر أكثر أهمية وضرورة، ولذلك أوجب الله تعالى على الوالدة الرضاعة وما يتعلق بها، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ

---

[86] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص125.

[87] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين (آدم ونوح وإبراهيم)، محمد فؤاد سندي، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط1، 2002م، ص183.

[88] يُنظر: تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مادة (سمعل)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996م، (139/6).

[89] ويقال فيه: اسماعين بالنون، وزعم ابن السكيت أن نونه بدل من اللام.

أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:233].

إنَّ حضانة الأم لولدها رافق البشرية منذ مهدها، وسيبقى معها إلى آخرها، وأقرّته جميع الشرائع والأنظمة والقوانين إلا الشرائع المادية البحتة التي تخلّت عن الإنسانية؛ كالشيوعية، فإنها نزعت الأطفال من أمهاتهم، ولذلك تحتّم انقراضها، بل إنَّ القوانين والأنظمة اليوم تمنح الأمة إجازة دائمة أو منقطعة لحضانة أولادها، لينعموا بالعطف والحنان وحسن الرعاية والعناية، وهذا ما بدأ مع حواء وأولادها، ثم هاجر وابنها إسماعيل، وسارة وابنها إسحاق، وسائر البشرية، وهذا أحد الأسباب في منح الأم الأفضلية والمكانة العليا في الحياة[90].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:102]:

أخذ إسماعيل (عليه السّلام) يشبّ ويترعرع حتى بلغ السنّ التي يتمكن فيها من السعي والعمل، وبلغ أيضاً من حبِّ والديه مبلغاً عظيماً، وكان الحبُّ يزداد مع الأيام ويكبر على مرِّ السنين، وإذا بوالده يرى ما يراه النائم أنه يذبح ابنه، وكان الوالد يعلم أنّها إشارة له بذبح ابنه، إشارة من نوع الابتلاء الذي اختبره الله تعالى به من تحطيم الأصنام والإلقاء في النار، وقد نجح في الاختبار السابق واجتازه في ثقة بالله لاحقاً لا حدّ لها، بيد أن الابتلاء السابق واضح المعنى، وكان سافر الملامح، لقد كان أمراً صريحاً بتحطيم الأصنام، وكان تحطيماً مفهوم الدلالة، فما ينبغي أن يعبد مع الله، وما يجوز في منطق العقل والشعور السليم أن ينصرف الإنسان عن مانح النعم، وكان الإلقاء في النار أيضاً واضح المعنى، إنه في سبيل الله

[90] شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص149.

وفي سبيل الله يهون كل ألم، وهو نجح في الابتلاء الماضي وحفظه الله سبحانه وكتب له النجاة كما يفعل سبحانه بكل ما والاه[91].

ونجح في ابتلاء الهجرة ومعاناتها، وما تعرض له من جبّار مصـــر من ابتلاء عظيم، وحان الوقت لابتلاء من نوع جديد أشار الله فيه إلى إبراهيم (عليه السّلام) بذبح ابنه، والحكمة في ذلك – كما يقول الإمام ابن قيّم الجوزية – أن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحبّ إلى الوالدين ممن يولد بعده، وإبراهيم لما سأل ربّه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله سبحانه وتعالى قد اتخذه خليلاً، والخلة هي كمال المحبة، والخلة منصـب يقتضـي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشـارك بينه وبين غيره فيها، فلمّا أخذ الولد شـــعبة من قلب الوالد، أحبَّ الله ســـبحانه لخليله أن يكون له قلبه، فأمره سبحانه بذبح هذا الذي أخذ حبّه شعبة من قلبه، وذلك ليخلص له كاملاً[92].

فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبقَ في الذبح مصلحة، وحصل مراد الربّ، وصدّق إبراهيم الرؤيا، وفداه الله بذبح عظيم[93].

ومما سبق نجد أن القصة تدلُّ من سياقها على أن مُراد الله تعالى من إبراهيم (عليه السّلام) لم يكن ذبح إسماعيل، بدليل أنَّ الذبح لم يحدث، وإنما كان المراد أن يذبح إبراهيم شغفه الزائد بابنه ومحبته به، التي أصبحت تؤثر على مرتبة الخلّة التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة في المحبة[94].

---

[91] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص126.

[92] قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 1992م، ص129.

[93] المرجع نفسه، البدارين، ص130.

[94] إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، دار المنار، جدة، السعودية، 1406هـ، ص129.

1- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾:

إن إبراهيم (عليه السّلام) الشيخ المقطوع من الأهل والقرابة، والمهاجر من الأرض والوطن، ها هو يُرزق في كبرته وهرمه بغلام، طالما تطلع إليه، فلما جاءه، جاء غلاماً يشهد له ربّه بأنه حليم، وها هو ذا ما يكاد يأنس به وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة، ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد حتى يرى في منامه أنه يذبحه، ويدرك أنّها إشارة من ربه بالتضحية، فماذا؟ إنه لا يتردد ولا يخالجه إلا شعور بالطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم، هذا ودون أن يعترض، ودون أن يسأل ربه، لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد؟ ولكنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب، كلا، إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء، يبدو ذلك في كلماته لابنه، وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء واطمئنان عجيب[95].

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، هي كلمات المالك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنه يؤدي واجبه، وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن الذي لا يهوله الأمر، فيؤذيه في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي ويستريح من ثقله على أعصابه.

والأمر شاقٌّ وصعب – ما في ذلك شكّ- فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة، ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته، إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده، يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه – وهو- مع هذا يتلقّى الأمر هذا التلقّي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أني يتروّى في أمره، وأن يرى فيه رأيه، إنه لا يأخذ ابنه على غرّة لينفذ إشارة ربه وينتهي، إنما يعرض الأمر عليه، كالذي

[95] في ظلال القرآن، سيد قطب، (5995/5).

يعرض المألوف من الأمر، فالأمر في حسه هكذا ربه يريد، فليكن ما يريد، على العين والرأس، وابنه ينبغي أن يعرف، وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً لا قهراً واضطراراً، لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر، ويتذوق حلاوة التسليم، إنّه يحبُّ لابنه لذّة التطوع التي ذاقها، وأن ينالَ الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى[96].

أ- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾:

نستشعر في هذه الآية مدى الصحبة القوية بين إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّلام)، فلفظ ﴿مَعَهُ﴾ مقترناً بلفظ ﴿السَّعْيَ﴾، وما يحمل من دلالات الحركة والعمل المشترك، كل ذلك يوحي بمعاني المرافقة والمعاونة والاندماج العاطفي بينهما.

إنَّ هذا الأسلوب في التعامل له دور كبير في إزالة الحواجز بين الآباء والأبناء، فيشعر الابن بقرب الأب منه والعكس، فيشاركه أحلامه وتطلعاته، ويفضي إليه بهمومه ومشكلاته، إننا أمام شخصية ترسم معالم الطريقة التربوية السليمة في التعامل مع الأبناء في مرحلة المراهقة، وما يكتنفها من مخاطر ومصاعب، وما ينتابها من مشاعر متباينة في عقول الآباء ونظراتهم، وهي السنّ الخطرة التي ينبغي أن يكون الأب فيها قريباً من الابن، ولن يكون ذلك إلا بالمصاحبة والمعايشة والرفقة ورفع الكلفة بين الاثنين.

ونلاحظ أن لفظ ﴿مَعَهُ﴾ يضيف إلى معنى الحبّ والعطف شيئاً آخر، وهو انتفاع الأب في المعيشة والسعي، فقد يجمع عليه أمرين بالغي الإيلام هما: فجيعة فقده، ثم انقطاع نفعه وعونه[97].

---

[96] في ظلال القرآن، سيد قطب، (5995/5).

[97] صناعة الحوار "مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم"، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2015م، ص133.

لقد أصبح إسماعيل (عليه السّلام) شاباً راشداً يسعى مع أبيه في الدعوة إلى الله، ويسعى معه في إرشاد الخلق إلى الله عزّ وجل، ويسعى معه في شؤون الحياة العامة.

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾: الفاء في (فلمّا) فصيحة، لأنّها مفصحة عن مقدّر تقديره، فولد وشبّ وترعرع وبلغ معه السعي[98].

كلّ هذه الكلمات طواها التعبير القرآني طيّاً، لأنّها لا تُشكّل أهميّة في قصّة الذبيح، وإنّما المهم الرؤيا التي حدثت للأب، وتبليغ الابن هذه الرؤيا، ومدى استجابته لها، فالتركيز على الهدف من القصّة هو الذي دعا إلى هذا الحذف الذي أفصحت الذي أفصحت عنه الفاء التي تُسمّى الفصيحة[99].

ب- ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾:

- ﴿يَا بُنَيَّ﴾: استخدم إبراهيم (عليه السّلام) في خطابه لولده تعبير ﴿يَا بُنَيَّ﴾، وهو التعبير الذي جاء ليبرز معنى النبوّة مصحوبة بالنداء والتصغير الدال على التحبب لما في هذا التعبير - في هذا الموقف- من الوقع البالغ التأثير، وكأن إبراهيم قبل أن يعرض على ولده هذا الأمر الفظيع، أراد أن ينبهه إلى أنه ليس قاسياً ولا مجرداً من الرّحمة، ولكن شيئاً أقوى من هذا هو الذي جعله يعزم على ما يعزم عليه الآن، هذا الشيء هو استجابته لإرادة ربه.

ونستفيد من هذا الموقف ضرورة التمهيد بكلام طيّب قبل طرح الموضوعات الصعبة والخطيرة، يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: إذا اضطررت إلى الإخبار عن أمر مكروه، أو وقوع حادث مُفجع، أو وفاة قريب أو عزيز على صاحبك أو قريبك أو ما شابه ذلك، فيحسن بك أن تُلطّف وقع الخبر على من

---

[98] البحر المحيط، (7/ 354)، روح المعاني، (23/ 127)، التحرير والتنوير، (23/ 127)، فتح القدير، (4/ 505).

[99] من بلاغة النظم القرآني في سورة الصافات، الدكتورة شومة بنت محمد مساعد الفاضلي البلوي، ص279، وانظر: الهمة في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز سالم الزويلي، ص509.

تخبره به، وتمهّد له تمهيداً يخفّف نزول المصاب عليه، فتقول فيمن تُخبر عن وفاته مثلاً: بلغني أن فلاناً كان مريضاً مرضاً شديداً، وزادت حاله شدة، وسمعت أنه توفّي رحمه الله تعالى[100].

- ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾: استخدم إبراهيم (عليه السّلام) الفعل المضارع ﴿أَرَى﴾ دون رأيت؛ ليوحي إلى ابنه بحضور هذه الرؤيا حين كلامه، فإن لفظ المضارع يدلُّ على تكرار الرؤيا كما يقول البيضاوي والألوسي، وورد عن مقاتل أنه قال: رأى ذلك إبراهيم (عليه السّلام) وثلاث ليالٍ متتابعات، وأيّاً كان عدد المرات، فإن المضارع يدلُّ على الحال المستمر، فكأن إبراهيم يقول لابنه: إنه يا بني أمر لازم واضح، ماثل في نفسي، كأني أراه الآن، وفي هذا شيء كأنه الاعتذار من إبراهيم لابنه (عليهما السّلام)، بأنه إنما يقدم على ما يُقدم عليه؛ لأنه أمام أمر قوي غالب مسيطر[101].

ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة، فإنّ الأنبياء (عليهم السّـــلام) تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم كما في الحديث الشـريف، عن أنس بن مالك رضـي الله عنه: جاءه ثلاثة نفر قبل أن يُوحى إليه، وهو نائم في المسـجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسـطهم هو خيرهم.. والنبي ﷺ نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم[102].

وعن عائشـة رضـي الله عنها قالت: ما كان النبي ﷺ يزيد في رمضـان ولا غيره على إحدى عشـرة ركعة، يصلي أربع ركعات، فلا نسأل عن حُسنهن وطولهن، ثم أربعاً، فلا نسأل عن حُسنهن وطولهن، ثم يُصلي ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: تنام عيني، ولا ينام قلبي[103].

---

[100] أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، د. عودة عبد عودة عبد الله، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2005م، ص327.

[101] المرجع نفسه، ص328.

[102] صحيح البخاري، رقم (3570).

[103] صحيح البخاري، رقم (3569).

ولا شـكَّ أنَّ التكليف بالذبح بواسـطة الوحي أثناء النوم، أكمل في الابتلاء من التكليف باليقظة، وقد أظهر الله سـبحانه وتعالى به المزيد من فضـل إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّـلام) في قضـية الذبح والفداء، واستسلامهما وإذعانهما للتكليف الإلهي[104].

ج- ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾:

بعد أن عرض إبراهيم الموضوع على ولده خاطبه قائلاً: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، فشاوره بذلك مع أنه أمر الله الذي يجب تنفيذه؛ لأن في هذه المشـاورة إعلاماً له ما رآه، لكي يتقبله بثبات وصـبر، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون، وليختبر عزمه وجَلده، ويعلم إبراهيم (عليه السّـلام) مدى التزام ولده بشـرع الله، ويعلم أنه لا يمكن أن يتراجع عن الانقياد لأمر طلبه الله عزّ وجل، لذا فإنه يعرض الموضـوع على ولده في صيغة المشاورة لا في صيغة الأمر، وهذا من أدب إبراهيم مع ولده إسماعيل (عليهما السلام)[105].

وقد دلّت هذه المشورة أيضاً على ثقته (عليه السّلام) بولده، وحسن ظنه به، وأنه سيكون عوناً له تنفيذ أمر الله تعالى، وتحقّق ما كان يرجوه إبراهيم من ولده (عليهما الصلاة والسلام)[106].

2- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾:

أي: افعل ما أُمرت به، ودلّ قوله هذا على علوّ مداركه عليه الصـلاة والسـلام، وهو لا يزال في بواكير عمره، فقد أدرك أنّ رؤيا الأنبياء وحي، وأن رؤيا والده أمر إلهيّ، فحثّه على تنفيذه مع أنّ والده

---

[104] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، 2010م، (160/7).

[105] أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، ص328.

[106] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (160/7).

أعلمه بالأمر بأسلوب الاستشارة، ولما كان خِطاب الوالد ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بأسلوب الترحّم كان خطاب الولد ﴿يَا أَبَتِ﴾ بأسلوب التوقير والتعظيم[107].

وفي لفظ ﴿يَا أَبَتِ﴾ فيه من إظهار الاحترام والطاعة، وهذا اللفظ يوحي هنا بأن المعنى المسيطر على إسماعيل هو طاعة أبيه، مهما كان الفعل، وأيّاً كان مصدر الأمر بالفعل، وكأنه يشير بذلك إلى تبادل العاطفة السامية النبيلة بين رحمة الآباء وطاعة الأبناء[108].

3- قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾:

نلاحظ سمو الأدب مع الله عزّ وجل ومعرفة إسماعيل - عليه السّلام - لقدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ومساعدته على الطاعة، ولك يأخذها بطولة ولم يأخذها شجاعة ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة، ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً، إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه وأصبره على ما يراد به ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، يا للأدب مع الله، ويا لروعة الإيمان ويا لنيل الطاعة ويا لعظمة التسليم[109].

إنّها مدرسة الطاعة الخالصة والتسليم الكامل لله تتضح من موقف إبراهيم، وردّ إسماعيل (عليهم السلام) في هذه القصّة العجيبة[110].

---

[107] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، (329/23).

[108] أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، ص329.

[109] أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، ص329.

[110] مدرسة الأنبياء عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، ص97,

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات:103-106]:

لقد تهيأ كل شيء لتنفيذ الرؤيا، ومع ذلك فإن الذبح لم يتم، فماذا حدث؟ لقد همَّ سيدنا إبراهيم (عليه السّلام) بذبح ابنه، وتهيّأ كل شيء لتنفيذ الذبح، الأب موقن بأن رؤياه إلهام من الله، والابن موقن أنه على صواب حينما رضي بالموت تنفيذاً لأمر الله، لقد استسلم الأب لأمر الله، واستسلم الابن لأمر الله، والقرآن حينما تحدّث عن حالتهما قال:

1- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾:

لقد أسلما رغم محاولة الشيطان أن يلعب دوراً في الاختبار والابتلاء، حين جاء الشيطان يوسوس إلى إبراهيم (عليه السّلام) مُوحياً بأن الأمر لا يخرج عن أن يكون رُؤيا، وكم في الرؤى من أضغاث أحلام، وهل من العقل أن يذبح إنسان ابنه مطيعاً رؤياه؟ لعلها وهم من الأوهام ولعلها خيال، مجرد خيال على أنه في الرؤيا -حسب وسوسة الشيطان- لم يؤمر بذبح ابنه، ولكنه رأى أن يذبحه، وفرق بين أن يؤمر بذبحه، وبين أن يرى أنه يذبحه، وأحسّ سيدنا إبراهيم بالشيطان يريد أن ينفذ إلى قلبه، فرجم الشيطان بسبع حصيات، وردّه خاسئاً مدحوراً، ولم ييأس الشيطان وهو العنيد اللجُوج، لقد انصرف من الأب إلى الابن قائلاً: إنّها مجرد رؤيا، أيذبحك أبوك من أجل رؤيا؟ وأحسّ الابن بالمحاولة الخبيثة، وعرف أنّها محاولة شيطانية، فرجم الشيطان بسبع حصيات، ولم ييأس الشيطان، وهو العنيد اللجوج، فذهب مسرعاً إلى أم إسماعيل قائلاً لها: أدركي ابنك، إنّ أباه يريد أن يذبحه، استنقذيه منه قبل فوات الأوان، ورجمته الأم لثقتها بأن زوجها لا يتصرّف إلا في إطار الوحيّ، لقد رجمته هي الأخرى بسبع حصيات.

لقد رجم الجميع مصدراً من أهم مصادر الشرّ وهو الشيطان، وهذا الرمز الجميل - أعني: رجْم مصدر من مصادر الشرِّ- هو الذي يتكرر كل عام حينما يوشك الحجاج إلى بيت الله الحرام أن ينتهوا من حجّهم، إنَّ حكمة رمي الجمار في الحج إنما هي رمي مصدر من أهم مصادر الشر والإثم والمعصية

وهو "إبليس"، ورجمه مراراً وتكراراً، وتنتهي أعمال الحج بهذه الصورة الرائعة، صورة العزم المصمّم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية، وذلك تسجيل مؤكد وإعلان مشهود وإشهاد سافر على أنَّ الحاجَّ قد عزم عزماً لا تزعزعه أعاصير الشهوة أو مغريات الفتنة على أن يصبح خيراً كله، لا مجال لنزغات الشيطان للتسلل إلى نفسه، فقد أصبح – بتطهير نفسه وبرجم الشيطان– من عباد الله المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم[111].

لقد أسلم إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّلام) فلما أسلما أيّ: خلصا لله كلية واستسلما إليه استسلاماً مطلقاً، ثقة وطاعة لله ورضى وتسليم له سبحانه وتعالى، وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم، وهذا هو الإسلام في حقيقته، عن الذي صنعه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السّلام– إنما هو الاستسلام لمراد الله، الاستسلام الواعي المتعقّل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون مع الرضى الهادئ المستبشر المتذوّق للطاعة وطعمها الجميل[112].

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّلام) قد أدّيا، وكانا قد أسلما، وكانا قد حققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقياً إلا أن يُذبح إسماعيل– بعد أن تلّه للجبين– أي أكبه على وجهه، ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه؛ ليكون أهون عليه[113].

– ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ بمعنى صرعه وألقاه على خدّه الأيمن أو الأيسر استعداداً، ولا مرية في أنّ قوله: ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أخصر وأوجر من ذلك كما هو واضح.

– ﴿تَلَّهُ﴾؛ هذه الفردية القرآنيّة أقوى تعبيراً وأشدّ تصويراً من ألقاه وأسقطه وصرعه، كما فسّره اللغويّون والمفسّرون؛ لأنّها تصوّر بدقّة هيئة إسماعيل (عليه السلام) المنتصبة الشامخة، وهي تسقط على الأرض

---

[111] قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، ص129.

[112] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2996/5).

[113] تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (15/4).

طواعيّة رضا بأمر ربّه وأبيه، كما أنّ لفظة الجبين أكثر دقّة، لأنّ الشخص الذي يكون على تلك الهيئة لا بدّ أن يُلقى على أحد جنبيه فيكون أحد حبينيه على الأرض، فاختار الجبين على الجبهة لهذا السبب، فإنّ من ذلك أن الذكر الحكيم يصطفي ألفاظه بدقّة متناهية وإحكام شديد بلغ الحد، وفاق الوصف.

– هاتان الفريدتان ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ترمزان إلى عدّة أمور فريدة: تفرّد موضعهما في القرآن إذ لم يرد الحديث عن هذا الأمر إلّا في سورة الصافات فحسب. الأمر الإلهي لخليل الله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل الوحيد آنذاك هو أمر فريد وحيد لم يحدث قط في تاريخ الكون كلّه لأيّ نبيّ أو أي إنسان آخر.

واستجابة خليل الله إبراهيم (عليه السلام) وهو شيخ كبير لهذا الأمر الإلهي المنامي ينمّ عن تفرّده بهذا الابتلاء، وتفرّده بالاستجابة المطلقة دون تردّد أو مراجعة أو وجل بل استسلام كامل، وجلد شديد لأمر المولى (عزّ وجل)، وكذلك موقف إسماعيل في إذعانه وطاعته الكاملة فقد كان نسيجاً وحده لم يتململ أو يتردّد[114].

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): فلما عزم إبراهيم (عليه السّلام) على ذبح ولده ورماه على شقه، قال الابن: يا أبت اشدُد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمّي، فتراه أمي فتحزن، وأحِدَّ شفرتك، وأسرع بها على حلقي؛ ليكون الموت أهون عليَّ، فقال إبراهيم (عليه السّلام): نعم العبد أنت يا بني على أمر الله، ثم ضمّه إلى صدره، وأخذ يقبّله ويودّعه الوداع الأخير ثم أسلم إبراهيم ابنه إسماعيل (عليهما السلام)، فصرعه على شقه، وأوثقه بكتافه، ووضع السكين على حلقه وأمرّها فوق عنقه، ولكن السكين لم تقطع؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى الذي قد سلب خاصية الإحراق من النار التي أُلقي فيها من قبل إبراهيم (عليه السّلام) هو سبحانه وتعالى الذي سلب خاصية القطع من السكين التي مرّرها إبراهيم على رقبة ابنه إسماعيل (عليه السّلام)، فقال إسماعيل الغلام الحليم:

[114] الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، د. عبد الله سرحان، ص84– 85.

يا أبتِ كُبّني على وجهي، فإنك إذا نظرت إليّ أدركتك رحمة بي تحول بينك وبين أمر الله، ففعل إبراهيم الشفوق الرحيم، ثم وضع السكين على قفا ابنه المطيع، فلم تمضِ الشفرة، ولم تفُرِ الأوداج[115].

والمهم في القصـــة، أنه كان الابتلاء قد تمَّ، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، ولم يعد إلا الألم البدني وإلا الدم المســـفوح والجســـد الذبيح، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء، ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكليّتهم، فقد أدّوا وقد حققوا التكليف، وقد جازوا الامتحان بنجاح، وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّـــلام) صدقهما، فاعتبرهما قد أدّيا وحقّقا وصدَقا[116].

2- قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَـــدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105)﴾:

أي: قد صـدقت الرؤيا وحققنها فعلاً؛ فالله لا يريد إلا الإسـلام والاسـتسـلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنّه عن الله، أو تعزّه عن أمره، أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة وأنت – يا إبراهيم– قد فعلت، جُدّت بكل شيء، وبأعزّ شيء، وجُدّت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين، فلم يبقَ إلا اللحم والدمّ، وهذا ينوب عنه ذبح أي ذبح من دمّ ولحم ويفدي الله هذه النفس التي أسـلمت وأدّت، يفديها بذبح عظيم، قيل إنّه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربّه وإرادته ليجذبه بدلاً من إسماعيل[117].

---

[115] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص205.

[116] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2996/5).

[117] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2996/5).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء، ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيهم بأقدارهم وإجبارهم على الأداء، ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء[118].

وقد ذكر الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات أنَّ الإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال أحسنَ إلى فلان، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً[119]، والإحسان أعمُّ من الإنعام، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:9]، فالإحسان فوق العدل، والعدل هو أن يعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحرّي العدل واجب، وتحرّي الإحسان ندب وتطوع، ولذلك عظّم الله ثواب المحسنين فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي الآية إشارة أن نجاح إبراهيم (عليه السّلام) وابنه، إسماعيل (عليه السّلام) وفي هذا الامتحان من الإحسان والإتقان في العمل وبهذه الدرجة جعلتهم من المحسنين ما استحقوا من ثواب على هذا الإحسان[120].

ومن معاني ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أيّ: هكذا نصرف عمّن أحسن طاعتنا وعبادتنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:2][121].

---

[118] المرجع نفسه، سيد قطب، (2996/5).

[119] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1412هـ، 1992م، (236/1) .

[120] قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص129.

[121] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (162/7).

3- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾:

بيّن الله عزّ وجل أن هذا الامتحان لإبراهيم (عليه السّلام) هو الامتحان الكبير؛ لأنَّه امتحنه في – أحبّ المخلوقات إليه – ابنه الوحيد البكر، وأمره أن يذبحه بيده، وهذا من أصـــعب الابتلاءات على النفس البشرية، ومع هذا نجح إبراهيم وإسماعيل (عليهم السّلام) بدرجة الامتياز[122].

وقد ظهر صـــفاء إبراهيم (عليه السّـــلام) وكمال محبته لربّه وخلّته، فلما قدّم حبّ الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه[123].

وظهر من إسماعيل (عليه السّلام) انقياد واستسلام لأمر الله، وحلم عجيب وصبرُ يضرب به المثل، ومحبة للخالق العظيم، وودُّ واحترام وتقدير للوالد الكريم صاحب الرسالة والنبوّة.

وفي هذا البلاء المبين قصـــة وعبرة قد تقع بنحو ما مع كل مؤمن، ويعيشـــها كل مؤمن، فالمؤمن لا بُدَّ أن يُمتحن، ولا بُدَّ من أن يوضع في اختيار صعب؛ ليظهر إيمانه، ولتظهر طاعته، وليظهر حبه، وليظهر ورَعه، وليظهر خوفه، فإذا آثر رضـــوان الله على الدنيا نجح وأتته الدنيا راغمة، كما أخرج ابن حيان عن عائشـة قالت: قال رسـول الله ﷺ: من التمس رضـا الله بسـخط الناس (رضـي الله عنه)، وأرضـى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس[124].

---

[122] قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص129.

[123] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط4، 1435هـ، ص 706.

[124] سنن الترمذي، رقم (2414)، ويُنظر: تفسير النابلسي "تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة"، (461/10).

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:107]:

أيَّ فدى الله إسماعيل (عليه السّـــلام) بكبش عظيم، ومعنى عظيم أي سمين أو عظيم القدر؛ لأنَّه يُفدى به نبياً ابن نبي[125].

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: إنَّ إبراهيم لما أمر بالمناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، قال: قد تلّه للجبين.. وعلى إسماعيل قميص أبيض، وقال: يا أبتِ، إنه ليس لي ثوب تكفنّي فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنّي فيه فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فغذا هو بكبش أقرت أعين[126].

ورُوي عن ابن عباس (رضي الله عنه) في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم (عليه السّلام) ابنه واتّبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته عندها، فجاء إلى الجمرة الوسطى، فأخرجه عندها فرماه بسبع حصيات، ثم أفلته، فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات، فأخرجه عندها، ثم أخذه فأتى به المنحر من مِنى فذبحه، فو الذي نفس ابن عباس بيده، لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه في ميزاب الكعبة حتى وحش، يعني: يبس[127].

---

[125] قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص129.

[126] مسند أحمد، رقم (2794)، ويُنظر: قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص129.

[127] تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، نقلاً عن إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، ص129.

ومضـــت بذلك ســـنَّة النّحر في الأضـــحى، ذكرى لهذا الحدث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة وعظمة التسـليم، والذي ترجع إليه الأمة المسـلمة؛ لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم (عليه السّـلام) الذي تتّبع ملّته، والذي ترث نسـبه وعقيدته، ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنّها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبّية، لا تسأل ربّها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عن أول إشارة وأول توجيه[128].

وفيما يتعلق بوصـف الكبش أقوال كثيرة ذكرها العلماء، ومنها قول الجمهور: هو كبش أبيض أقرن أعين أملح عظيم القدر، قال مجاهد: لأنه متقبّل يقيناً وقيل: لأنّه كان من عند الله، وقيل لأنّه لم يكن عن نسل، بل عن التكوين[129].

وفي تفسـير ابن كثير: قال سـفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي رضـي الله عنه: قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة، قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسمرة في ثبير [130].

وذكرت روايات عديدة في هذا الموضوع تحتاج إلى البحث العلمي وفق قواعد المحدثين في علم الجرح والتعديل، وقد استشـهد الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – بهذه الآية ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.. فيمن نذر ذبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة[131].

---

[128] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2996/5).

[129] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص212.

[130] ثبير: جبل بين مكة ومِنى، ويُرى من مِنى وهو على يمين الداخل منها من مكة المكرمة، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (18/4).

[131] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص212.

وقال السـعدي في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي صـار بدله ذبح من الغنم عظيم ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم القيامة[132].

1- من هو الذبيح؟

لا شكّ أن الذبيح هو إسماعيل (عليه السّلام) وأقوال العلماء في ذلك كثيرة منها:

أ- يُستدل على أن الذبيح إسماعيل (عليه السّلام) بقول الأعرابي للنبي صلّى الله عليه وسلّم: يا ابن الذبيحين، وبقوله صلّى الله عليه وسلّم: "أنا ابن الذبيحين"، يعني إسماعيل وعبد الله أباه[133].

ب- يقول الإمام أحمد بن حنبل: الصحيح أنّ الذبيح إسماعيل (عليه السّلام)، وعليه جمهور العلماء من السّلف والخلف[134].

ج- يذكر ابن تيمية أن الذي يجب القطع به أنّه إسماعيل، وأنه هو الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة، ويذكر في موضع آخر أن الذبيح هو إسماعيل (عليه السّلام) على أصح القولين للعلماء، وقول أكثرهم كما دلّ عليه الكتاب والسنة[135].

---

[132] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص1477.

[133] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م، (422/5).

[134] تفسير الخطيب الشربيني المسمى "السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير"، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، (386/3).

[135] قصة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين عرض ونقد، د. فتحي محمد الزغبي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص200.

د- ينهض القرآن الكريم بمجموع آياته الواردة في هذه القصة وتسلسلها ودلالتها؛ ليكون حجة كافية، واستدلالاً قوياً للقول بأنّ الذبيح هو إسماعيل، ويؤيّد ذلك الأحاديث النبوية، وبعض أخبار أهل الكتاب، فهذا القدر من الأدلة يكفي للقول على سبيل القطع بأن الذبيح هو إسماعيل (عليه السّلام) أو كما يقول عنه الحافظ بن كثير هو القول الصحيح المقطوع به[136].

هـ- يذكر الإمام ابن القيم إنّ القول بأن الذبيح إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجهاً، وأن إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين من بعدهم[137].

و- قال البقاعي: وهذا الولد هو إسماعيل (عليه السّلام) بلا شكَّ لوجوه؛ منها وصفه بالحليم، ووصف إسحاق بالعليم في سورة الحجر، ومنها: أن هذا الدعاء عند الهجرة، حيث كان شاباً يرجو الولد، وهو إسماعيل الذي ولد له بهذه البشرى، وهو الذي كان بمكة موضع الذبح، فجعلت أفعاله في ذبحه مناسك للحج في مِنى، كما جعلت أفعال أمه في مكة المشرفة أول أمره، عندما أشرف على الموت من العطش مناسك ومعالم هناك، وأما إسحاق فأتته البشرى فجأة وهو لا يرجو الولد لكبره ويأس امرأته، ولذلك راجع في أمره، ولم ينقل أنه فارق أمه من بيت المقدس[138].

ز- وقال أبو السعود في ترجيح هذا القول: والأظهر الأشهر أن المخاطب إسماعيل (عليه السّلام) إذ هو الذي وهب إثر المهاجرة، ولأن البشارة بإسحاق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام[139].

ح- إنَّ ترجيح القول بأن الذبيح إسماعيل (عليه السّلام) لا يلزم منه نقص أخيه إسحاق (عليه السّلام)، فإن الله تعالى أثنى عليه بالعلم والنبوّة والبركة، وأنه من المصطفين الأخيار، وأن الله تعالى خصّه

---

[136] المرجع نفسه، ص200.

[137] زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، (71/1).

[138] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (179/7).

[139] تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، (200/7).

بخالصـــة ذكرى الدار[140]، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـــحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَـارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْـنَاهُمْ بِخَالِصَـةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْـطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47)﴾ [ص:45-47][141].

[140] حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص525.

[141] ومن أراد التوسّع فليرجع إلى قصص الأنبياء، عبد الوهّاب النجار، ص151، أنبياء الله الكرام، د. حنان قرقوتي، ص131، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمّد سرور زين العابدين، ص227 إلى 233، قصص الأنبياء في القرآن الكريم، توفيق الواعي، ص171-172، قصـــص القرآن، خالد ضـــاديقي، ص285، مع الأنبياء وجهادهم من خلال ســـورة الأنبياء، محمود عبد الحميد الأحمد، ص 275، نظرات في أحسن القصص، محمد السيد الوكيل، (1/ 201)، رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر، (1/ 231).

المبحث الثالث: مكانة إسماعيل عند والده إبراهيم وفي بناء بيت الله وفي دعوته.

إسماعيل (عليه السلام) مرتبط ارتباط أصيلاً متجذّراً ببناء بيت الله الحرام مع والده إبراهيم (عليه السلام)، فحديث القرآن الكريم عن الحجّ والمناسك والدعاء والوصيّة بالإسلام والتوحيد وإفراد الله بالعبادة تمثّل مسيرة إسماعيل (عليه السلام) في السير على منهج أبيه إبراهيم خليل الله (عزّ وجل). وفي سورة البقرة نجد ذكر إسماعيل، قال تعالى لإبراهيم وإسماعيل: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾؛ أي: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصي من الرجس والنجاسات والأقذار.

وذُكر أيضاً في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ وفي الدعاء العظيم، وفي برّه بأبيه ومعاونته في فعل الخير.

وذكر في وصيّة إبراهيم لبنيه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾. وفي وصيّة يعقوب لبنيه ذكر عمّه إسماعيل (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)﴾ [البقرة: 133].

وذُكر بالاسم في الآية الكريمة التي اشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح، والإخلاص في ذلك لله، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)﴾ [البقرة: 136].

وقد بيّن الله (عزّ وجل) في الآيات الكريمة التي تحدّثت عن إبراهيم (عليه السلام) في إمامته للناس، وبنائه للبيت ورسـالته التوحيديّة، ومكانة ابنه إسماعيل منه وعند الله (عزّ وجل). وهذه الآيات الكريمة وحدة موضوعيّة متكاملة لها بداية ولها نهاية، وإليك الآيات الكريمة ثمّ تفسيرها.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَـفِهَ نَفْسَـهُ وَلَقَدِ اصْـطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَـرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَـبْتُمْ وَلَا تُسْـأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ

فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141) ﴾ [البقرة:124-141].

في الآيات الكريمة التي ذُكرت من سورة البقرة، كان الجدال مع أهل الكتاب دائر كله حول سيرة بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ومن مواثيقهم وعهودهم، ابتداءً من عهد موسى (عليه السّلام) إلى عهد محمد صلّى الله عليه وسلّم أكثره على اليهود وأقله على النصارى، مع إشارات إلى المشركين عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب.

فالآن يرجع السّياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى، بحيث يرجع إلى إبراهيم (عليه السلام)، وقصة إبراهيم (عليه السلام) – على النحو الذي تُساق به في موضعها هذا– تؤدي دورها في السّياق، كما أنّها تؤدي دوراً مهماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف

إنَّ أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق (عليهما السّلام) ويعتزّون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده، ومن ثم لا يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أياً كان ما يعملون[142].

[142] في ظلال القرآن، سيد قطب، (111/1).

وإنَّ قريش لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل (عليهما السّلام) وتعتز بنسبتها إليه، وتستمد منها القوامة على البيت وعمارة المسجد الحرام، وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب وفضلها وشرفها ومكانتها.

وقد وصل السياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهوداً أو نصارى؛ ليهتدوا ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، كذلك وصل إلى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، وقلنا هناك: أنّها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية القبلة، وبالدعاية المسمومة التي أثاروها في الصّف الإسلاميّ بهذه المناسبة، فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (عليهما السّلام) والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره في جوّه المناسب؛ لتقرير الحقائق الخالصة في ادّعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً، حول هذه النسب وهذه الصلات، ولتقرير قضية القبلة ينبغي أن يتجه إليها المسلمون[143].

كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم، وهي التوحيد الخالص وبعد ما بيّنها وبيّن العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء، وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب – وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه – وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين ولتقرير وحدة دين الله واطراده على أيدي رسله جميعاً، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس، وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء، وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس، ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة، فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل من أي قبيل، فهو أحقُّ بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب، فالدين دين الله وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا مهر.

---

[143] المرجع السابق، سيد قطب، (111/1).

هذه الحقائق التي تمثل شطراً من الخطوط الأساسية في التصور الإسلامي، يجلوها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء عجيب، وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع، يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم عليه السّلام، منذ أن ابتلاه ربّه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه وتنصيبه للناس إماماً إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام، فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعاً، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة، سبب الإيمان بالرسالة وحسن القيام عليها والاستقامة على تصورها الصحيح.

وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يبرز السياق أن الإسلام كان هو الرسالة الأولى وكان هو الرسالة الأخيرة، هكذا اعتقد إبراهيم وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ثم آلت أخيراً إلى وراثة إبراهيم من المسلمين[144].

فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ووريث عهودها وبشاراتها، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم فقد فسق عن عهد الله وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته، عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته وهم ورثته وخلفاؤه.

لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة وعندئذ تسقط كذلك دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته؛ لأنهم فقدوا حقهم في وراثة باني هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته، ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون، فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم، كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب

[144] في ظلال القرآن، سيد قطب، (111/1).

حافل بالإشـارات الموحية، والوقفات العميقة الدلالة والإيضـاح القوي التأثير، فلنأخذ في اسـتعراض هذا النسق العالي في ظل هذا البيان المنير[145].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:124]:

شاءت حكمة الله تعالى أن يبتلي عبد إبراهيم (عليه السّلام) فنجح نجاحاً عظيماً.

1- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

يقول الله عزّ وجل للنبي محمد ﷺ اذكر ما كان من ابتلاء الله عزّ وجل لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهن وفاء وقضاء، وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، وهو مقام عظيم، ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم، مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عزّ وجل والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفي ولا يستقيم[146].

فقد قام إبراهيم (عليه السّلام) بالكلمات الشرعية وأتمّها ووفّاها وصبر على القدرية واحتسب، فمن الأمور الشرعية ما صحّ عن ابن عباس (رضي الله عنه) في تفسيره هذه الآية قال: ابتلاه الله بالطهارة: خَمسٌ في الرأسِ، وخمسٌ في الجَسَدِ؛ خمسٌ في الرأس: قصُّ الشَّارِبِ والمضمضةُ، والاستنشاقُ والسِّواكُ، وفَرْقُ الرأسِ، وفي الجَسَدِ: تقليمُ الأظفارِ، وحَلْقُ العانة، والختانُ، ونتفُ الإبْط، وغسلُ أثَر الغائِطِ والبَولِ بالماءِ، ومن ذلك أيضاً: الإسلام، والحج، والإحرام، والطواف، والسعي ورمي الجمار[147].

---

[145] المرجع نفسه، (112/1).

[146] في ظلال القرآن، سيد قطب، (112/1).

[147] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، دار العبيكان، الرياض، ط1، 2016م، ص215.

وغير ذلك من التفاسير والرأي الذي قال به الدكتور عبد الحليم محمود مستنداً على الإمام الحسن البصري: هو ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفّى به[148].

وقد نجح إبراهيم (عليه السّلام) في ابتلاءات عديدة بفضل الله تعالى منها:

- نجح إبراهيم (عليه السلام) في ابتلاء الدعوة، عندما دعا أباه وقومه وحاكم قومه.
- نجح الخليل في ابتلاء المواجهة؛ عندما واجه الكفار وثَبت على الحق.
- نجح في ابتلاء الهجرة عندما هاجر للأرض المقدسة.
- نجح في ابتلاء الفراق عندما وضع زوجه وابنه في وادٍ غير ذي زرع.
- نجح في ابتلاء التضحية عندما نفذ رؤياه بذبح ابنه، لولا الله فداه.
- نجح في ابتلاء الكرم والضيافة.
- نجح في ابتلاء بناء البيت.
- نجح في ابتلاء العبادة والذكر والشكر والتوبة وسنن الفطرة والاختتان والدعاء.
- نجح في ابتلاء الولاء والبراء والمفاضلة للأعداء.
- نجح في ابتلاء الإمامة والريادة والقدوة[149].

وتدخل في الكلمات التي كلف الله إبراهيم (عليه السلام) بها ما تشمله من أوامر ونواهٍ وأحكام وواجبات سواء ما يتعلق منها بالعقيدة أو العبادة أو الدعوة أو الأخلاق أو غير ذلك[150].

---

[148] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص.

[149] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (441/1).

[150] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (441/1).

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: أي: أدّاهن أحسن التأدية وقام بهن حق القيام من غير تفريط ولا تقصير ولا تأخير، فقام بالكلمات الشرعية ووفّى بها وصبر على القدرية، واحتسب وصبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله ولذلك رفع الله منزلته، وكافأه على ذلك في الدنيا والآخرة[151].

وبهذا شهد الله له بأنه أتم الالتزام بالكلمات وأتمّ أداء التكاليف والواجبات ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، ولعل السبب في نجاح إبراهيم في الابتلاء والباعث له على أداء وإتمام الكلمات والواجبات، هو قوة صلته بالله، وسلامة قلبه من الآفات والنقائص وامتلاؤه بالإيمان والإحسان حيث أثنى الله على إبراهيم بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84)﴾ [الصافات:83-84]، ولما نجح إبراهيم في ابتلاء الله وأتمّ الكلمات، أكرمه الله بأن جعله إماماً للناس[152].

2- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾:

والإمام هو الذي يأتمّ به الناس، ويقتدون به في الخير ويتأثرون به، ويتخلّقون بأخلاقه ويهتدون بهديه.

قال الإمام الراغب: الإمام هو: المؤتم به، إنساناً: كأن يقتدى بفعله أو قوله، أو كتاباً أو غير ذلك، سواء كان مُحقاً أو مبطلاً وجمعه أئمة[153].

والإنسان الصالح إمام وقدوة في الخير، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24]، وجعل الله إبراهيم (عليه السّلام) إمام هدى للناس، كل الناس

---

[151] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص215.

[152] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (442/1).

[153] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص24.

على اختلاف الزمان والمكان: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وبقي إبراهيم إماماً لمن بعده من المؤمنين، كان إماماً لمؤمني بني إسرائيل وإماماً لمؤمني النصارى، وصار إماماً للمسلمين أتباع محمد ﷺ، ومازال إماماً لهذه الأمة وسيبقى إماماً لها، ما دامت هذه الأمة باقية، إن إبراهيم (عليه السّلام) إمام دعوة، ومنار هدى، ومعلم عقيدة، ونور طريق منذ وجوده وحتى قيام الساعة[154].

وجعله الله إماماً للناس وهيأ له حياة غنية بالتجارب الإنسانية؛ لتكون نماذج حيّة يحتذي بها كل من يوجّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، وهذا معنى عالمية دعوته (عليه السلام)، لقد كان إبراهيم إمام في كل دقيقة من دقائق حياته، يسجّل للناس قواعد خالدة في معاشهم ومعادهم، يفيؤون إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[155].

إنّ الإمامة للناس التي أكرمه الله بها جاءت بعد نجاحه في الابتلاء، وإتمامه للكلمات، وهذا دليل على أن الإمامة لا تأتي إلا بعد نجاح في العمل وأداء الواجبات، فطريق الإمامة ليس سهلاً ولكنه شاق يحتاج إلى جهد ومجاهدة، وصبر ومصابرة وتحمّل المشقة والتعب.

إن من يعيش على هامش الحياة لن يكون إماماً، وإن من يعيش مع توافه الحياة لن يكون إماماً، وإن من يعيش كسولاً أنانياً لا مبالياً لن يكون إماماً، فللإمامة رجالها الأشاء، وروادها الأولياء وصالحوها الأوفياء، وإمامهم إبراهيم أبو الأنبياء (عليه الصلاة والسلام)، ولما أخبر الله إبراهيم (عليه السلام) بأنه جعله للناس إماماً، سأل عن الأئمة من ذريته[156].

---

[154] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (442/1).

[155] من أنباء القرى، أحمد عبيد الكبيسي، تحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص205.

[156] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (443/1).

3- قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

ولما اغتبط إبراهيم (عليه السلام) بمقام الإمامة للناس طلب ذلك لذريته؛ لتعلو درجته وذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية[157].

فقد أحب الخير لأولاده وأحفاده وهذه طبيعة أصحاب الفطر السليمة من بني البشر، كما أنّها رغبة في الامتداد في طريق الخيرات عن طريق الذراري والأحفاد، ذلك الشعور الفطري العميق الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضي في طريقها المرسوم، يكمل اللاحق ما بدأه السابق وتتعاون الأجيال كلها، وتتساوق ذلك الشعور الذي يحاول يعضهم تحطيمه وتعويقه وتكبيله، وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى، وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث، تلبيةً لتلك الفطرة وتنشيطاً لتعمل، ولتبذل أقصى ما في طوقها من جهد[158].

وتلبية لأشواق الفطرة، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وجاء الردُّ من ربه الذي ابتلاه واصطفاه، يقرر القاعدة الكبرى، إنّ الإمامة لمن يستحقونه بالعمل والصلاح والإيمان وليست وراثة أصلاب وأنساب، فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة[159]، ولذلك قال: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

---

[157] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص91.

[158] في ظلال القرآن، سيد قطب، (112/1).

[159] المرجع السابق، (112/1).

4- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾:

إن الظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشـــرك، وظلم الناس بالبغي، والإمامة الممنوعة على الظالمين تشـمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسـالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصـلاة، وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة؛ فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها ومن ظلم – أي لون من ألوان الظلم – فقد جرّد نفسه من حقّ الإمامة، وأسقط حقّه فيها بكل معنى من معانيها[160].

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الظالمين لا حقّ لهم في سياسة الشعوب؛ إنّ وظيفة السياسة قيادة الشعوب لدفع المفاسـد وجلب المصـالح في جميع المجالات العقدية والاجتماعية والاقتصـادية والنفسـية.. إلخ، وقد مارس ذلك أنبياء الله كداود وسليمان ومحمد (عليهم الصلاة والسلام) وفق شرع الله وأحكامه سبحانه وتعالى.

إنّ الذين يحاولون إقناع الناس بأن الســـياســـة نجســـة، والدين طاهر ولا يليق أن نخلط المقدس بالرجس، إنما يحاولون بذلك صرف السياسة عن رقابة الدين والأخلاق، وهذا مبدأ جاهلي قديم يقول: "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، أو يحاولون فصل سياسة الناس عما يعتقدونه من دين، وهي عملية شريرة حقاً أن تسوس الناس وفق أهوائك لا وفق معتقداتهم، ثم تقول لهم – وأنت تهز كتفيك –: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين.

إن هذا المبدأ الظالم يجعل مقاليد الأمور في أيدي أفسـد الناس، وأظلم الناس ممن لا يُقرّون شـرعية ولا يحتكمون للكتاب، وإن الآية الكريمة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ تهدم عليهم فكرتهم الباطلة تلك، فقد حرّم الله أن تصير مقاليد الأمور إلى الظالمين؛ فمنصب سياسة الناس يحرم أن يوسّد الأمر إلى غير أهله، كأن يخلف الأنبياء خلوف لا يسـتنون بسـنتهم ويسـوسـون الناس بالهوى ويقولون ما لا يفعلون،

---

[160] المرجع نفسه، (112/1).

ويفعلون في شؤون العبادة ما لا يؤمرون، حيث تنحرف وظيفة الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها، فذلك محض حرام أن تكون مقاليد سياسة البشر في أيدي الظالمين، ولا سيما الذين يفصلون الكتاب عن القارئ، والشريعة عن القضاء، والدين عن السياسة.

وهذا ما أكد الله عليه، حينما عهد بالأمر إلى إبراهيم (عليه السّلام) وكلّفه أن يكون للناس إمامهم يسوسهم بمنهج الله، فتسائل إبراهيم أن تكون هذه الإمامة في ذريتي، فكان الردّ بحرمة أن يؤول هذا الأمر إلى الظالمين[161].

فهذا المنصب يحرم على الظالمين، ولا يجوز للظالم أن يسوس الناس، فضلاً عن حرمة الركون إليه، واستدل أهل العلم بهذه الآية على أن أهل الحل والعقد يتوجب عليهم عزل الإمام، إذا سار في الرعية بسيرة الظلم، كما حكى الإمام الماوردي[162].

وقال ابن تيمية: فدل على أن الظالم لا يؤتم به[163]. وقال السعدي: ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها[164].

---

[161] رؤية إسلامية للنهضة بواقع الأمة، محمد مسعد ياقوت، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط1، 2013م، ص22.

[162] الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، الماوردي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ، 1999م، (154/12).

[163] منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية، محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1406هـ، 1986م، (255/8).

[164] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص91.

وقال القرطبي: استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم ألا ينازعوا الأمر أهله فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[165].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:125]:

1- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾:

ذكر الله تعالى أنموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم (عليه السّلام) وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام حاطاً للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذريته ما عرف به إمامته وتذكرت به حالته[166].

أ- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾:

﴿وَإِذْ﴾ للظرفية، وهي متعلقة بمحذوف تقديره "اذكر" يعني: اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي صيرناه للناس، ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: صيرنا، ﴿الْبَيْتَ﴾: "الـ" هنا للعهد الذهني، والمراد به الكعبة لأنّها بيت الله عزّ وجل، وأتى هنا بـ "ال" التفخيم والتعظيم يعني: البيت المعهود الذي لا يجهل[167]

وسمّيت الكعبة بذلك لتكعيبها، أي تربيعها ولارتفاعها ونتوئها، وارتفاع ذكرها في الدنيا واشتهار أمرها في العالم، ولذلك يقولون لمن عظم أمره: فلان علا كعبه[168].

---

[165] تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي، (2/74-75).

[166] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص91.

[167] قصص القرآن، محمد صالح بن العثيمين، ص61.

[168] بيت الله الحرام الكعبة، محمد عبد الله، ص30.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عدة أسماء للكعبة من هذه الأسماء: البيت العتيق، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29]، وسبب تسميته بالبيت العتيق قيل في عدة أسباب منها:

- لأنَّ الله تعالى أعتقه من الجبابرة.
- أنَّ العتيق بمعنى القديم.
- أنّه لم يملك قط.
- لأنّه أعتق من الغرق زمن الطوفان[169].

وسمّيت مكة ببكة، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ..﴾، وسبب التسمية، ذكر العلماء أقوالاً منها:

- لازدحام الناس عندها، والمعنى هو الزحم، إذ يُقال: بك فلان فلاناً إذا زحمه وصدمه، فهو يبكه بكا، وسميت البقعة بفعل المزدحمين بها[170].
- لأنّها تبك أعناق الجبابرة، أي تدقها، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله[171].
- لأنّها تقع من نخوة المتجبرين، يقال بككت الرجل أي وضعت منه، ووردت نخوته بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها[172].

---

[169] مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة ط1، 1415 هـ، 1995م، ص243.

[170] زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط4، 1407هـ، 1987م، (344/1).

[171] تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (57/2).

[172] زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (343/1).

ومن أسمائها المسجد الحرام قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:144][173].

ومن أسمائها أم القرى؛ لشـــرفها وعلو كعبها على باقي القرى، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّـــعِيرِ﴾ [الشـــورى:7]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَـــدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:92]، وسمّيت بأم القرى؛ لتقدمها على سائر القرى، وسميت بذلك لأنَّ الأرض منها دحيت وعنها حدثت فصارت أماً لها لحدوثها عنها، كحدوث الولد عن أمه، وسمّيت كذلك بالبلد الأمين: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[174].

ب- **﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾**

أيّ: مرجعاً ومعاداً، كلما انصـــرفوا منه اشـــتاقوا إليه، فعادوا وثابوا إليه في الحج والعمرة والعبادة فلا ينقضي منه الوطر ولا تشبع منه النفوس، ويثوبون إليه أيضاً في الصلاة بقلوبهم ويتوجهون إليه بأجسادهم ويتذكرونه في كل يوم وليلة[175].

ويقول الشـيخ محمد متولي الشـعراوي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾؛ تأمل كلمة البيت وكلمة مثابة، بيت مأخوذ من البيتوتة، وهو المأوى الذي تأوي إليه وتســـكن فيه وتســـتريح وتكون فيه زوجتك وأولادك، ولذلك سّميت الكعبة بيتاً؛ لأنّها في المكان الذي يسـتريح إليه كل خلق الله، ومثابة يعني مرجعاً تذهب إليه وتعود ولذلك فإن الذي يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يجب أن يرجع

---

[173] بيت الله الحرام الكعبة، محمد عبد الله، ص31.

[174] ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، دار المعراج للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2021م، ص186.

[175] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص217.

مرات ومرات، إذن فهو مثابة؛ لأنه ذاق حلاوة وجوده في بيت ربّه، وأتحدى أن يوجد شـــخص في بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته[176].

تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما في صـــدرك من ضـــيق وهم وحزن، ولا تتذكر أولادك ولا شـــؤون دنياك، ولو ظلت جاذبية بيت الله تعالى في قلوب الناس مســتمرة؛ لتركوا كل شـــؤون دنياهم ليبقوا بجوار البيت، ولذلك كان عمر بن الخطاب (رضـي الله عنه) حريصـاً على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة.

ومن رحمة الله سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاج وقلبه؛ لأنَّ الحجيج في بيت ربهم وكلما كربهم شـــيء أو همهم شـــيء، توجهوا إلى ربّهم وهم في بيته، فيذهب عنهم الهمّ والكرب، ولذلك فإن الحق سـبحانه وتعالى يقول: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37]، أفئدة وليسـت أجسـاماً، وتهوي أي يلقون أنفسهم إلى البيت، إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلى بيت الله؛ ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة[177].

و﴿وَأَمْنًا﴾ أي: جعلناه آمناً يأمن فيه الناس على دمائهم وأموالهم، ويأمن فيه حتى الصـــيد والأشـــجار أن تقطع وهو محل آمن لمن يســـكنه، وكان الرجل في الجاهلية يرى قاتل أبيه وأخيه في الحرم، فلا يتعرض له وكانوا لا يُغيرون على مكة مع شـــركهم، ولأجل توفير الأمن فيه نهى النبي ﷺ على حمل السلاح في مكة المكرمة فقال: لا يُحمل فيها سلاح لقتال[178].

---

[176] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، 2013م، (575/1).

[177] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (576/1).

[178] صحيح مسلم، رقم (1374)، تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص217.

2- ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾:

المقامُ في اللغة: بفتح الميم، هو موضع القدمين، من قام يقوم يكون مصدراً واسماً للموضع، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه نبي الله إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسّلام) حين ارتفع بناؤه للبيت، وشق عليه تناول الحجارة، فكان يقوم عليه وبين وإسماعيل (عليه السلام) يناوله الحجارة.

وقام عليه أيضاً للنداء والأذان في الحج في الناس، وفي هذا الحجر المكرّم أثر قدمي إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام)، حيث جعل الله تعالى تحت قدميه من ذلك الحجر في رطوبة الطين، حيث غاصت فيه قدماه ليكون ذلك آية بينة ظاهرة، وهو الحجر الذي يعرفه الناس إلى اليوم عند الكعبة المشرّفة الذين يُصلون عنده ركعتي الطواف، وهذا القول في التعريف بمقام إبراهيم هو القول المصحّح عند جمهور العلماء والمفسّرين المحققين[179].

وهناك أقوال أخرى في المراد من ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ مروية عن بعض المفسرين المتقدمين، أذكرها – وإن كانت مرجوحة – لاستيفاء القول، فقيل: هو عرفة ومزدلفة والجمار، وقيل: هو الحرم كله، ومما يدل على صحة القول الأول الذي عليه الجمهور: أنّ الله تعالى أمرنا بفعل الصلاة خلف المقام في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:126]، وليس في الصلاة تعلّق بالحرم ولا سائر المواضع التي ذكرت في الأقوال الأخرى[180].

---

[179] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم وذكر تاريخهما وأحكامهما الفقهية وما يتعلق بهما، سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت, لبنان، 1996م، ص102.

[180] المرجع نفسه، ص102.

وروى أنس بن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنهما قال: وافقت ربي عزَّ وجل في ثلاث، قلت: يا رســـول الله، لو اتخـذت من مقـام إبراهيم مصـــلّى، فـأنزل الله تعـالى: ﴿وَاتَّخِـذُوا مِنْ مَقَـامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾...[181].

وصـلّى النبي ﷺ خلف المقام، كما في حديث جابر (رضـي الله عنه) عند مسـلم في صـحيحه في صـفة حج النبي صـلّى الله عليه وسـلّم قال: فَرَمل ثلاثاً، ومشـى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم (عليه الصـلاة والسـلام)، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَـلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فدل على أن مراد الله تعالى بذكر المقام هو الحجر[182].

إنّ هذا الاسـم في العُرف مُختص بهذا الحجر؛ ولأن الحجر صـار تحت قدميه في رطوبة الطين حين غاصـت فيه رجلاه، وفي ذلك معجزة له، فكان اختصـاصـه به أقوى من اختصـاص غيره، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى[183].

أ- قيام إبراهيم على المقام للأذان بالحج:

إنّ هذا الحجر المكرّم ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي قام عليه إبراهيم الخليل لبناء البيت، هو نفســه الذي قام عليه حين أمر بالأذان بالحج، ولا مانع من تكرّر صـــعوده على المقام مرة للبناء، وأخرى للنداء وهو صريح الروايات في ذلك، ففي فتح الباري للحافظ بن حجر رحمه الله تعالى: زاد في حديث عثمان: فلما

---

[181] صحيح البخاري، ك الصلاة، باب (32)، صحيح مسلم، رقم (24).

[182] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (299/2).

[183] البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1420 هـ، (381/1).

فرغ إبراهيم من بناء الكعبة، جاء جبريل فأراه المناســـك كلها، ثم قام إبراهيم على المقام فقال: يا أيها الناس أجيبوا ربكم، فوقف إبراهيم وإسماعيل تلك المواقف[184].

وروى الفاكهي، بإسناد صحيح من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قام إبراهيم عن الحجر فقال: يا أيّها الناس، كتب عليكم الحج فأسمع من في أصــلاب الرجال وأرحام النســاء، فأجابه من آمن، ومن كان سبق في علم الله أنه يحجّ إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك[185].

ب- أثر قدمي إبراهيم الخليل في حجر المقام:

إنَّ من آيات الله البينة الباقية على مرّ الأزمان في حرم الله الآمن أثر قدمي نبيه إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) في ذلك الحجر الكريم ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وقد جعل الله ذلك معجزة له حين قام عليه، وهو حجر صَلد، فلانَ تحت قدميه حتى أصبح كالطّين وغاصت قدماه فيه، ثم لما رفع قدميه عنه خلق الله فيه الصــلابة الحجرية مرة أخرى، وبقي أثرهما طاهراً فيه من ذلك العصــر - من حوالي خمســة آلاف سنة - إلى يومنا هذا إلى ما شاء الله[186].

وقد كان أثر أصــابع وأخمص قدميه الشــريفتين في الحجر واضــحاً إلى زمن الصــحابة رضــوان الله عليهم: ففي موطأ ابن وهب عن يونس عن ابن شــهاب، عن أنس رضــي الله عنه قال: رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم[187].

---

[184] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص107.

[185] أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، الفاكهي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1414هـ، 1994م، (446/1).

[186] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص108.

[187] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (169/8)، وسكت عنه.

وأخرج الطبري في تفسيره من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في تفسير قوله ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال قتادة: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخْلَولَق وانمحى[188].

وإنه يظهر من نص أثر سيدنا أنس (رضي الله عنه) المتقدم في الموطأ أن أثر الأصابع وأخمص القدمين كان ظاهراً، لكن كاد أن ينمحي بسبب مسح الناس للمقام، ولكن لم يذهب الأثر كلية، فمن عاينه عن قرب شديد وأمعن النظر فيه، ظهر له بعض ذلك الأثر كما ذكر هذا مؤرخ مكة في القرن الرابع عشر الشيخ محمد طاهر الكردي – رحمه الله – حين فتح المقام ونظر فيه[189].

قال ابن حجر: ولم تزل آثار قدمي إبراهيم عليه السلام حاضرة في المقام معروفة عند أهل الحرم حتى قال أبو طالب – عمّ النبي ﷺ– في قصيدته المشهورة:

وَمَوْطِئِ إِبْراهيمَ في الصَّخْرِ رَطْبَةً عَلى قَدَمَيْهِ حافِياً غَيْرَ ناعِلِ[190]

ويظهر من أثر القدمين الشريفتين في المقام أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان حافياً حين رقى المقام كما هو ظاهر أثر قدميه وكما ذكر أبو طالب في قصيدته[191].

---

[188] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص113.

[189] المرجع نفسه، ص113.

[190] الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، (13/2).

[191] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص114.

ويقول الشيخ محمد طاهر الكردي المكي – رحمه الله – بعد فتحه للمقام وإمعان النظر في موضع قدمي إبراهيم الخليل (عليه السّلام)، وقياسه لذلك: والذي نستنتج من رؤيتنا للقدمين الشريفتين أن طول سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه، هو كطول الرجل العادي في زماننا – القرن الرابع عشر– لا بالطويل ولا بالقصير.

ولذلك كان نبينا محمد ﷺ يشبه جده إبراهيم عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين الصلاة والسلام، ففي صحيح البخاري قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث الإسراء في وصف سيدنا إبراهيم (عليه السلام): ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به[192].

وفي طبقات ابن سعد عند ذكر خبر كفالة عبد المطلب للنبي ﷺ قال ابن سعد: وقال قوم من بني مدلج[193] لعبد المطلب – جد النبي صلّى الله عليه وسلّم– احتفظ به– أي: بالنبي صلّى الله عليه وسلّم – فإنّا لم نرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام – مقام إبراهيم– منه[194].

ج– فضائل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

لقد جعل الله تعالى لهذا الحجر الكريم ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فضائل عديدة وخصّه بآيات كثيرة، تدل على عظم شرفه وكبير شأنه، وقد ثبت فضله واشتهر بنص القرآن الكريم وصريح السنة النبوية المطهرة.

---

[192] صحيح ابن حبان، رقم (51).

[193] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص115.

[194] المرجع نفسه، ص115.

- **تخليد ذكره في القرآن الكريم:**

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز هذا المقام الكريم في آيتين عظيمتين عند ذكره جلّ وعلا بيته المشرف المعظم، فهو قرآن يُتلى على مر الدهور تخليداً لذكره الحسن، وبياناً لشرفه وفضله وتكرمة لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

فقد ذكره الله تعالى آية بينة من أعظم آيات حرم الله، كما أمر المؤمنين باتخاذه مصلّى لهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:125]، وفي هذا الأمر باتخاذه مصلى تنويه بشرفه وشأنه وتخليد لذكره ما تلا كتاب الله تالٍ، وما طاف بالبيت طائف، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران:96-97]، وهكذا أبقى الله تعالى ذكر هذا المقام الكريم يُذكر مع بيت الله وحجّه مع الصلاة والدعاء خلفه إلى ما شاء الله تعالى[195].

- **من أعظم آيات الله البينات في حرم الله:**

بيّن الله تعالى لعباده أن في بيته المحرّم المعظم المبارك آيات بينات واضحة الدلالات ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، وإن مقام إبراهيم وأمن الداخل إلى الحرم جُعلا مثالاً مما في حرم الله من الآيات وخُصّا بالذكر لعظمهما[196].

---

[195] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص146.

[196] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، (224/3).

وهذه الآية العظمى ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ هي في نفسها تشتمل على عدة آيات واضحات عجيبة ومعجزات باهرة، أظهرها الله سبحانه في ذلك الحجر الكريم، فهي آيات في آية، ومن هذه الآيات في مقام إبراهيم ما يلي:

- أثر القدمين في الصخرة الصماء آية.
- وغوصهما فيها إلى الكعبين آية.
- وإلانة بعض هذا النوع دون بعض آية.
- وارتفاع المقام لإبراهيم الخليل في السماء حين ارتفع بالبناء آية.
- وإبقاؤه على مر الزمان آية.
- وحفظه ألوف السنين من الأعداء مع كثرتهم وشدة عدائهم آية.
- المقام معجزة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ودليل على نبوته.
- ومن آيات المقام أيضاً أنه لا تخلو لحظة من اللحظات من قائم وراكع وساجد خلف المقام تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فسبحان الله المعبود الصمد على الدوام جلّ وعلا[197].

- **الأمر الرباني باتخاذه مصلى:**

قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾؛ إن هذا الأمر الصريح من الله تعالى باتخاذ المقام مصلى، دليل على فضل وشرف هذا المقام الكريم وشأنه الكبير عند الله[198].

---

[197] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص149.

[198] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص150.

- **من مواطن إجابة الدعاء خلف المقام:**

نصّ كثير من العلماء والفقهاء على استحباب الدعاء عقب ركعتي الطواف خلف المقام؛ لأنّه من مواطن إجابة الدعاء وعلى هذا يدعو المصلي خلف المقام بما أحبّ من أمور الدنيا والآخرة، والأفضل أن يدعو بما هو مأثور[199].

ولما كان من حكم الصلاة خلف المقام تذكر باني البيت العتيق، وهو نبي الله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذي جعله الله تعالى لنا قدوة وأسوة حسنة حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة:4]، فهو قدوة عليه الصلاة والسلام في صفاته الحميدة وأخلاقه المجيدة وما منّ الله تعالى به عليه من مقامات علية سنية.

فحري بالمصلي وهو قائم خلف هذا المقام الحسّي، وهذا الحجر المبارك الذي قام عليه إبراهيم الخليل، أن يلاحظ ويذكر تلك المقامات العليّة والإكرامات الإلهية التي أفاضها الله بها على نبيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويسأل الله تعالى في هذا الموطن الذي تجاب فيه الدعوات، وترجى فيه البركات أن يكتب له من تلك المقامات الإبراهيمية النبوية أوفر الحظ والنصيب، فهو سبحانه القريب المجيب[200]، وقد بيّنا في كتابنا قصة إبراهيم ومواقفه من خلال القرآن الكريم، وما ثبت عن نبينا العظيم صلّى الله عليه وسلّم.

د- بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالمقام:

من أهم الأحكام الفقهية المتعلقة بالمقام استحباب صلاة ركعتي الطواف خلف المقام، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قدم النبي صلّى الله عليه وسلّم فطاف بالبيت

---

[199] المرجع نفسه، ص154.

[200] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص158.

سبعاً وصلّى خلف ركعتين ثم خرج إلى الصفا وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[201].

وروى مسلم في صحيحه عن جابر (رضي الله عنه) في صفة حجة النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: حتى إذا أتينا البيت معه ﷺ استلم الركن فَرَمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم (عليه السلام) فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[202].

وعلى استحباب ركعتي الطواف خلف المقام جمهور المفسرين والفقهاء، كما قال الإمام علي القاري رحمه الله[203].

3- ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

أ- قول السعدي:

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقذار ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه ﴿وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي المصلين، قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأنّ من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة، مع أنّها أفضل لهذا المعنى، وأضاف الباريّ البيت إليه لفوائد منها:

- أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما ويستغرقان وسعهما في ذلك.

---

[201] صحيح البخاري، ك الحج، باب من صلى ركعتي الطواف، (487/3).

[202] صحيح مسلم، ك الحج، (887/2).

[203] فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم، سائد بكداش، ص171.

- أن الإضافة تقتضي الشريف والإكرام ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.
- أن هذه الإضافة هي السبب الجالب للقلوب إليه[204].

ب- قول الدكتور فؤاد محمود بن سندي:

جاء في القرآن الكريم أمر الله تعالى لخليله إبراهيم (عليه السّـــلام) بتطهير بيته الحرام مرتين؛ المرة الأولى: وجه الأمر إلى إبراهيم وحده وذلك في ســـورة الحج قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:26].

والمرة الثانية وجه الأمر لإبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما الســـلام) بعد أن بنيا البيت، وعُرف المقام وكثر الناس في مكة، وذلك في ســورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:125].

ففي الآية الأولى أمر إبراهيم (عليه السلام) بتطهير بيت الله للطائفين به والمصلين إليه، قال الإمام القرطبي: ذكر الله تعالى في هذه الآية من أركان الصـــلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والســـجود وهذه هيئات الصلاة[205].

هذا وفي الثانية أمر إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّـــلام) بتطهير بيت الله تعالى للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصـــلين فيه، فآية ســـورة الحج جمعت صـــنفين من العابدين في البيت الحرام "طائفين ومصلين"، وأما سورة البقرة فقد جمعت ثلاثة أصناف منهم: طائفين ومعتكفين ومصلين[206].

---

[204] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص92.

[205] تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي، (37/12).

[206] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص256.

ج- قول الطاهر بن عاشور:

والمراد من تطهير البيت: ما يدلُّ على لفظ التطهير من تطهير محســـوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ؛ ليكون المتعبد فيه مقبلاً على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي وهو أن يبتعد عنه ما لا يليق بالقصـــد من بنائه من الأصـــنام والأفعال المنافية للحق، كالعدوان والفســـوق والمنافية للمروءة، كالطواف عرياً دون ثياب الرجال والنســاء، وفي هذا تعريض بأن المشـركين ليسـوا أهلاً لعمارة المسـجد الحرام لأنهم لم يطهرون مما يجب تطهيره منه، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:34]، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:28][207].

وإذا كان الله تعالى قد منح شـــرف بناء الكعبة وتطهيرها إلى إبراهيم وإسماعيل (عليهما الســـلام)، فقد منح نبينا وحبيبنا محمداً ﷺ شرف تطهير البيت من أدران الشرك، ومما أحاطه به الكفار والمشركون من أوثان تعبد من دون الله تعالى.

فإذا كان إبراهيم (عليه السّـــلام) قد بناه ابتداءً خالصـــاً لله تعالى لا يشـــرك به شـــيء فقد أحاطه المشـــركون مع تتابع الســـنين ومرور الأزمان بأوثان تعبد مع الله جلّ في علاه، فكانت مهمة عُظمى ومسؤولية كبرى في عنق محمد ﷺ أدّاها على أكمل وجه[208].

د- قول ابن قيّم الجوزية:

بدأ بـ "الطائفين"، وهم أقرب العابدين إلى بيت الله تعالى، وهم أقل المذكورين في الآية، إذ لا يُشرع الطواف إلا حول هذا البيت، وتلاهم "العاكفين"، وهؤلاء يكونون في المســـجد الحرام كله، بل وفي كل

---

[207] تفسير التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، (114/1).

[208] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 2017م، ص126.

مسـجد، ويختصُّ الاعتكاف الشـرعي بالمسـاجد لا يتعداها، فالعاكفون أكثر عدداً من الطائفين، وهم أبعد رتبة منهم عن البيت الحرام.

ثم ذكر المصـلين والصـلاة بركوعها وسـجودها تكون في البيت وعنده وفي المسـجد كله وفي كل مسجد بل تعمّ سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع أو استثنى شرعاً، فالمصلون أكثر من العاكفين وهم أبعد رتبة عنهم من البيت[209].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:126]:

بيّن الله تعالى بعض الخصائص التي خصَّ بها أرض الحرم، ببركة دعوات إبراهيم عليه السلام، ويبدو أنّها من الدعوات التي دها بها عندما وضـع فيها ولده إسماعيل مع أمه وتركهما وانصـرف، وقد مرّ معنا الحديث بتفاصـيله عند الحديث عن آيات سـورة الصـافات وابتلاء الله لإبراهيم بذبح ابنه إسماعيل (عليه السلام).

1- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: واذكر يا محمد ﷺ، إذ قال إبراهيم في دعائه.

وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي: الوادي المهجور الخالي الذي ليس فيه زرع ولا ماء ولا بناء.

وقوله: ﴿بَلَدًا﴾: "البلد" اسم لكل مكان مسكون، سواء كان صغيراً أو كبيراً.

---

[209] بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (81/1).

وقوله: ﴿آَمِنًا﴾ أي: ذا أمن، يأمن أهله فيه من القحط والخسف والقتل والسّلب والنّهب والرعب والخوف والمسخ والجوع ونحو ذلك.

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فجعل مكة بلداً آمناً، وهذا في الأعم الأغلب على مرّ العصور وكرّ الدهور، ولا ينافي ذلك ما وقع في مكة من حوادث قليلة تعكّر هذا الأمن، والقاعدة تبقى قاعدة، وإن وُجد لها شواذ؛ لأن الحكم للأعمّ الأغلب، فإن مكة – شرّفها الله– كانت آمنة في غالب الأزمان التي مرَّت عليها، هذا من الناحية القدرية، وأما من الناحية الشرعية، فإن الله أوجب علينا أن نحفظ الأمن في مكة ولا نُفسده ونعتني به أكثر مما نعتني به في الأماكن الأخرى[210].

ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن من دونها وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما اختاره لذلك البلد من كونه منبع الإسلام[211].

وقوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾ أي: أعط ساكنيه والمقيمين فيه.

وقوله:﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: والثمرات ما تحمل به الشجرة وتنتجه مما فيه غذاء للإنسان أو فاكهة له.. وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية وتوفر أسباب الإقامة حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه؛ لأنّه رجا أن يكونوا دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنفية وخص إبراهيم عليه السلام المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان لساكنيه[212].

---

[210] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص219.

[211] منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص94.

[212] تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (1/715-716) بتصرف.

وقد فعل الله سبحانه ذلك، فالثمار تأتي إلى مكة من مختلف بقاع الأرض القريبة والبعيدة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:57][213].

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، و﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: هو يوم القيامة وسُمي آخراً؛ لأنّه لا يوم بعده[214]، أي: ارزق المؤمنين بالله واليوم الآخر خاصة؛ ليستعينوا بالرزق على طاعة الله[215].

ولكن الله تعالى قدّر أن يكون الرزق في الدنيا لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، كما في قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:20]، ولهذا قال الله تعالى تعقيباً على دعوة إبراهيم (عليه السّلام)[216].

2- ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾: القائل هو الله (سبحانه وتعالى)، فأجاب الله تعالى دعاءه يعني: وأرزق من كفر أيضاً فرزق الله شامل للمؤمن والكافر، بل للإنسان والحيوان كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:6]، وأنت ترى بعض الخشاش في الأرض ما حوله شيء، ولكن الله ييسر الرزق يجلب إليه من حيث لا يشعر ولا يحتسب ويذكر في هذه الأمور

---

[213] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (193/1).

[214] قصص القرآن، محمد بن صالح العثيمين، ص68.

[215] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص219.

[216] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (193/1).

قصص غريبة، ويشاهد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العمياء يجلب الله لها رزقاً كلما احتاجت إلى ذلك، فتأكله والله على كل شيء قدير[217].

وقوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ ومهما كان هذا الرزق فهو في الحقيقة شيء يسير وقليل لأنه زائل وفانٍ[218]، بل الدنيا كلها لو حصلت لشخص فهي قليلة كما قال تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:77][219].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي: ألجئه وأسوقه، و﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ أي: الذي لا محيص عنه ولا منجى له منه وهذا جزاء وفاقاً على كفره، و﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع الذي يصير إليه[220].

- وفي هذه الآية من الفوائد:
- أنّه لا غنى للإنسان عن دعاء الله تعالى، مهما كانت مرتبته.
- أنّ الدعاء سبب في حصول المقصود.
- رأفة إبراهيم الخليل (عليه السلام) بمن يؤمّ البيت الحرام.
- احتياطه في الدعاء لما طلب أن يكون الرزق لمن آمن بالله واليوم الآخر.
- إن الله يرزق المؤمن والكافر.

---

[217] قصص القرآن، محمد بن صالح العثيمين، ص71.

[218] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (193/1).

[219] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص220.

[220] المرجع السابق، محمد صالح المنجد، ص220.

- وفيها: أنه لما كانت الإمامة نعمة دينية استثنى الله الظالمين منها؛ لأنّهم لا يستحقون هذا الشرف، أما الرزق فنعمة دنيوية، فأعطاه الله المسلم والكافر، ولم يستثنى الكافر منه؛ لأنّ متاع الدنيا قليل، ولا يساوي عند الله جناح بعوضة، فلذلك يعطيه من يحبّ ومن لا يحبّ[221].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:127]:

أمر الله إبراهيم (عليه السلام) أن يبني الكعبة المشرفة بيت الله الحرام، فتوجّه إلى مكة، حيث يقيم ابنه إسماعيل (عليهما السّلام)، وقال له: إن الله يأمرني بأمر، قال: إسماعيل: اصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: إسماعيل: وأعينك، قال: إن الله أمرني أن ابني هاهنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[222].

وقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى بناء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّلام) لبيت الله الحرام[223].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الكعبة قد بنيت قبل إبراهيم (عليه السّلام) وكان فعل إبراهيم وإسماعيل هو تجديد بناء الكعبة وليس إنشاؤه؛ لأنّ الكعبة قد بُنيت من قبل، لكن بقيت أساساتها، فرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد على تلك الأساسات.

---

[221] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص220.

[222] صحيح البخاري، رقم (3363).

[223] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (43/1).

وذهب علماء آخرون إلى أن الكعبة لم تبن قبل إبراهيم وإسماعيل، وما كان أحدٌ قبلهما يعلم أن من مكانها كعبة، وأنها كانت مبنية ثم هُدمت، ولو كانت مبنية ثم هدمت لعلم العرب ذلك، وتناقلوه في بلادهم في الحجاز واليمن ونجد، وبما أنهم لم يتناقلوا ذلك فهو دليل على أن الكعبة لم تكن مبنية من قبل، وإبراهيم وإسماعيل (عليه السّلام) هما أول من بنيا الكعبة.

لا توجد أحاديث صحيحة تتحدث عن بناء الكعبة قبل إبراهيم (عليه السّلام) وكل ما يعتمد عليه أنصار القول الأول، إنما هو أخبار وروايات لم تثبت ولم تصح حديثياً، ولذلك لا تعتمد ولا تدل على ما يراد بها في موضوع النزاع[224].

ومن أراد معرفة ملابســـات بناء الكعبة فعليه بالوقوف أمام الآيات القرآنية التي تحدثت عن ذلك، فقد اعتمد أنصـار القول الأول على ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج:26]، وعلى ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:127]، فقالوا: إن مكان البيت كان موجوداً قبل إبراهيم ولكنه كان مخفياً مطموراً؛ لأنّ البيت كان مهدوماً وبوأ الله لإبراهيم مكان البيت ودلّه عليه، وأرشده إليه، وعرّفه على أساساته، فقام هو وإسماعيل يرفع القواعد على تلك الأساسات، ولا نرى الآيتين تدلان على ما يقولون، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾، يدل إبراهيم على هذه المنطقة التي ســـيبنى عليها البيت وهيّأها له، وأمره ببناء البيت في ذلك المكان الذي حدّده له سبحانه، والذي سيعلم منذ الأزل أنه سيكون فيه بيته المحرم والذي جعله أقدس وأشرف بقعة في الأرض

لما بوأ الله لإبراهيم مكان البيت وأمره ببنائه، نفّذ إبراهيم أمر ربه، فأرسـل مع إسماعيل أســاســات البيت، وبعد ذلك قاما برفع قواعده فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا

[224] المرجع نفسه، (407/1).

تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، يتحدث عن المرحلة الثانية من مراحل بناء الكعبة، ويسـكت عن المرحلة الأولى ولا يستنبط منه أن الأساسات قد بنيت قبلهما، ونظراً لعدم وجود أحاديث صحيحة حول بناء البيت قبل إبراهيم فإننا نبقى مع ظاهر الآيات، ونقول: إبراهيم وإسماعيل (عليهما السـلام) هما أول من بنيا الكعبة، وأن الكعبة لم تُبن قبلهما والله أعلم[225].

وحول هذا المعنى، يقول الإمام ابن كثير: أمر الله إبراهيم (عليه السّلام) أن يبني له بيتاً، يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السـماوات، وأرشـده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السماوات والأرض، كما ثبت في الصحيحين: إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة[226].

ولم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأنّ المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدره، المعظم عند الله موضـعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم، وقد ذكرنا أن آدم نصـب عليه قبّة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السـفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار من بني إسرائيل، وقد قرّرنا أنّها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردّها الحق فهي مردودة[227].

والقول ببناء الملائكة للكعبة ليس عليه دليل صحيح، وكذا بناء آدم عليه السلام لم يثبت فيه شيء ولا يستطيع أحد أن يجزم به، وكذا بناء شيت بن آدم (عليه السلام)، وكذا بناء قصي بن كلاب، وإن

---

[225] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (408/1).

[226] قصص الأنبياء، ابن كثير، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1421هـ، 2001م، ص152-153.

[227] قصص الأنبياء، المصدر نفسه، ص152-153.

ذكره بعض المؤرخين إلا أنه لا يعتمد فيه على مجرد الذكر، ولا يثبت بناء عبد المطلب للكعبة[228]، والقول الراجح في بناء الكعبة قبل الإسلام.

إن الثابت أن الكعبة بنيت قبل الإسلام أربع مرات فقط، وهي على النحو الآتي:

- بناء إبراهيم (عليه السلام) وهو أول بناء للكعبة المشرفة.
- بناء العمالقة.
- بناء جُرهم.
- بناء قريش، وكان ذلك قبل البعثة النبوية بخمس سنوات، حيث اشترطوا: ألا يُدخلوا في بنائها مالاً حراماً، فقصرت بهم النفقة الطيبة على إكمال البناء فأنقصوا من جهة الحجر ستة أذرع وشبراً أي: حوالي ثلاثة أمتار وربع[229].

وأداروا عليه جداراً قصيراً؛ ليطوف الناس من ورائه، وأحدثوا بعض التغيرات فيها، فزادوا ارتفاعها إلى 18 ذراعاً، وسقفوها، ولم تكن من قبل مسقوفة، وجعلوا لها ميزاباً من خشب، وسدّوا الباب الغربي، ورفعوا الباب الشرقي على مستوى الأرض، حتى يدخلوا فيها ما شاؤوا ويمنعوا ما أرادوا، وقد شاركهم رسول الله ﷺ في هذا البناء، وكان يحمل معهم الحجارة.

ولما انتهى البناء وأرادوا وضع الحجر الأسود، وقع بينهم نزاع شديد كل قبيلة تريد أن تحظى بشرف وضع الحجر في مكانه ورضوا أن يحكم فيهم أول داخل إلى البيت وكان الداخل هو النبي ﷺ، فأخذ

---

[228] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص31- 32.

[229] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص33.

الحجر ووضعه على رداء وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف منه فرفعوه، وقام ﷺ بوضعه مكانه وأنهى بهذه الحكمة السامية نزاعاً كاد أن يمزق وِحدتهم ويودي بحياة عدد كبير منهم[230].

وبنيت الكعبة بعد الإسلام ثلاث مرات فقط، وهي على النحو الآتي:

- بناء عبد الله بن الزبير (رضي الله عنه).
- بناء الحجاج بن يوسف الثقفي.
- بناء السلطان مراد خان[231]. ومن أراد التوسع فليراجع كتاب الكعبة المشرفة للدكتور محمود أحمد الدوسري.

1- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾:

أيّ: اذكر عندما كان إبراهيم وإسماعيل (عليه السلام) يبنيان البيت الحرام على قواعده وأساسه فالقواعد جمع قاعدة وهي الأساس ورفع القواعد: البناء عليها.

وليس في الآية تصريح بمن وضع القواعد، هل كان إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) أم كانت موجودة قبلهما، الله سبحانه أعلم، لكن الحديث الشريف يشير إلى إبراهيم (عليه السلام)، فعن عائشة (رضي الله عنها): "أن رسول الله ﷺ قال: أَلَمْ تَرَيْ أنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوُا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عن قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ؟ فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَلَا تَرُدُّهَا علَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ؟ قالَ: لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بالكُفْرِ لَفَعَلْتُ"[232].

---

[230] تاريخ الكعبة المعظمة، ص87-94، الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص34.

[231] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص36.

[232] صحيح مسلم، رقم (1333)؛ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (194/1).

ويكشف لنا السّياق القرآني في الآية الكريمة عن فعل إبراهيم وإسماعيل في بناء الكعبة ويرينا إياهما كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال، إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتهما يبتهلان[233].

2- ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

فنعمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، ووجود الدعاء، كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل، رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى ويتحرك ويشخص وتفيض منه الحياة.

إنها خصيصة التصوير الفنيّ بمعناه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد وفي ثنايا الدعاء، أدب النبوّة، وإيمان النبوّة وشعور النبوّة بقيمة العقيدة في هذا الوجود، وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء.

وفي قوله:﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إنه طلب القبول، هذه هي الغاية، فهو عمل خالص لله، الاتجاه به قنوت وخشوع إلى الله، والغاية المرتجاة من ورائه هي الرضى والقبول والرجاء في قبوله، متعلق بأن الله سميع للدعاء عليم بما وراءه من النية والشعور[234].

وفي الآية نلاحظ برّ الابن لأبيه، والمعاونة في فعل الخير ونظر العبد المؤمن لعمله بعين النقص مهما كان، تواضعاً لله وفراراً من الاغترار والعجب، وأهمية أحكام البناء بتأسيسه على قواعد[235].

تبيّن الآية الكريمة أن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) كانا يعملان وهما في حالة خشوع وخضوع لله (عزّ وجل) يستشعران أنهما يقومان بعبادة من أعظم العبادات ويتقربان إليه تعاني بقربة من أجل

---

[233] في ظلال القرآن، سيد قطب، (114/1).

[234] في ظلال القرآن، سيد قطب، (114/1).

[235] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص221.

القربات، ومع ذلك فخشية الله تعالى تملأ قلبهما حتى إنهما يسألانه أن يتفضل بقبول عبادتهما، فما أعظم خشوعهما وخضوعهما (عليهم السلام)، ومع كل هذا الخضوع والخشوع يسألانه سبحانه المزيد منه، فكمال الإنسان بكمال عبوديته لله تعالى واستسلامه لأمره وحكمه[236].

كما تبيّن الآية الكريمة معرفة إبراهيم وإسماعيل بالله (عزّ وجل) من خلال أسمائه الحسنى، وتعلمنا كيفية التعامل مع اسمه السميع العليم، مع توكيدهما بأن الله يسمع ويعلم حال جميع مخلوقاته (سبحانه وتعالى).

وقد قال أبو حيان في البحر المحيط في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب، إذ صدر منهما عليهما السلام عمل وتضرع، فهو سبحانه ﴿السَّمِيعُ﴾ لضراعتهما، وهو سبحانه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيّاتهما في إخلاص العمل[237].

- **اسم الله السميع:**

ورد اسمه سبحانه ﴿السَّمِيعُ﴾ في القرآن الكريم خمساً وأربعين مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، وقوله عزّ وجل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:127].

قال السعدي – رحمه الله – عن اسم الله السميع: ومن أسمائه الحسنى السميع الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات، وتفنن الحاجات، فالسّرّ عنده علانية، والبعيد عنده قريب، وسمعه نوعان؛ أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية وإحاطته التامّة بها، والثاني: سمع الإجابة

---

[236] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (194/1).

[237] البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (388/1).

منه للســـائلين والداعين والعابدين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَـــمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:39]، وقول المصلي بعد ركوعه: سمع الله لمن حمده، أي: استجاب[238].

- **اسم الله العليم:**

ورد اسم الله العليم في القرآن الكريم مائة وسبعاً وخمسين مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:97]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:32].

قال السعدي – رحمه الله – عن اسم الله العليم: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات وبالعالم العلوي والسفلي والماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، فهو الذي علم الإنسان ما لم يعلم[239].

خامساً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:128]:

1- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾:

نلمح هذا الاســـتعطاف الظاهر في تكرار لفظ ﴿رَبَّنَا﴾، وما فيه من تذلل وخضـــوع ورغبة في الاستجابة والقبول، وكذلك في تكرار جملة ﴿وَاجْعَلْنَا﴾ وما فيها من سلاسة وعذوبة في موضعها[240].

---

[238] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط3، 1430هـ، 2009م، ص617.

[239] المرجع نفسه، ص333.

[240] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد (10)، 1414هـ، ص218.

نلاحظ بأن أهمية الدعاء الذي في الحقيقة عبادة عظيمة، وهو من أجلّ العبادات وأعظم القربات، بل هي العبادة كما أسماها الله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:60]، وقد صرح بذلك النبي ﷺ بقوله: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾[241]، فالدعاء سبب عظيم من أسباب حصول المطلوب، واندفاع المرهوب، وخير معين على تحقيق الإخلاص لله تعالى[242].

2- قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾:

أيّ: خاضعين لك، منقادين لحكمك، مخلصين أوجهنا بالتوحيد والعبادة لك، لا لغيرك، ولا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك[243].

وفائدة تكرار النداء بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أن كل دعوى من هذه الدعوات مقصودة بالذات[244].

والنبيّان الكريمان على قدر ما وهبهما الله تعالى من نعمة الإسلام والتمسك به، يطالبان ذلك تأكيداً وزيادة في الخير، يريدان طاعة مطلقة وانقياداً؛ ليكون الطلب دليلاً على الرغبة فيه، وليكون الغرض لزاماً لهما وتكليفاً، ويؤكد هذا بالجار والمجرور ﴿لَكَ﴾، فطلب الانقياد والطاعة مقيد له عزّ وجل

---

[241] سنن الترمذي، رقم (2969)، حديث حسن صحيح.

[242] الإخلاص في القرآن الكريم، حمد الوهيبي، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1433هـ، ص153.

[243] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص220.

[244] تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (700/1).

دون سـواه[245]. ولم يكتف إبراهيم عليه السـلام بالثبات على الإسـلام له ولولده، وإنما دعا لذريتهما أيضاً[246].

3- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾:

والذرية هم الأبناء وأبناء الأبناء أي الأجيال القادمة، فهي نظرة مسـتقبلية وحرص على أن يبقى التوحيد قائماً ببقاء الموحدين على الأرض عبر التاريخ، وفي الدعاء طلب من الله بأن يعجل ذريتهم أمة مستسلمة لأمره سبحانه وتعالى خاضعة لطاعته وشرعه وسلطانه وأحكامه منقادة لأوامره وهذا هو دين الأنبياء من لدن آدم (عليه السلام) إلى محمد ﷺ[247].

إنّ هذا الدعاء فيه الرجاء على العون من ربهما في الهداية إلى الإسـلام والشـعور بأن قلبيهما بين أصـبعين من أصـابع الرّحمن، وأن الهدى هداه وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله، فهما يتجهان ويرغبان، والله المستعان إليه سبحانه، كما بيّن الدعاء طابع الأمة المسلمة، وهو تضامن الأجيال في العقيدة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

وهي دعوة تكشـف عن اهتمامات القلب المؤمن، إن أمر التوحيد والاسـتسـلام لله وأحكامه هو شغله الشاغل، وهو همه الأول وشعور إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّلام) بقيمة النعمة التي أصبغها الله عليهما، نعمة الإيمان، تدفعهما إلى الحرص عليهما في عقبهما، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام.

---

[245] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص218.

[246] ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص227.

[247] المرجع نفسه، المرسومي، ص228.

لقد دعوا الله تعالى ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان، وأن يريهم جميعاً مناسكهم، ويبين لهم عبادتهم، وأن يتوب عليهم إنما هو التواب الرحيم[248].

لقد كان دعاء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) أن يجعل الله لهما من ذريتهما وأولادهما جماعة مسلمة لله (عزّ وجل) منقادة لأمره خاضعة لعظمته سبحانه وتعالى، و﴿وَمِنْ﴾ هنا تبعيضية، ولم يعمّمها (عليهما السلام) وذلك أدباً مع الله الذي سبق وقال لإبراهيم ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، وهذا أيضاً من تعليم الله لهما وبتنويره قلوبهما أن من ذريتهما المسلم المحسن والكافر الظالم لنفسه، لذا دعوا هنا بالتبعيض[249].

وفي قوله ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي: كل على عقيدة التوحيد وإفراد العبادة لك وحدك، وأما وصف الأمة فهو الإسلام والانقياد لله وحده لا شريك له[250].

4- قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

أيّ: علمنا مواضع نُسكنا وعبادتنا وبصّرنا بأفعال الحج ومواقيته ومواضع العبادة فيه و"المنسك" مكان العبادة، ويؤخذ من هذا أن العبادات توفيقية لا تصحّ إلا بما شرعه الله وتتوقّف على الدليل الشرعي[251].

وقال السعدي رحمه الله: أي: علمناها على وجه الإرادة والمشاهد ليكون أبلغ، ويحتمل أن يكون المراد بالمناسك أعمال الحج كلها كما يدلُّ عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد هو أعمُّ من ذلك

---

[248] في ظلال القرآن، سيد قطب، (115/1).

[249] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص220.

[250] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص220.

[251] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص220.

وهو الدين كله والعبادات كلها كما يدل عليه عموم اللفظ؛ لأنّ النســـك التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليباً عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح[252].

وقال تاج القرآن الكرماني: إن كان المراد "بالمناســك" أعمال الحج، كالطواف والســعي والوقوف بعرفة والصلاة، فتكون "المناسك" جمع "مَنسك" بفتح السين، وهو مصدر، وجاز جمع المصدر هنا؛ لاختلاف الأعمال في الحجّ، وإن كان أراد "بالمناســك" المواقف والمواضــع التي يُقام فيها شــرائع الحج، كمِنى وعرفة والمزدلفة، فتكون المناسك جمع "منسِك" بكسر السين، وهو اسم مكان، وهو موضع العبادة[253].

وقال الراغب الأصــفهاني: النســك: العبادة، و"الناســك" هو العابد، واختصَّ بأعمال الحج، و"المناسك": مواقف النسك وأعمالها، و"النسيكة" مختصة بالذبيحة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:196]، و﴿نُسُكٍ﴾: ذبيحة يذبحها أو أقلها شاة. وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:67]، منسكاً أي: شريعة ومتعبداً ومنهاجاً. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162] ﴿نُسُكِي﴾ أي: ذبحي وقيل: عبادتي[254]

---

[252] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص93.

[253] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص221.

[254] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص253.

هذا وروي عن علي (رضي الله عنه): أن إبراهيم (عليه السّلام) لما فرغ من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة، بعث الله إليه جبريل (عليه السّلام) فحجّ به، وانطلق إلى الصفا والمروة ومِنى والمشعر الحرام وعرفات، وقال له: أعرفت ما أريتك؟ قال: نعم[255].

5- قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾

أي: سامح لنا تقصيرنا في طاعتك وتجاوز عنّا؛ وذلك لأن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه، فإنه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه، إما على سبيل السهو أو على سبيل ترك الأولى، فالدعاء منهما، عليهما السلام، لأجل ذلك ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ فهما معصومان على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، وقيل: تُب على ظلمة أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك، وقيل: إنهما أرادا أن يسُنا للناس ويعرّفاهم أن بيت الله وما يتبعه من المناسك والمواقف، هي أمكنة التخلص من الذنوب وطلب التوبة من علّام الغيوب[256].

لقد جاء في موضع التوبة، أنّها تختلف مقامات التائبين، فتوبة سائر المسلمين الندم على الذنب الماضي والعزم على تركه تركاً نهائياً ورد المظالم، أما توبة الخواص منهم فهي رجوع عن المكروهات من خواطر السوء في الأعمال أو التقصير في العبادات وعدم أدائها على وجه الكمال، وتوبة ثالثة هي توبة خواص الخواص، وهؤلاء تكون توبتهم لرفع درجاتهم وللترقي في مقاماتهم، فإن كان النبيان (عليهما السلام) طلبا التوبة لأنفسهما خاصة فالمراد بها هو توبة هذا القسم الثالث[257].

والمقصود بطلب التوبة في حق إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّلام) هو الرغبة منهما في رفع درجاتهما، وارتقائهما المقامات، وهذا هو شأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهي من وجه

---

[255] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص22.

[256] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص224.

[257] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص221.

آخر تربية خلقية وتأديب واضح توجهت إليه آيات القرآن الكريم؛ ليكون سلوكاً قويماً، يجب أن يسلكه كل مسلم حريص على الخير لنفسه وذريته[258].

وإن التوبة ركن أساس من أركان السلوك، ولها أنواع، نذكر منها:

- توبة الإنابة: وهي أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك.
- وتوبة الاستجابة: أن تستحي من الله لقربه منك.
- والتوبة الصحيحة: هي إذا اقترف العبد ذنباً تاب عنه بصدق الحال.
- والتوبة الفاسدة: هي التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية في الخاطر.
- والتوبة النصوح: هي تنزيه القلب عن الذنوب وعلاماتها: أن يكره العبد المعصية ويستقبحها، فلا تخطر على بال ولا ترد في خاطره أصلاً[259].

وقال الإمام النووي – رحمه الله – التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت بين العبد وبين الله تعالى، فلها شروط ثلاثة:

- أن يقلع عن المعصية.
- أن يندم على فعلها.
- أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً.

---

[258] المرجع نفسه، ص221.

[259] كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: رفيق العجم، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م، (231/1).

فإن كان الذنب يتعلق بحق آدمي، فعليه أن يتبرأ من حق صاحبه، وذلك برَدّه إليه، أو طلب عفوه أو أن يستحلّه منه، إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم[260].

وإبراهيم وإسماعيل (عليهما السّلام) يعلّمان أتباع ملة إبراهيم (عليه السّلام) كيف يكون التأدب في العلماء مختتماً بما يدعو إلى إجابته، وتقبله إذ جاء في ختام هذه الآية.

6- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾:

فالجملة تحتوي على كل ما يؤكد معناها، فهذا حرف التوكيد "إن" مقروناً بكاف الخطاب، ثم يليها الضمير ﴿أَنْتَ﴾، ثم الصفتان المبالغ فيهما ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، فالتوّاب صيغة مبالغة من تاب، فهي على وزن فعّال، ويقال لله عزّ وجل توّاب لكثرة قبوله التوبة من عباده حالاً بعد حال، والرحيم هو كثير الرّحمة أيضاً، صيغة مبالغة على وزن فعيل وهي صفة يمكن أن تكون لله عزّ وجل أو للبشر، جاء في وصف الرسول ﷺ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:128]، وقد قيل إن الله تعالى رحمان بالدنيا ورحيم الآخرة؛ وذلك لأنَّ إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين وفي الآخرة يختص بالمؤمنين[261].

وقد قدّمت صفة ﴿التَّوَّابُ﴾ على صفة ﴿الرَّحِيمُ﴾ في السياق القرآني؛ لأن ﴿التَّوَّابُ﴾ مناسبة لقوله: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾، مناسبة للفاصلة السابقة لها واللاحقة بها في السورة الكريمة[262].وكذلك تأخير صفة الرّحمة مناسب لعمومها فالتوبة من الرّحمة والرّحمة أعمّ منها[263].

---

[260] رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، الإمام النووي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1422هـ، 2001م، ص11، بتصرف.

[261] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص221.

[262] المرجع نفسه، ص222.

[263] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص224.

أ- اسم الله ﴿التَّوَّابُ﴾:

ورد اسمه سبحانه ﴿التَّوَّابُ﴾ في إحدى عشرة آية في القرآن الكريم، منها تسع آيات اقترن فيها باسمه ﴿الرَّحِيمُ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37].

وقال ابن قيّم الجوزية:

وكذلك التواب من أوصافه والتّوب في أوصافه نوعان

إذن بتوبة عبده وقبولها بعد المتاب بمنة المنان[264]

وبيّن في موطن آخر المقصود من هذين البيتين بقوله: فتوبة العبد محفوفة بتوبة الله تعالى عليه قبلها، وتوبة ثانية منه عليه قبولاً ورضا، فله الفضل في التوبة والكرم أولاً وآخراً لا إله إلا هو[265].

ويؤكد هذا المعنى الشيخ السعدي – رحمه الله تعالى- بقوله: فهو التائب على التائبين أولاً: بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لها وعفواً عن خطاياهم[266].

ووصف الله سبحانه نفسه بالتوّاب؛ لكثرة من يتوب عليه، ولتكريره ذلك في الشخص الواحد حتى يقضى عمره[267].

---

[264] نونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن قيّم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2007م، (231/2).

[265] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، (339/1)، مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، (273/20).

[266] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص582.

[267] المرجع نفسه، ص582.

ب- اسم الله ﴿الرَّحِيمُ﴾:

وأما اسمه ﴿الرَّحِيمُ﴾، فقد جاء في (123) موضعاً في القرآن الكريم، أكثرها كان مقترناً باسمه سبحانه ﴿الغَفُورٌ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل:20]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:34]، وقوله تبارك تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:191][268].

والرحيم: هو الذي يرحم عباده بنعمته، ويفيض عليهم برحمته[269].

ومن رحمته سبحانه مغفرته لذنوب عباده، والصفح عنهم، وتكفير سيئاتهم، وفتح باب التوبة لهم[270].

سادساً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:129]:

وهكذا تستمر الآيات الكريمات في نقل مشاعر النبيين المتدفقة رحمة وعطفاً على الذرية الصالحة، فالدعاء منهما كما نرى ليس مجرد طلب عابر للإسلام والتوبة، بل يتعمقان في ذلك ويسترسلان في إرادة الخير للأمة المسلمة بعدها، فيطلبان في ضراعة وخشوع وتذلل واضح في استئناف الدعاء بقولهما ﴿رَبَّنَا﴾؛ هذه اللفظة الدّالة على تمام الرغبة في الاستجابة والقبول، ثم جملة ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وهي معطوفة على ما قبلها من دعاء.

---

[268] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص118.

[269] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (115125/24).

[270] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص134.

ونلاحظ هنا تقديم متعلَّق الفعل على المفعول في الجملة، إذا تقدم الجار والمجرور وهو قولهم ﴿رَسُولًا﴾؛ لإرادة الاختصاص فالمطلوب أن يكون هذا الرسول هو من تحمّل رسالة من الله، فالمطلوب أن يكون هذا الرسول منهم أي من بينهم لا غريباً عليهم من جانب، وليكون سبباً لاعتزازهم وشرفهم به من جانب آخر، هذا فضلاً من معرفتهم له بالأمانة والصدق إذا كان منهم[271].

وقد استجيب لدعوتهما فبعث من ذريتهما النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، وعن أبي أمامة قال: قلت يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ فقال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأَتْ أُمِّي كأنَّهُ خرجَ منها نورٌ، أضاءَتْ منه قصورُ الشامِ[272].

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة:2]، والأميون هم العرب لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون، فقد اشتهرت فيهم الأمية، كما قال (عليه الصلاة والسلام): " إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتُبُ ولا نحسِبُ[273] "[274].

ولم يبعث الله تعالى إلى مكة وما حولها إلا حبيبه محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولا شك أن دعوة رسول الله ﷺ كانت كذلك عالمية وللناس أجمعين، هذا ونسبت الدعوة إلى إبراهيم وحده في قوله ﷺ: أنا دعوة أبي إبراهيم[275]؛ لأنّه الأصل في الدعاء وإسماعيل تبع له، ولأن إبراهيم كان يدعو

---

[271] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص224.

[272] صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، حديث صحيح، رقم (3451).

[273] صحيح البخاري، رقم (1913).

[274] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص225.

[275] مسند أحمد، (262/5).

وإسماعيل يؤمّن على دعائه والمؤمّن داعٍ أيضاً كما قال الله تعالى في موسى وهارون (عليهما السلام): ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:89]، وموسى كان يدعو وهارون كان يؤمّن فنُسبت الدعوة إليهما[276].

وتمضي الآيات الكريمة في دعاء إبراهيم (عليه السّلام) في بيان مهمة الرسول الكريم ﷺ والتي من أهمها:

1- قوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾:

أيّ: يقرأ آيات القرآن الكريم، من تلا يتلو تلاوة، يبيّن حروفه ويفصح عن ألفاظه، ويتأنى في أدائه ويرتله عليهم ترتيلاً، فيوفقهم بقراءته على كيفية تلاوته وأدائه، وجملة ﴿يَتْلُو﴾ في موضع نصب صفة "لرسول"، وقيل: هي في موضع نصب حال من ﴿رَسُولًا﴾؛ لأنه قد وصف بقوله ﴿مِنْهُمْ﴾، فتخصصت النكرة بالوصف فصحّ مجيء الحال منها.

وقد أوتي رسول الله ﷺ القرآن الكريم وهو: الكلام المنزل من عند الله تعالى بواسطة جبريل (عليه السلام) على الرسول، وهو المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر بلا شبهة فيه، المعجز بسورة من مثله، المجمع عليه، وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يتلو القرآن على نفسه، وعلى قومه، وعلى الناس، قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل:91-92][277].

2- قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾:

معطوف على ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ والمراد بالكتاب القرآن الكريم، وقد خُص بالكتاب المنزّل على محمد ﷺ، فصار له كالعلم كما أن التوراة أنزل على موسى والإنجيل على عيسى (عليهما السّلام)، وتسمية

---

[276] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص226.

[277] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص227.

هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله؛ لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، فالرسول يعلّم قومه معاني القرآن، ويبين لهم وجوه أحكامه؛ حلاله وحرامه، ومفروضه ومسنونه، ومواعظه وأمثاله، وترغيبه وترهيبه، والحشر والنشر، والعقاب والثواب، والجنة والنار[278].

وكان ترتيب التعليم بعد التلاوة؛ لأنه أول ما يقرع السمع هو التلاوة والتلفظ بالقرآن، ثم بعد ذلك نتعلم معانيه، ويتدبر مدلوله واسند التعليم للرسول الكريم؛ لأنه هو الذي يُلقي الكلام إلى المتعلم، فيعلّمه ويفهّمه ويتلطف في إيصال المعنى إلى فهمه.

هذا وفي "التلاوة" إشارة إلى "فن القراءة" وما يتعلق به، وفي "التعليم" إشارة إلى "فن التفسير" وما يتعلق به من توضيح المجمل والمشكل والمبهم والمقادير، والإعداد في الفرائض والنوافل، قال تعالى: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم الرسول السنة، ويبين لهم أحكام الشريعة، وفي "الحكمة" إشارة إلى "فن التحديث" وما يتعلق به، وكل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح فهي حكمة[279].

3- قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

أي: يُطهرهم الرسول باطناً وظاهراً، باطناً من أرجاس الشرك وأنجاس الشك، وظاهراً بالتكليف التي تمحص الآثام وتوصل الإنعام[280].

---

[278] المرجع نفسه، ص228.

[279] البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (393/1).

[280] المرجع السابق، أبو حيّان الأندلسي، (393/1).

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): التزكية: الطاعة والإخلاص، وقيل: يأخذ منهم الزكاة التي تكون سبباً لتطهيرهم، وقيل: يدعوهم إلى ما يصيرون به أزكياء أتقياء، وقيل: يشهد لهم بالتزكية، من تزكية العدول، هذا في ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ إشارة إلى "علم العقائد"[281].

والتزكية في قوله ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي التطهير من الشرك وسائر المعاصي، وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقاً في الدنيا الأوصاف المحمودة في الآخرة والأجر والثواب، وذلك بأن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره وذلك ينسب تارةً إلى العبد، لكونه مكتسباً لذلك، وعليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:9]، وتارةً ينسب إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة، قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:49]، وتارةً ينسب إلى النبي ﷺ؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:103][282].

4- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

وهنا يعاودنا نفس التأكيد المعهود بالحرف "إنّ" مقترناً بكاف الخطاب العائد على الذات العليّة، ثم الضمير أنت أضفى على المعنى زيادة في تأكيد قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: صفتان معرفتان بـــ "أل" القصر هنا؛ أي قصر كل والحكمة عليه (سبحانه وتعالى) فالعزيز هو الذي لا يعزّ عليه شيء، والحكيم هو الذي يضع الأمور مواضعها.

وهذا فضلاً عن المبالغة المستفادة من صيغة "فعيل" التي جاءت عليها الصفتان الكريمتان ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، كما نلاحظ مناسبة فاصلة الآية لما جاء في السياق، فالعزّة مناسبة للكتاب والشريعة؛ لأنهما

---

[281] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص228.

[282] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص228.

يعزّان من يتمسك بهما، كما أن تعليمهما والعمل بهما، ليسا من الأمور السهلة، والحكيم مناسبة للحكمة المطلوبة لهذه الأمة في سياق الآية الكريمة.

وهكذا نلاحظ كيف اختتم الدعاء بهاتين الصفتين المناسبتين لما جاء في الآية الكريمة، وذلك أدعى للقبول والاستجابة فقد قيل: فإذا أراد العبد أن يُستجاب له فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته[283].

- **اسم الله "العزيز":**

ورد ذكر اسمه سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ في القرآن الكريم في اثنتين وتسعين مرّة، جاء في أكثرها مقترناً بأسماء أخرى من أسمائه الحسنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص:9]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص:66].

ويقول ابن قيّم الجوزية – رحمه الله – في نونيّته:

وهو العزيز فلن يُرام جنابه ... أنى يُرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلّاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعزّ حينئذ ثلاث معان

وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان[284]

---

[283] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص224.

[284] نونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن قيّم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2007م، (218/2).

ويوضح الشيخ السعدي هذه المعاني الثلاثة "للعزيز" فيقول: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها؛ عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته[285].

- **اسم الله "الحكيم":**

ورد اسمه سبحانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في القرآن الكريم في (91) موضعاً، وفي جميع المواضع يذكر هذا الاسم مقترناً باسم آخر من أسمائه الحسنى.

ومن أكثر الأسماء اقتراناً باسمه الحكيم ﴿الْعَزِيزُ﴾، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد:1]، واسم الله "الحكيم": هو الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير[286].

وقال السعدي أيضاً: ﴿الْحَكِيمُ﴾ هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:50]، فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها[287].

---

[285] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص406.

[286] الأسماء والصفات، البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1413 هـ، 1993م، ص22.

[287] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، نقلاً عن ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص283.

هذا ولقد حقق إبراهيم (عليه السّلام) العبودية لله (عزّ وجل)، فكان لله في صدق، فكان الله له: استجابة ورعاية وعناية وتوفيقاً[288].

وقد يتساءل إنسان عن السرِّ في أن الله سبحانه كان دائماً يستجيب دعاء إبراهيم (عليه السلام) ولاستجابة الدعاء شروط، إذا توافرت تمت الاستجابة، منها ما رواه ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، فقام سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنها) فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: رسول الله ﷺ: يا سعد، أطِب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يُتقبل منه أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به[289].

وإن الشرط الأساسي في استجابة الدعاء أن يحقق الإنسان العبودية في نفسه بالنسبة له وحده تحقيقاً صادقاً وتحقيق العبودية ليس كلمة تقال، وليس عملاً دون نية ولا نية دون عمل، وإنما تتكاتف الجوارح واللسان والقلب، فتتحقق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وإن تحقيق العبودية هو أن يؤدي الإنسان الفروض، ويكثر من النوافل ويخلص قلبه لله وجماع كل ذلك، في قوله ﷺ: "إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ: منْ عادى لي وَلِيّاً، فقدْ آذنتهُ بالْحَرْب، وَمَا تقرَّبَ إِلَيَّ عبْدِي بِشْيءٍ أَحبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْت عليْهِ: وَمَا يَزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إِلى بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّه، فَإِذا أَحبَبْتُه كُنْتُ سمعهُ الَّذي يسْمعُ بِهِ، وبَصره الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ الَّتي يَبْطِش بِهَا، ورِجلَهُ الَّتِي يمْشِي بِهَا، وَإِنْ سأَلَنِي أَعْطيْتَه، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَّنه"[290].

---

[288] قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، ص142.

[289] قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، ص142.

[290] المرجع السابق، عبد الحليم محمود، ص142. وانظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم: (6502).

5- أول بيت وضع للناس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)﴾ [آل عمران:96-97].

يُخبر الله تعالى عن عظمة بيت الله الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم، وفيه من الأمن الذي من دخله كان آمناً قدراً مؤمناً شرعاً وديناً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثير تفصيلاتها، أوجب الله حجّه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوّده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة والتي ستحدث، وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام من دونها، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[291].

6- فضائل الكعبة:

أ- الكعبة معظّمة عند الله:

ما زالت الكعبة المشرفة معظّمة مكرّمة في نفوس المؤمنين فطرة وديناً، منذ بناها خليل الله إبراهيم (عليه السّلام)؛ فطرة بما أودعه الله تعالى في القلوب من حبِّ الكعبة وتعظيمها واشتياق الأرواح إليها،

[291] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص230.

وديانة لما أمر الله تعالى به المؤمنين من تعظيمها وإجلالها وبما ارتبط بها من شعائر تعبدية من صلاة، يتجه فيها المسلمون بقلوبهم وأجسادهم نحوها.. إلخ، وقد أكّد النبي ﷺ هذا التعظيم في قصة سيره نحو مكة عندما قال: هذا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فيه الكَعْبَةَ، ويَوْمٌ تُكْسَى فيه الكَعْبَةُ[292].

وقد تعددت مظاهر وصور تعظيم الكعبة، نذكر منها:

- أن الله تعالى أمر الخليل (عليه السلام) بتطهير بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود.
- أن الله أضاف البيت إلى نفسه الشريفة ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾.
- أن الله تعالى حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض تعظيماً لحرمة بيته الذي ستضمه جنباتها.
- أن الله سبحانه حماها من أبرهة الأشرم وحبس الفيل من هدمها.
- أن الله تعالى أمر الناس أن يأتوا الكعبة المشرفة بحج أو عمرة ليتشرفوا بذلك ويشهدوا منافع لهم، وجعل هذا الإتيان إليها فرضاً في الحج على القادر المستطيع.
- أن النبي ﷺ نهى عن استقبال القبلة واستدبارها عند إتيان الغائط تأدباً مع الكعبة المشرفة.
- أن النبي ﷺ نهى عن البصاق تجاه القبلة في الصلاة وغيرها تأدباً مع الكعبة المشرفة[293].

وقد تحدث القرآن الكريم عن عظمة صفات البيت الحرام (الكعبة) ومحاسنه فوصفه الله تعالى:

- أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.
- أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه وليس في بيوت العالم أكثر بركة منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

---

[292] صحيح البخاري، رقم (4030).

[293] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص56.

- أنه هدى للعالمين.
- فيه آيات بينات ذكرنا بعضها فيما مضى.
- الأمن لداخله[294].

ب- فضائل الخروج إلى الكعبة:

وجاءت في ذلك أحاديث نبوية كريمة، منها قوله ﷺ: من أتى هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق، رجع كما ولدته أمه[295].

ج- فضائل الحجر الأسود:

جاء في ذلك أحاديث عن النبي ﷺ: الحجر الأسود من حجارة الجنة[296]، وقد توسع أهل العلم في ذكر الأحاديث الصحيحة وذكر العلماء: فضائل الركن اليماني، وفضائل الطواف حول الكعبة، وفضائل مقام إبراهيم، وفضائل ماء زمزم، ومضاعفة الحسنات عند الكعبة[297].

ومن أراد التوسع، فليراجع كتاب الكعبة المشرفة للدكتور محمود الدوسري فقد أفاد وأجاد في ذكر فضائل الكعبة المشرفة وخصائصها وأحكامها.

---

[294] المرجع نفسه، ص56.

[295] صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421 هـ، 2000م، (11/2) رقم (1113).

[296] صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، حديث صحيح، (606/1) رقم (3175).

[297] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص113.

7- الأقصى بُني بعد الكعبة بأربعين سنة على يد إبراهيم عليه السلام أو يعقوب عليه السلام:

بعد أن بنى الكعبة بفترة، قام ببناء المسجد الثاني المبارك المقدس وهو المسجد الأقصى في بيت المقدس، فإبراهيم هو باني الكعبة وإبراهيم هو باني الأقصى، وقد أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ، فروى البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضع في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: "أربعون سنة"[298].

إنّ هذا الحديث الصحيح يدلُّ على أن إبراهيم (عليه السّلام) هو باني الكعبة والأقصى، ويحدد المدة الزمنية بين أبنائها بأنها أربعون سنة.

وهذا يعني أن الأقصى بُني في القدس، قبل بني إسرائيل وقبل دخولهم فلسطين بعد موسى (عليه السلام)، وقبل ملك داود وسليمان، وقبل بناء سليمان للهيكل كما يزعم اليهود، فكون القدس بلداً إسلامياً هذا أمر قديم، منذ إبراهيم (عليه السلام) على الأقل وبناء الأقصى مسجداً لله تعالى قديم، قبل أن يوجد اليهود ويدّعوا أن لهم حقاً في فلسطين بمئات السنين، فحق المسلمين في القدس سابق لأي حق يهودي أو نصراني - إن كان لليهود أو النصارى حق فيها- وهذا الحق ثابت لهم منذ أبيهم إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام).

ونعلم أن المسجد الأقصى الذي بناه إبراهيم (عليه السّلام) قد عدت عليه العوادي، وأنه قد تهدّم، فمكانه بقي معروفاً وبقي "أقصى"، وبقي مقدساً والرسول ﷺ أمَّ الأنبياء في الصلاة، على أطلال بناء الأقصى في ليلة الإسراء والمعراج، ثم قام المسلمون ببناء الأقصى في عهد الأمويين، أو قاموا بتجديد بنائه

[298] صحيح البخاري، رقم (3366)، صحيح مسلم، رقم (520).

على الأصـــح، ولما عاد إبراهيم (عليه الســـلام) إلى بيت المقدس- بعد بنائه الكعبة- بقي ابنه إسماعيل (عليه السلام) مقيماً في مكة حول البيت، مشرفاً على الطائفين والقائمين والعاكفين والحجاج[299].

ويرى الشيخ عثمان الخميس في كتابه القيم (فبهداهم اقتده قراءة تأصيلية في سير قصص الأنبياء عليهم الســـلام): أنَّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السّـــلام) بنيا الكعبة ويعقوب حفيد إبراهيم بنى بيت المقدس، فهو ثاني مسجد وضع في هذه الأرض، ثم رجع إلى أبيه وتوفي إسحاق (عليه السّلام) بعد مدة وقيل: إنه بلغ من العمر ثمانين ومئة سنة، والعلم عند الله جلّ وعلا[300].

8- إبراهيم عليه السلام يدعو لمكة والرسول يدعو للمدينة:

وبعدما أتمّ إبراهيم الكعبة، دعا الله لها ولأهلها، وجعلها حراماً، يحرم القتال فيها وحرّم صـــيدها وشجرها، وحدد حدود الحرم، وكان هذا بوحي من الله.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن إبراهيم حرّم مكة، ودعا لها وأن رسولنا عليه الصلاة والسلام قد حرم المدينة ودعا لها، روى الإمام مسـلم عن أبي سـعيد الخدري (رضـي الله عنه) قال: لا تَفْعَلْ، الزَمِ المدِينَةَ، فإنَّا خَرَجْنَا مع نَبِيِّ اللهِ صـلّى الله عليه وسـلّم، أَظُنُّ أَنَّهُ قالَ، حتَّى قَدِمْنَا عُسْـفَانَ، فأقَامَ بهَا لَيَالِيَ، فَقالَ النَّاسُ: وَاللَّهِ ما نَحْنُ هَا هُنَا في شـيءٍ، وإنَّ عِيَالَنَا لَخُلُوفٌ ما نَأْمَنُ عليهم، فَبَلَغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ، فَقالَ: ما هذا الذي بَلَغَنِي مِن حَديثِكُمْ؟ ما أَدْرِي كيفَ قالَ، وَالَّذِي أَحْلِفُ به، أَوْ وَالَّذِي نَفْسِـــي بيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ، أَوْ إنْ شِـــئْتُمْ لا أَدْرِي أَيَّتَهُما قالَ، لَآمُرَنَّ بنَاقَتِي تُرْحَلُ، ثُمَّ لا أَحُلُّ لَهَا عُقْدَةً حتَّى أَقْدَمَ المدِينَةَ،

---

[299] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (415/1).

[300] فبهداهم اقتده "قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء"، عثمان محمد الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط1، 1431هـ، 2010م، ص180.

وَقالَ: اللَّهُمَّ إنَّ إبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجعَلَهَا حَرَمًا، وإنِّي حَرَّمْتُ المدِينَةَ حَرَامًا ما بيْنَ مَأْزِمَيْهَا، أَنْ لا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، وَلَا تُخْبَطَ فِيهَا شَجَرَةٌ إلَّا لِعَلْفٍ[301].

وروى الإمام مسلم أيضاً عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: كانَ النَّاسُ إذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا به إلى النبيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ، قالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا في مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا في صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا في مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إنَّ إبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وإنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وإنَّه دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وإنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ ما دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ معهُ، قالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ له فيُعْطِيهِ ذلكَ الثَّمَرَ [302].

لقد امتنَّ الله على العرب الكافرين بأنه دعوة إبراهيم للحرم وأهله، فجعل مكة بلداً آمناً مطمئناً وعليهم أن يشكروا الله على هذه النعمة فيؤمنوا به وحده ويتبعوا رسوله محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:57]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:67].

إذن إبراهيم (عليه السلام) هو الذي بنى الكعبة بنص الآيات والأحاديث السابقة، ولما انتهى من البناء ودعا الناس إلى الحج، عاد إلى مكان إقامته في فلسطين[303].

---

[301] صحيح مسلم، رقم (1374).

[302] صحيح مسلم، رقم (1373)؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (115).

[303] فبهداهم اقتده "قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء"، عثمان محمد الخميس، ص181.

9- الكعبة مركز الأرض:

اكتشف علماء المسلمين الأوائل أن الكعبة والبلد الحرام مركز الأرض ووسط الدنيا، ومما جاء في ذلك عن علماء اللغة والتفسير ما يأتي:

أ- ابن عطية الأندلسي رحمه الله:

قال في سبب تسمية أم القرى بهذا الاسم: سُميت ذلك لوجوه أربعة:

- منها: أنّها منشأ الدين والشرع.
- ومنها: ما روي أن الأرض منها دُحيت.
- ومنها: أنّها وسط الأرض وكالنقطة للقرى.
- ومنها: ما لحق عن الشرع أنّها قبلة كلّ قرية، فهي لهذا كله أمّ وسائر القرى بنات[304].

ب- ياقوت الحموي رحمه الله:

جاء في الأخبار: أنّ أوّل ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سُـــرّة الأرض ووســـط الدنيا وأم القرى أوّلها الكعبة، وبكّة حول الكعبة، وحول مكة الحرم وحول الحرم الدنيا[305].

ج- ابن قيّم الجوزية رحمه الله:

أخبر أنه كما جعلهم أمة وسطاً وخياراً، اختار لهم أوسط جهات الاستقبال وخيرها، كما اختار لهم خير الأنبياء وشرع لهم خير الأديان، وأنزل عليهم خير الكتب، وجعلهم شهداء على الناس كلهم لكمال

---

[304] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، (322/2).

[305] معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، (463/4).

فضـــلهم وعلمهم وعدالتهم، وطهرت حكمته في أن اختار لهم أفضـــل قبلة وأشـــرفها، لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة[306].

والخلاصة: أن الكعبة والبلد الحرام يتوسّطان الأرض، إمّا من المعنى اللغوي لاسم مكة، أو الوصف القرآني لها بأنها أم القرى، أو من خلال فهم وتفسير ما ورد في بعض الآيات[307].

د- وسطية الكعبة لها بُعد روحي ومادي:

ربط العلماء الأوائل بين وسـطية الأمة وعدالتها وشـرفها وبين وسـطية المكان، فاتخذت الوسـطية بُعدين اثنين:

- بُعداً روحياً معنوياً: يتمثل في تفضـيل الأمة المسـلمة على غيرها من الأمم، وفي شـرفها ومكانتها السامية التي اختارها الله تعالى لها.
- بُعداً مادياً: يتمثل في وســـطية المكان؛ لتتمكن الأمة من أداء رســـالتها من خلال هذا المكان، ولتشعّ بنورها في أرجاء الدنيا على وجه متوازن ومتساوٍ، يُمكّنها من ذلك وجودها في وسط العالم ومركزه.

وكان اختيار العلماء الأوائل لهذا الرأي الذي يجمع بين وسـطية المكانة ووسـطية المكان من توفيق الله تعالى لهم وغوثه إياهم، ثم جاء العلم الحديث مؤيداً ومؤكداً ما ذهبوا إليه[308].

---

[306] مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط1، 1997م، (31/2).

[307] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص169.

[308] المرجع نفسه، ص170.

وكما أثبتت الدراسات العلمية المعاصرة أن الكعبة والبلد الحرام يقعان في مركز اليابسة القديم "آسيا وأفريقيا وأوروبا"، والجديد: الأمريكيتين وأستراليا والقارة الجنوبية المتجمدة، أي: أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزّعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً.

وهكذا، يعدُّ موقع الكعبة المشرفة موقعاً فريداً من نوعه ومتميزاً لا ينافسها في ذلك أي موقع أو مدينة أخرى، من هنا وُصفت في القرآن الكريم بأنها أم القرى[309].

سابعاً: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:130]:

ملة إبراهيم (عليه السلام) هي ملة التوحيد والإسلام وإفراد العبودية لله، وهكذا ارتفع البيت وجعلت في الأرض دعوة التوحيد وملّته وهي ملة إبراهيم (عليه السلام) الذي جعله سبحانه إمام الموحدين، فما بعث نبي بعده إلا من ذريته داعياً إلى ملته –كما مرّ معنا– فلا ينبغي لأحد أن يرغب عن هذه الملة[310].

1– قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾:

لقد دعا الله تعالى إلى ملة إبراهيم الناس جميعاً من بعده؛ لأنّها إجابة للفطرة وتنبعث من النفس المستقيمة واتجاه العقل الحكيم[311].

---

[309] الكعبة المشرفة، محمود أحمد الدوسري، ص174.

[310] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (198/1).

[311] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2008م، (411/1).

والاستفهام للاستبعاد والإنكار وفيه توبيخ وتقريع للذين انحرفوا عن ملة التوحيد، كاليهود والنصارى، والمشركين[312].

والمعنى لا يرغب عن ملة إبراهيم ويتركها متجاوزاً لها إلى غيرها من الأوهام الباطلة إلا من سفه نفسه وقول ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾ فيها التجاوز والترك إلى أوهام، ونقيض يرغب عنها: يرغب فيها، فالرغبة فيها إقبال عليها والرغبة عنها تجاوز عنها وترك لها، وهذا يتضمن أمرين؛ أولهما: أنه علمها وكان ينبغي أن يرغب فيها ولكنها تجاوزها وتركها لا عن انصراف مجرد، بل عن قصد وإعراض، وثانيهما: أنه اتجه ورغب في غيرها ونفى الله تعالى الرغبة عنها إلا ممن سفه نفسه[313].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ جعلها في حمق ورعونة؛ لأنّ النفس الإنسانية المستقيمة تتجه إلى الله لما في داخلها من ينبوع الخير الداعي إلى إدراك الحق المستقيم، فالنفس الإنسانية لو تأملنا في خلقها وتكوينها تهدي وترشد إلى الحق ولقد قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)﴾ [الذاريات:21-22][314].

قال الشنقيطي – رحمه الله–: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية لم تبيّن هنا ما ملة إبراهيم، وبيّنها بقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:61]، فصرّح في هذه الآية بأنها دين الإسلام بعث الله به نبيه محمداً ﷺ، وكذا في

---

[312] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (198/1).

[313] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (412/1).

[314] المرجع نفسه، (412/1).

قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل:123]، وقال في سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:78][315].

وإنَّ ملَّة إبراهيم كانت ملة النبيين؛ لأنّ الله تعالى اختاره للإمامة وابتلاه بالكلمات، ولأنه كان يشكر نعم ربه ولأنه اختاره لبناء البيت، ولأنه اختاره لتعليم مناسك الحج، ولأنه اختاره ليكون أباً الأنبياء ولذلك كله[316] قال تعالى:

2- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ومعنى اصطفاه الله تعالى، أي اختاره بعد أن ابتلاه بما صفى نفسه وخلصها لله تعالى، وصار ليس في قلبه موضع لغيره فاختاره من بين خلقه خليلا له، وكان أمة وإماما، وكان أواها حليما رجاعا إلى الله تعالى دائما، وأكد سبحانه وتعالى أنه في الآخرة لمن الصالحين، ففي الدنيا اصطفاه، فكان معه فيها على الخير المطلق، وقد ابتلي فأحسن البلاء، وكان صفيا وكان وليا، واختصَّ بأن يكون خليلا [317].

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه في زمرة الصالحين الذين نالوا رضوان الله بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فأكد بإنّ الدالة على توكيد الخبر وأكّد بـــ "اللام" في قوله لمن الصالحين، وأكد بتقديم في الآخرة، وذلك التأكيد؛ لأنه من الذين وصلوا إلى أعلى درجات الصلاح، وإن عده من الصالحين يوم

---

[315] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1415هـ، 1995م، (86/1).

[316] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (412/1).

[317] المرجع نفسه، (413/1).

القيامة إنما كان لأنه أخلص وأسلم وجهه لله رب العالمين مستجيباً طلب الله تعالى منه، إذ طلب ربه منه أن يكون كله له وحده ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[318].

ثامناً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131]:

1- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾:

أي: واذكر يا محمد ﷺ لأمتك، إذ قال الله لإبراهيم ﴿أَسْلِمْ﴾ أي: أخلص دينك وعملك لله، فاستجاب، وأجاب على الفور قائلاً: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[319].

2- قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

أي: أخلصت ديني له، وفوّضت أمري إليه، وهذا يشمل إسلام الباطن والظاهر[320].

و﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أسلمت نفسي وقلبي وجوارحي كلها؛ لربِّ العالمين؛ الذي لا ربّ سواه جلّ وعلا[321]، و﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإنابة، فكان التوحيد لله نعته[322].

و﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ومعنى ذلك لن يكون وحده في الكون؛ لأنّه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السماوات والأرض، يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان، ومن أكثر نضجاً

---

[318] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (414/1).

[319] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص224.

[320] المرجع نفسه، ص225.

[321] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (199/1).

[322] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص94.

في العقل ممن يُسلم وجهه لله سبحانه؛ لأنّ يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوي لا يُقهر، قادر لا تنتهي قدرته، غالب لا يغلب، رزاق لا يأتي الرزق إلا منه، فكأنه أسلم وجهه للخير كلّه[323].

وإن الدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو الإسلام وإبراهيم (عليه السّلام) يعلمنا كيف يكون الاستسلام والخضوع لله تعالى ولدينه وشرعه، فأين هذا من جحود الجاحدين وعناد المعاندين، الذين سبق الحديث عن مواقف عنادهم وجحودهم[324].

تبيّن الآية الكريمة مقام إبراهيم (عليه السّلام) في الاستجابة لأمر ربه، وخلوص نفسه إذ أمره بذلك فاستجاب فوراً قائلاً: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أسلمت أي خلصت نفسي وجعلتها لرب العالمين، أي لخالق العالمين والقائم عليهم وربهم وكالئهم وإن ذلك شكر له، فهو في ذلك شاكر لأنعم الله تعالى كحاله دائما، فهذا النص لبيان مدى استجابة خليل الله تعالى لربّه غير متردد ولا متلكئ[325].

وإنما كان مسارعاً ومندفعاً لرضا رب العالمين والاستجابة لدينه وشريعته وتوحيده وإفراد العبادة له سبحانه وتعالى[326].

هذه هي ملة إبراهيم (عليه السّلام)، الإسلام الخالص الصريح ولم يكتف إبراهيم نفسه، بل وصى بهذه الملة بنيه من بعده جيلاً بعد جيل، ووصى أحفاده وأبناءهم، فمن كفر بها فقد كفر بالله وبوصية إبراهيم وما كان إبراهيم (عليه السلام) ليرضى عنهم، إذ كفروا بربهم كالمشركين إذ غيّروا وبدّلوا في دين

---

[323] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (503/1).

[324] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (199/1).

[325] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (414/1).

[326] في ظلال القرآن، سيد قطب، (116/1).

إبراهيم، وكاليهود الذين ادّعوا أن إبراهيم كان يهودياً ولقد ردّ الله تعالى على قولهم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:67][327].

تاسعاً: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:132]:

1- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾:

"التوصية" هي العهد المؤكد في الأمر الهام، ﴿بِهَا﴾: أي بهذه الكلمة العظيمة وهي ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذه الملة هي ملة التوحيد والإسلام، ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: أي وصّى بهذه الكلمة يعقوب بنيه كما وصّى بها جدّه إبراهيم - من قبل- بنيه، ويعقوب (عليه السلام) وُلد في حياة جدّه إبراهيم (عليه السّلام) وجدّته سارة[328].

ذكر الله وصية إبراهيم (عليه السّلام) لأبنائه في سياق الآيات التي تتحدث عن وجوب التمسك بملته، والتي تبين أن من ترك ملته رغبة عنها إلى غيرها فإنما هو جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها في معادها، كاليهود والنصارى الذي انحرفوا عن الطريق الصحيح، فموضوع الوصية في الآية: الحثُّ على التمسك بالإسلام وعدم تركه أبداً.

2- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾:

بدأ وصيته لهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله عليهم بأن اختار لهم هذا الدين الكامل من بين الأديان وفضلهم به، وبعد أن هيأ قلوبهم وأنعامهم، باستشعارهم النعمة - التي فضلهم الله بها واختارها لهم- ولا يموتوا إلا وهم عليهم، بمعنى أن لا يفارقوا هذا الدين أيام حياتهم كلها، وذلك لأنه لا يدري أحد متى تأتيه

---

[327] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (415/1).

[328] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص225.

منيته، وكأنه يقول لهم: اثبتوا على دين الإســـلام حتى لا تأتيكم المنية، وأنتم على غيره، فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا[329].

ويقول ابن كثير في تفسيره موضحاً هذه الوصية: أي أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ويُبعث على ما كان عليه وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وُفق له وبُسر له ومن نوى صالحاً ثبت عليه[330].

ونستنبط من وصية إبراهيم (عليه السلام): أن الوصية بعقيدة التوحيد وما تشتمل عليه من سلوك ومكارم أخلاق من أهم ما يوصـــي به الأب أبناءه في كل أطوار حياتهم حتى يلقوا ربهم وهم عليه وإن الدين المعني به هنا هو الدين الإســـلامي الحنيف على حدّ قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، و"الـــــــــ" في الدين للتعريف على قوله تعالى – هناك – ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْـلَامُ﴾ [آل عمران:19]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْـلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85].

ومن هنا يعلم أن الدين الإســـلامي هو الدين ولا دين غيره منذ أن بعث الله الرســـل، ومن هذه الأخيرة أن إبراهيم (عليه السلام) – نفسه – كان قد وُصي من الله (عزّ وجل) بهذا الدين وهو من بعد أوصـــى بها أبناءه، فينبغي على الآباء على أن يكونوا في غاية الحرص على أبنائهم بتوجيههم وإرشـــادهم على اتباع دين الله والتمســـك به، فإن هذا خير ما يقدمه الوالد لوالده، إذ به ينقذه من ســـخط الله وعذابه، ويضعه في محل رضوانه ومحبته (عزّ وجل)[331].

---

[329] تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، (438/1).

[330] تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (280/1).

[331] القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، ط1، 1990م، 1410هـ، ص141.

ومما يذكره الفخر الرازي حول ما يستفاد من هذه الوصية قوله: اعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين:

- **أحدها:** إنه تعالى لم يقل: وأمر إبراهيم، بل قال: ووصى، ولفظ الوصية أوكد في الأمر؛ لأنّ الوصية عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتمّ، فإذا عرف أنه (عليه السلام) في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه كان القول إلى قبوله أقرب.
- **وثانيها:** إنه (عليه السلام) خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم، فلما خصصهم بذلك في آخر عمره علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره.
- **وثالثها:** إنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم، وذلك يدل على شدة الاهتمام.
- **ورابعها:** إنه (عليه السلام) أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين ومكان معين، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وذلك يدل – أيضاً – على شدة الاهتمام بهذا الأمر.
- **وخامسها:** إنه (عليه السلام) ما مزج بهذه الوصية وصية غيرها، وهذا يدل على شدة الاهتمام بالأمر، ولما كان إبراهيم (عليه السلام) هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام وأحراها بالرعاية والقبول[332].

[332] التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1417هـ-1997م، (4/72-73).

إنَّ إبراهيم (عليه السلام) وصّى بنيه ويعقوب، وكانت الوصية ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾، إذن فالوصية لم تكن أمراً من عند إبراهيم ولا أمراً من عند يعقوب، ولكن كانت أمراً اختاره الله للناس، فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا أولادهما إلا بما اختاره الله، فكأن إبراهيم ائتمن على نفسه فنفذ التكاليف وائتمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم.

3- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون.

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه، ليكون في هذا إعلاماً به ويتوقعه الناس في أي وقت وفي أي مكان وفي أي زمان ولذلك قد نلتمس العافية في أشياء يكون الموت فيها والشاعر يقول:

إِن نامَ عَنكَ فَكُلُّ طِبٍّ نافِعٌ أَو لَم يَنَم فَالطِبُّ مِن أَذنابِهِ

أي إن لم يكن قد جاء الأجل، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء، وأما إذا جاء الأجل فيكون الطب سبباً في الموت، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك، فالإنسان لا بُدَّ أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج، ولا يغفل عنه أبداً، حتى لا يأتيه الموت في غفلته، فيموت غير مسلم والعياذ بالله[333].

ولقد استجاب أبناء إبراهيم (عليه السلام) لوصيته وهذا يعقوب (عليه السلام) يكررها في آخر لحظة من لحظات حياته والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته فليسمعها طلاب الحقيقة[334].

---

[333] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (596/1).

[334] في ظلال القرآن، سيد قطب، (116/1).

عاشراً: قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:133]:

1- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾:

إنَّ هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير، ميت يحتضر فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ وما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟ وما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ وما هي البركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر يسجل فيه كل المستحيلات؟ إنها العقيدة هي التركة وهي الذخر وهي القضية الكبرى، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته.

2- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾:

هذا هو الأمر الذي جمعناكم من أجله، وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث.

3- قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾:

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه، وإنهم يتسلمون التراث ويصونونه، وإنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه، وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب وكذلك ينصون نصاً صريحاً على أنهم ﴿مُسْلِمُونَ﴾ والقرآن يسأل بني إسرائيل: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾.

فهذا هو الذي كان، يشـهد به الله، ويقرره، ويقطع به كل حجة لهم في التمويه والتضـليل; ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل، وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التي خلت، والجيل الذي كانت تواجهه الدعوة، حيث لا مجال لصـلة، ولا مجال لوراثة، ولا مجال لنسـب بين السابقين واللاحقين [335].

الحادي عشـر: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:134]:

إنَّ اليهود كانوا كلما ذكرت محمدةٌ لإبراهيم وبنيه انتحلوها لأنفسـهم وتفاخروا بها على غيرهم حتى ظنهم الناس أنهم هداة آبائهم وإن لم يهتدوا بهديهم، فردّ الله (سبحانه وتعالى) قولهم وقول غيرهم ممن كانوا يتفاخرون بأنهم سـلالة إبراهيم وإسماعيل ولا يعملون عملهم ولا يسـلكون مسـلكهم وكانوا يحسـبون مجرد النسـب يكسـبهم شـرفاً وذكراً عند الله فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[336].

الإشارة إلى هذه الجماعة الفاضلة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وذريتهم الذين اهتدوا بهديهم وقبسوا من نور الله بوصيتهم وهي ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت، وصارت في عبر التاريخ لهم ما كسبوه من خير فيكون عند الله جزاؤه، وعليكم معشـر العرب أن تقتدوا بإبراهيم وتأخذوا بوصـيته وأن تعبدوا إلهاً واحداً هو الله جلّ جلاله إن كنتم تنتمون إليه، فتجمعون بين شـرف النسـب وشـرف الاتباع، والنسـب وحده لا يغني فتيلاً من غير اتباع، وكذلك أنتم معشـر اليهود ليس لكم أن تفخروا بأن هؤلاء آباؤكم

---

[335] في ظلال القرآن، سيد قطب، (117/1).

[336] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (420/1).

وتلحقوا تاريخهم بتاريخكم، إلا أن تتبعوهم في الإخلاص لله رب العالمين والإسلام له، وإلا كنتم الخارجين عليهم المحاربين لمآثرهم وإن لم تجدّوا في اتباعهم فلكم جزاء فعلكم[337].

ولذا قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ما كسبته مكسوباً إليها بقدره محسوباً لها في اليوم الآخر بجزائه، ويتضمن قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الجزء لهذا الكسب وهو خير ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ إن عملتم مثل عملهم واتبعتم هديهم وأخذتم بوصيتهم، وكانت لكم شعاراً ودثاراً تتحلون به، وهذا حثّ على الاقتداء ودعوة إليه، فإن تجانفوا الإثم وتخالفوا الوصية فعليكم إثم ما تفعلون.

وإنكم لستم مسؤولون عن أفعالهم إن خيراً أو شراً فكذلك ليس لكم أن تدعوا أن عملهم عملكم ونسبهم نسبكم؛ لأنّكم انفصلتم بعملكم عنهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك لا يكفيكم عملهم، إن خيراً فخيره لهم إلا تكونوا قد عملتهم مثل عملهم ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إنَّ ملة إبراهيم عليه السّلام هي التوحيد، والطهارة من الوثنية هي لبّ الدين اصطفاه الله لنا، وهي الحق الذي لا ريب فيه، وهي مقياس الحق الذي يتميز به من الباطل، فمن آمن بها فقد اهتدى، ومن خالفها فقد ضل وغوى، وأهل الكتاب الذين حرفوا القول عن مواضعه وغيروا وبدلوا وخرجوا عن المنهاج وتركوا ملة إبراهيم يزعمون أن ما عندهم حق وهداية، فضلّت أفهامهم، وزعم اليهود أن في يهوديتهم السلامة وزعم النصارى بنصرانيتهم الوثنية أنّها الهداية وكلٌ في غيّهم يعمهون[338].

---

[337] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (420/1).

[338] المرجع نفسه، (421/1).

الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:135]:

1- قول الطبري:

احتج الله لنبيه محمد ﷺ أبلغ حجة وأوجزها وأكملها وعلّمها محمداً نبيه ﷺ فقال: يا محمد، قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به، فإن دينه كان الحنفية المسلمة، ويدع سائر الملل التي تختلف فيها فينكرها بعضنا، ويقرُّ بها بعضنا، فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم[339].

2- قول القاسمي:

ولما أثبت إسلامه بالحنفية نفى عن غيره بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذاناً ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام، مع إشراكهم بقولهم عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محضّ ضلال وارتكاب بطلان، وأن الدين المرضي عند الله الإسلام، وهو دعوة الخلق إلى توحيده تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم، بعث الله نبيه محمداً خاتم النبيين لدعوة الناس جميعاً إلى هذا الأصل[340].

---

[339] تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (102/3).

[340] محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1398هـ- 1978م، (407/1).

وقد بيّنت الآية الكريمة تبرئة إبراهيم (عليه السلام) من الشرك الأكبر والأصغر، وفيها تعريض بأهل الكتاب للإشارة لما هم عليه من الشرك بعد التحريف والتبديل، وفي الآية أن أصحاب الأديان الباطلة، وكذا أصحاب البدع يدّعون دائماً أنهم على حق وأن اتباعهم يؤدي إلى الهداية[341].

بيّن الله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: هي ديانة الحق والإقبال على الله، والإعراض عمّا سواه وهي قائمة على التوحيد تاركةً الشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية[342].

فعلينا أن نرجع إليها جميعاً، نحن وأنتم إلى ملة إبراهيم، أبينا وأبيكم وأصله ملة الإسلام وصاحب العهد مع ربه عليه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بينما أنتم تشركون، ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم إلى الإسلام الأخير ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد[343].

الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136]:

تفسر هذه الآية الكريمة ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وقد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به، واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح – وهو بهذا الاعتبار – يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره،

---

[341] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص229.

[342] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (608/1).

[343] في ظلال القرآن، سيد قطب، (118/1).

فحيث أطلق الإيمان دخل فيها ما ذكر، وكذلك الإســـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصـديق، والإسـلام اسـم للأعمال الظاهرة، وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة[344].

في قوله تعالى ﴿قُولُوا﴾: أي بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللســـان من دون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصـل الإيمان لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب. وفي قوله ﴿قُولُوا﴾: إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله ﴿آمَنَّا﴾: ونحوه مما في صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة، إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصـام بحبل الله جميعاً، والحثّ على الائتلاف حين يكون داعمهم واحداً وعملهم متحداً، وفي ضـمنه النهي عن الافتراق وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه واجب الوجود واحد أحد، متصـف بكل صـفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها وعدم الإشراك به في شيء بوجه من الوجوه[345].

وفي قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾: يشـــمل القرآن والســـنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضـمنه كتاب الله وسـنة رسـوله ﷺ من صـفات الباري وصـفات رسـله واليوم الآخر والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضـمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية وأحكام الجزاء وغير ذلك.

---

[344] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (96/1).

[345] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (96/1).

وفي قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾، فيه الإيمان بجميع الكتب على جميع الأنبياء والإيمان بالأنبياء عموماً وخصوصاً ما نصّ عليه في الآية لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب في الإيمان بالكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول ثم ما عرف منهم بالتفصيل وحب الإيمان به مفصلاً[346].

وفي قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال وغيره، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قولهم ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾: إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعبادة أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا لخير ولا ينهون إلا من كل شر وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بُدَّ أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم كما يعلم ذلك من سير أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه[347].

وفي قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعى أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم وإن زعموا أنهم يؤمنون بما

---

[346] المرجع نفسه، (96/1).

[347] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (97/1).

يؤمنون به من الرسل، والكتب، فإنهم يكفرون بغيره فيفرقون بين الرسل، والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمداً ﷺ، فإذا كذبوا محمداً فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به فيكون كفراً برسولهم[348].

فلما بيّن تعالى جميع ما يؤمن به عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول وهو ﴿لَهُ﴾ على العامل وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾[349].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على إيجازها واختصارها على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[350].

---

[348] المرجع نفسه، (97/1).

[349] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص97.

[350] المرجع نفسه، ص97.

1- ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السّلام:

هي دين الإسلام الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلين منذ آدم (عليه السّلام) إلى خاتمهم نبينا محمد ﷺ، فأصل الدين واحد، بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين واتفقت دعوتهم إليه وتوحدت سبيلهم عليه، وجعلهم الله وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك ودلالتهم عليه؛ لمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، بعثوا جميعاً بالدّين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له بالدعوة إلى توحيد الله والاستمساك بحبله المتين، وبعثوا بالتعريف في الطريق الموصل إليه، وبعثوا بيان حالهم بعد الوصول إليه، فاتّحدت دعوتهم إلى هذه الأصول الثلاثة:

- الدعوة إلى الله تعالى في إثبات التوحيد وتقريره وعبادة إله واحد لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فالتوحيد هو دين العالم بأسره من آدم إلى آخر نفسٍ منفوسةٍ من هذه الأمة.
- والتعريف بالطريق الموصّل إليه سبحانه في إثبات النبوات وما يتفرّع عنها من الشرائع، من صلاة وزكاة وجهاد وغيرها أمراً ونهياً في دائرة التكليف الخمسة: الأمر وجوباً أو استحباباً، والنهي تحريماً أو كراهة، والإباحة، وإقامة العدل والفضائل، والترغيب والترهيب.
- والتعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله: في إثبات المعاد والإيمان باليوم الآخر والموت وما بعده من القبر ونعيمه وعذابه، والبعث بعد الموت والجنة والنار، والثواب والعقاب[351].

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر وإن السعادة والفلاح لموقفة عليها لا غير، وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب المنزّلة وبُعث به جميع الأنبياء والرسل وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والأمم، وهذا هو المقصود من قول النبي ﷺ: إنّا معاشر الأنبياء أخوة لِعلّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد.

[351] الإيمان بالرسل والرسالات، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ط1، 2011م، ص20.

وهو المقصود في مثل قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى:13].

وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامة السور المكية في القرآن الكريم، وعندما نتأمل في القصص القرآني ندرك الحِكَم ممّا قصّه الله تعالى علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم، لأخذ العبرة والتفكر وتثبيت أفئدة الأنبياء وإثبات النبوة والرسالة وجعلها موعظة وذكرى للمؤمنين وأخبار الأمم المكذبة لرسلهم وما صارت إليه عاقبتهم وأنها سننه سبحانه فيمن أعرض سبيله، والدين بهذا الاعتبار: هو "دين الإسلام" بمعناه العام، وهو: إسلام الوجه لله، وطاعته، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك والإيمان بالنبوات، والمبدأ والمعاد[352].

ولوحدة الدّين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وَحّد الله سبحانه وتعالى ﴿الصِّرَاطَ﴾ و ﴿السَّبِيلِ﴾ في جميع آيات القرآن الكريم، وهذا الدين "دين الإسلام" بهذا أي باعتبار: وَحْدته العامة، وتوحّد صراطه، وسبيله، وهو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح، وإبراهيم، وبنيه، ويوسف الصديق، وموسى، ودعوة نبي الله سليمان، وجواب بلقيس ملكة سبأ، وعن الحواريين، وعن سحرة فرعون، وعن فرعون حين أدركه الغرق.

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وملّتهم، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته، وهو محل بعثته إلى أمته، وما يتبع ذلك من شريعة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا

---

[352] العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيّد سعيد السيّد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2006م، ص120.

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36]، وقال –سبحانه-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25][353].

وإنما خصّ الله سبحانه نبيه إبراهيم (عليه السّلام) بأن "دين الإسلام" بهذا الاعتبار العام هو ملته في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران:95] لوجوه:

- **أولها**: أنه (عليه السّلام) واجه في تحقيق التوحيد، وتحطيم الشرك، ونصر الله له بذلك ما قصّ الله خيره أمراً عظيماً.
- **ثانيهما**: أن الله سبحانه وتعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب، ولذا قيل "أبو الأنبياء"؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:78]، وهو (عليه السلام) تمام ثمانية عشر نبياً سمّاهم الله في كتابه من ذريته وهم: ابنه إسماعيل (عليه السلام)، ومن ذريته: محمد صلّى الله عليه وسلّم وابنه إسحاق، ومن ذريته: يعقوب بن إسحاق ويوسف وأيوب وذو الكفل وموسى، وهارون وإلياس، واليسع، ويونس وداود وسليمان وزكريا، ويحيى وعيسى (عليهم الصّلاة والسلام) جميعاً.
- **ثالثها**: لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم (عليه السلام) فقد كذبهم الله تعالى في قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:140][354].

---

[353] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط1، 1417هـ، ص52.

[354] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط1، 1417هـ، ص54.

وردّ الله عليهم محاجّتهم في ذلك بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)﴾ [آل عمران:65-67].

ثم بيّن سبحانه أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسنته فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:68]، وبين سبحانه مدى الضلال البعيد في جنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى، وما هم فيه من الغلو والضلال، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:77]، وبيّن سبحانه أن هذه المحاولة الكاذبة البائسة من أهل الكتاب جارية في محاولتهم مع المسلمين لإضلالهم عن دينهم ولبس الحق بالباطل[355].

ويجد المتأمل في كتاب الله تعالى التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أنزل إلا ليجدد دين إبراهيم (عليه السّلام) حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى "ملة إبراهيم"[356].

والخلاصة: أن لفظ "الإسلام" له معنيان؛ معنى عام: يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من أنبياء الله الذي بعث فيهم فيكونون مسلمين حنفاء على ملة إبراهيم فهم على "دين الإسلام" ثم لما بعث الله نبيه عيسى عليه السلام، فإن من آمن من أهل التوراة بعيسى واتبعه فيما جاء به، فهو مسلم حنيف على ملة إبراهيم، ومن كذب منهم بعيسى (عليه السلام) فهو كافر لا يوصف بالإسلام، ثم لما بعث الله محمداً ﷺ وهو خاتمهم وشريعته خاتمة الشرائع ورسالته خاتمة الرسالات، وهي عامة لأهل الأرض، وجب على

---

[355] المرجع نفسه، ص54.

[356] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص55.

أهل الكتابين وغيرهم اتباع شـريعته وما بعثه الله به لا غيره، فمن لم يتبعه فهو كافر لا يُوصـف بالإسـلام ولا أنه حنيف، ولأنه على ملة إبراهيم ولا ينفعه ما يتمسـك به يهودية أو نصـرانية، ولا يقبله الله منه، فبقي اسم "الإسلام" عند الإطلاق منذ بعثة محمد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها مختصاً بمن تبعه لا غير[357].

وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سـواه، فكيف وما سـواه دائر بين التبديل والنسخ، فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ولا يوصـف أحد اليوم بأنه مسـلم، ولا أنه على ملة إبراهيم، ولا أنه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متبعاً لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ[358].

2- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان:

كتب الدكتور بكر عبد الله أبو زيد – رحمه الله– كتابه القيم في هذا المجال، وانتصـر فيه لملّة إبراهيم عليه السـلام، وسمّى كتابه (الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسـلام وغيره من الأديان)، وخرج بمجموعة من النتائج:

- يجب على المسـلمين الكفر بهذه النظرية: "وحدة كل دين محرّف منسـوخ مع دين الإسـلام الحق المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل الناسخ لما قبله" وهذا من بديهيات الاعتقاد والمسلّمات في الإسلام.

---

[357] المرجع نفسه، ص55.

[358] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص56.

- ويجب على أهل الأرض اعتقاد توحّد الملة والدين في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين في التوحيد والنبوات والمعاد، كما مضى التقرير مفصلاً، وأن الأصل العقدي لم يسلم إلا لأهل الإسلام، وأن اليهود والنصارى ناقضون له متناقضون فيه لا سيّما في الإيمان بالله وكتبه ورسله.

- ويجب على أهل الأرض اعتقاد تعدد الشرائع وتنوعها وأن شريعة الإسلام هي خاتمة الشرائع، ناسخة لكل شريعة قبلها، فلا يجوز لبشر من أفراد الخلائق أن يتعبد الله بشريعة غير شريعة الإسلام[359].

- وإن هذا الأصل لم يسلم لأحد إلا لأهل الإسلام؛ فأمة اليهود كافرون بهذا الأصل لعدم إيمانهم بشريعة عيسى (عليه السلام)، ولعدم إيمانهم بشريعة محمد ﷺ وأمة النصارى كافرون بهذا الأصل لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبشريعته وبعموم رسالته والأمتان كافرتان بذلك، وبعدم إيمانهم بمحمد ﷺ ومتابعته في شريعته وترك ما سواه وبعدم إيمانهم بنسخ شريعة الإسلام لما قبلها من الشرائع وبعدم إيمانهم بما جاء به من القرآن العظيم وأنه ناسخ لما قبله من الكتب والصحف، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85]، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار[360].

- أنَّ الإسلام الذي جاءت به رسل الله والذي هو ملة إبراهيم (عليه السلام) والذي هو دين الإسلام الحق يبطل نظرية الخلط بينه وبين غيره من الشرائع الدائرة بين التحريف والنسخ، وأنه لم

---

[359] المرجع نفسه، ص91.

[360] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص92.

يبق إلا الإسلام وحده والقرآن وحده، وأن محمداً ﷺ لا نبي بعده، وأن شريعته ناسخة لما قبله، ولا يجوز اتباع أحد سواه[361].

- أنه لا يجوز لمسلم طباعة التوراة والإنجيل وتوزيعهما ونشرهما وأن نظرية طبعهما مع القرآن الكريم في غلاف واحد من الضلال البعيد والكفر العظيم؛ لما فيها من الجمع بين الحق: "القرآن الكريم" والباطل: لما في التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل وأن ما فيهما من حق فهو منسوخ.
- أنه لا تجوز الاستجابة لدعوتهم ببناء "مسجد وكنيسة ومعبد" في مجمع واحد لما فيه من الدينونة، والاعتراف بدين يُعبد الله به سوى الإسلام، وإخفاء ظهوره على الدين كله ودعوة مادية إلى أن الأديان على أهل الأرض التدين بأي منها، وأنها على قدم التساوي، وأن الإسلام غير ناسخ لما قبله وهذه المردودات السالبة فيها من الكفر والضلال ما لا يخفى، فعلى المسلمين بعامة ومن بسط الله يده عليهم بخاصة الحذر الشديد من مقاصد الكفرة من اليهود والنصارى في إضلال المسلمين والكيد لهم فإن بيوت الله في أرض الله هي "المساجد" وحدها ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف:29][362].
- المساجد من شعائر الإسلام فواجب تعظيمها ورعاية حرمتها، وعمارتها ومن تعظيمها ورعاية حرمتها وعمارتها عدم الرضا بحلول كنائس الكافرين بالرسول محمد ﷺ ورسالته والقرآن الذي أنزل عليه، وشريعته الناسخة لمن سبقته من الديانات الكبرى والتي أخبرت عن طريق رسولها وكتبها بوجوب متابعة النبي ﷺ والإيمان قبل أن تنالها التحريف والتبديل.

---

[361] المرجع نفسه، ص94.

[362] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص100.

- ليعلم كل مسلم أنه لا لقاء ولا وفاق بين أهل الإسلام والكتابيين وغيرهم من أمم الكفر إلا وفق الأصول التي نصت عليه الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:64]، وهي توحيد الله تعالى ونبذ الإشراك به وطاعته، في الحكم والتشريع واتباع خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ الذي بشرت به التوراة والإنجيل فيجب أن تكون هذه الآية هي شعار كل مجادلة بين أهل الإسلام وبين أهل الكتاب وغيرهم، وكل جهد يبذل لتحقيق غير هذه الأصول فهو باطل.. باطل.. باطل[363].

الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:137]:

1- قول الطبري:

يعني الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾: فإن صدق اليهود والنصارى بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم وأقروا بذلك، مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وفقوا ورشدوا ولزموا طريق الحق، واهتدوا، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم بدخولهم في ملتكم بإقرارهم بذلك، فقد دلَّ الله تعالى بهذه الآية على أنه لم يقبل من أحد عملاً إلا الإيمان بهذه المعاني التي عدها قبلها[364].

وهذه الكلمة من الله، وهذه الشهادة منه سبحانه، تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه، فهو وحده المهتدي ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق والمعادي للهدى ولا على المؤمن من

---

[363] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص101.

[364] تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (113/3).

شـقاق من لا يهتدي ولا يؤمن ولا عليه من كيده ومكره ولا عليه من جداله ومعارضـته فالله سـيتولاهم عنه، وهو كافيه وحسبه[365].

وفي قوله ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: وإن تولى هؤلاء الـذين قـالوا لمحمـد ﷺ وأصـــحـابـه: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فأعرضوا، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله، وبما جاءت به الأنبياء وابتعثت به الرسل، وفرقوا بين رسـل الله وبين الله ورسـله فصـدقوا ببعض وكفروا ببعض، فاعلموا أيها المؤمنون، أنهم إنما هم في عصيان وفراق وحرب لله ولرسوله ولكم[366].

وقوله تعالى: ﴿فَسَـيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾: فسـيكفيك الله يا محمد هؤلاء الذين قالوا لك ولأصـحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ من اليهود والنصـارى، إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصـحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين الله ورسله إما بقتل السيف وإما بجلاء عن جوارك وغير ذلك من العقوبات.

فإن الله هو ﴿السَّـــمِيعُ﴾ لما يقولون لك بألسـنتهم ويبدون لك بأفواههم من الجهل والدعاء إلى الكفر والمِلل الضالة، و﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يبطنون لك ولأصحابك والمؤمنين في أنفسهم من الحسد والبغضاء، ففعل الله بهم ذلك عاجلاً وأنجز وعده، فكفى نبيه ﷺ بتسـليطه إيّاه عليهم، حتى قتل بعضـهم وأجلى بعضاً، وأذل بعضاً وأخزاه بالجزية والصغار[367].

---

[365] في ظلال القرآن، سيد قطب، (118/1).

[366] تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (113/3).

[367] تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (116/3).

2- قول السعدي:

أيّ؛ فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل وجميع الكتب الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم، وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ للصراط المستقيم الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه[368].

و"الهدى": هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق هو الذي يكون في شقّ والله ورسوله في شقذ، ويلزم من المشاقة المحادة والعداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، كفاك الله شرهم وقد أنجز الله لرسوله وعده وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر[369].

هذا هو منهاج القرآن وكلام رب العالمين الواضح في الفصل بين الحق والباطل، فلا تشطير ولا ترقيع، فالحق حق والباطل باطل، فالحق ينبغي أن يؤخذ كله ولا يتنازل فيه عن شيء فبقدر ما يقع من التنازل بقدر ما ينطفئ نور الحق في نفس الفاعل، فلهذا أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن لا يلتفت إلى

---

[368] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص98.

[369] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص98.

اقتراحات اليهود والنصارى الباطلة وأن يلتزم بشرعه وما ألزمه الله به، وهكذا يبقى هذا المنهاج خالداً ما دامت السماوات والأرض[370].

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه، وبالعلامة التي يضعها الله على أوليائه، فيُعرفون بها في الأرض[371].

الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة:138]:

1- قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾:

فسّرها ابن عباس (رضي الله عنه) وغيره على أنها "دين الله"، وسمّي الدين صبغة لظهور أثره على صاحبه، مثلما يظهر أثر الصّبغ في الألوان في الأشياء المصبوغة، فكذلك المتدين بدين الله يظهر أثر الدين عليه في صفحة وجهه ومسلكه وسمته وهيئته، وبما أن الصِّبغة تلزم الشيء المصبوغ وتبقى عليه، فكذلك المتدين يثبت على هذا الدين ويستمر عليه ويلزمه كلزوم اللون للشيء المصبوغ، ومن جهة أخرى، فإن الله (عزّ وجل) صبغ الأشياء في الطبيعة بالألوان المختلفة وشتّان بين اللون الطبيعي الذي خلق الله الأشياء عليه وبين ألوان البشر الصناعية[372].

وقوله ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ فكان الإيمان بالله وملة إبراهيم، وما أنزل الله على رسله هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري، وجاء التعبير بكلمة صبغة حتى تعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله، إنه

---

[370] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، 1435هـ، 2014م، (319/2).

[371] في ظلال القرآن، سيد قطب، (118/1).

[372] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص233.

ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق، ولذلك فإن رسول الله ﷺ يقول: كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ، حتى يُعرِبَ عنه لسانُه، فأبواه يُهوِّدانِه، أو يُنصِّرانِه، أو يُمجِّسانِه[373].

فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة، إنها صبغة الله فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أي يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية، هذا هو معنى صبغة الله[374].

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبيّن لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا، وهذا الاختلاف في اللون من صبغة الله، واختلاف ألوان البشر ليس طلاء، وإنما في ذات التكوين، فيكون هذا أبيض، وهذا أسمر، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وغيره.

هذه هي صبغة الله وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطي صبغة؛ لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان، وإنما يأتي من داخله، ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشري.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:23]، هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب، أمر داخلي وليس خارجياً وأما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله ونقول لهم: لا، هذا الطلاء من عندكم أنتم، أما دينياً فهو صبغة الله[375].

---

[373] صحيح البخاري، رقم (1358).

[374] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (613/1).

[375] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (613/1).

إنَّ في الآية إرشـاد، بمعنى أي الزموا صـبغة الله وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صـفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعاً واختياراً ومحبة، وصـار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصـبغ التام للثوب الذي صـار له صـفة، فحصـلت لكم السـعادة الدنيوية والأخروية لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور[376].

2- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾:

إنّها صـبغة الله التي شـاء لها أن تكون آخر رسـالاته إلى البشـر؛ لتقوم عليها وحدة إنسـانية واسـعة الآفاق لا تعصّـــب فيها ولا حقد، ولا أجناس فيها، ولا ألوان، ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة[377].

فقد جاء السياق على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أحسن من الله صبغة ولا أحد أحسن منه ديناً وشرعة ومنهاجاً، لأن دين الله يشتمل على تحقيق المصالح، ودرء المفاسد بما لا يوجد مثله في أي دين وملة أخرى من أهواء البشـــر، والنفي بطريقة الاســـتفهام أبلغ من النفي المجرّد، لأنه يحمل معنى التحدّي، فكأنه يقول: هاتوا أحسن من الله صبغة، ولا شكَّ أن هذا أبلغ في الإقناع[378].

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبيّن لك الفرق بين صـبغة الله وبين غيرها من الصـبغ، فقِسْ الشـكَّ بضـــده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صـــحيحاً أثر معه خضـــوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزلْ

---

[376] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص98.

[377] في ظلال القرآن، سيد قطب، (118/1).

[378] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص233.

يتحلى بكل وصف حسن وفعل جميل وخلق كامل ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح ورذيلة وعيب، فوصفه الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم والعفة والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر والشرك والكذب والخيانة والمكر والخداع وعدم العفة والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان إلى عبيده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن ﴿صِبْغَةَ﴾ من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه[379].

3- قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾:

أي: خاضعون مطيعون، و"العبادة" التذلل إلى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فمن كان على صبغة الله ودينه لزم العبادة وزيّن نفسه بطاعة الله تعالى[380].

وبيان لهذه الصبغة وهي القيام بهذين الأصلين الإخلاص والمتابعة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحصر وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار؛ ليدل على اتّصافهم بذلك

---

[379] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص99.

[380] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص233.

"وكونه صار صبغة لهم ملازماً"[381]. وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ يدل على حصر العبادة واختصاصها بالله عزّ وجل[382].

السادس عشر: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة:139]:

لقد أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول لليهود والنصارى الذين زعموا أنّ لهم مكانة خاصة عند الله تعالى، كما حكاها عنهم سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:18].

1- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾

أي: أتجادلوننا في الله تعالى، وتدّعون أن لكم مكانة خاصة عنده وتزعمون أنكم أولى بالله منا من أجل أن نبيكم قبل نبينا وكتابكم قبل كتابنا[383].

2- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾:

وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يبين لهم أنه لا حاجة إلى المحاجة، ولذا أمره أن يقول ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فصِلَتُنا بالله واحدة وهو أنه ربنا جميعاً، وقد بيّن المماثلة في الصلة بالله تعالى لصلة الربوبية، وهي متحدة بمعنى الربوبية ولا تفاوت بيننا في هذا، فلستم أقرب إليه، ولا نحن أقرب من هذه الناحية[384].

---

[381] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص99.

[382] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص233.

[383] تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (3/120-121).

[384] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (1/429).

وهو خالقنا وخالقكم والمتصرّف فينا وفيكم وهو أعلم في تدبير خلقه وبمن يصلح للرسالة وبما ينسخ من الدين[385].

ونبههم النبي ﷺ بأمر ربه بأن التفاوت إنما هو بالأعمال ولذلك أمره تعالى بأن يقول لهم: وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ.

3- قوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾:

فأعمالنا بما فيها من خير ونفع تتحمل في ذاتها استحقاق جزائها، ولكم أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن القرب إلى الله تعالى أو البعد، إنما هو بحسب الأعمال، فهي تقرب وهي تبعد، وهي التي يكون عليها الجزاء[386].

4- قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾:

أي: في عبادته والتوجه إليه و"الإخلاص" تنقية الشيء من كل شائبة، والمعنى: أننا نخلص العبادة لله ولا نشوبها بشيء من الشرك[387].

ومن تعريفات الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، فالعمل لأجل الناس شرك، وترك العمل الصالح من أجل الناس رياء والإخلاص: المعافاة منهما[388].

---

[385] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص234.

[386] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (429/1).

[387] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص234.

[388] المرجع نفسه، ص234.

والإخلاص سـرٌّ بين العبد وبين الله لا يعلمه ملك، فيكتبه ولا شـيطان فيفسـده، وفي الجملة الإخلاص حصن العبادة الحصين[389].

وقد بيّنت الآية الكريمة أنه لا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ونحن محاسبون بأعمالنا وعليكم وزر أعمالكم ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئاً ولا نرجو معه أحداً، وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم وهو غير قابل للجدال والمحاجة واللجاج[390].

ومن ثم يضرب السّياق عنه، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل، وذكر زعم اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهودياً أو كان نصرانياً، ولقد قال الله في ذلك:

السابع عشر: قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:140]:

انتقل السّـياق القرآني من توبيخ هؤلاء الذين يحاجّون في الله ويجادلون في توحيده، إلى توبيخ آخر وهو دعواهم أن رسـل الله هؤلاء كانوا هوداً أو نصـارى، فزعمت اليهود أن إبراهيم (عليه السّـلام) كان يهودياً وزعمت النصارى أنه كان نصرانياً[391].

1- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾:

---

[389] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (430/1).

[390] في ظلال القرآن، سيد قطب، (119/1).

[391] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، 234.

جاءت ﴿أَمْ﴾ هنا للانتقال من موضوع إلى موضوع، وقد نفى الله هذه المزاعم في سورة آل عمران بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:67]، فموسى والتوراة كانا بعد إبراهيم بزمن، وعيسى والإنجيل كانا بعد إبراهيم بزمن، فكيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً؟ وقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهو أكبر أولاد إبراهيم، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ أخ إسماعيل، الولد الثاني لإبراهيم، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو ابن إسحاق ويسمّى إسرائيل، ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم أبناء يعقوب الاثنا عشر[392].

وهناك من قال: والأسباط: جمع سبط، والسبط في بني إسرائيل، كالقبيلة في العرب، والمراد عامة أنبياء بني إسرائيل، الذين اختارهم الله من أسباطهم[393].

وقوله: ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي: تزعمون أن كل هؤلاء كانوا على الديانة اليهودية أو النصرانية؟ وبالإضافة إلى استعمال حجة التاريخ في الردِّ على مزاعمهم، فقد أبطل الله دعوى اليهود والنصارى هذه بطريقة أخرى[394].

3- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾:

ولا يستطيعون أن يقولوا: إنهم أعلم من الله، فمن المعلوم أنه أعلم، وهذا الاستفهام من أجل إفحام الخصم وإلزامه، فإذا قال الله شيئاً، وقال هؤلاء شيئاً يعارضه، فكلام من المعتبَر والمصدَّق؟ لا شكّ أنه كلام الله تعالى، فكأنّه يقول للمجادلين: أأنتم أعلم بدين هؤلاء الرسل أم الله أعلم بدينهم؟[395]

---

[392] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص235.

[393] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (202/1).

[394] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص235.

[395] المرجع نفسه، ص235.

والإجابة معروفة: فهؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصـارى، بل كانوا مسـلمين موحدين، كما مرّ معنا، ورسالة الإسلام هي دعوتهم ووصيتهم التي أوصوا بها أبناءهم، والتي ذكرها في الكتب المنزلة عليكم فأخفيتموها، وكتمتم الشهادة التي ائتمنكم الله عليها[396].

3- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾:

أيّ: لا أحد أشدّ ظلماً في باب كتمان الشهادة، ممن أخفى وستر على الناس شهادة ثابتة عنده في كتاب دينه من الله، صادره منه عزّ وجل، وهم اليهود والنصارى، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية والنصرانية وكتموا محمداً ﷺ، وهم يعلمون أنه رسول الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل[397].

فهي شـهادة عندهم مودعة من الله لا من الخلق، فيقتضـي الاهتمام بإقامتها فكتموها وأظهروا ضـدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى، والله سيعاقبهم عليه أشدّ العقوبة[398]، فلهذا قال:

4- قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

هذا وعيد وإخبار بأمر الله تعالى، وقد نفى الله تعالى نفياً مؤكداً أنه غافل عن عملهم، بل إنه سبحانه آخذهم بذنوبهم، فنفى بـ "ما" و"الباء" الدالة على استغراق النفي[399].

---

[396] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (205/1).

[397] تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص235.

[398] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص100.

[399] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (430/1).

وبيّنت الآية أن الله قد أحصى أعمالهم وعدها، وادّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى الظالمين، وهذه طريقة القرآن الكريم في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها: الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتفية له[400].

قال الرازي: أما قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فهو الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه، ولا يخفى عليه خافية أنه من وراء مجازاته وإن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو خائف، ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر، فكيف بالربِّ الرقيب الذي يعلم السرَّ وأخفى، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول[401].

وبمناسبة زعمهم أنهم يتمسكون بما كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط (عليهم السّلام)، قال سبحانه مرة ثانية لهم[402]:

الثامن عشر: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:141]:

فلا تحتجوا بهم، فكل إنسان يُسأل عن كسبه وعمله، ولا حجة لكم يوم القيامة في قولكم إنهم كانوا هوداً أو نصارى، فلن ينفعكم نسبكم إليهم، ولن يقبل الله حجتكم، ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن

---

[400] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص100.

[401] التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (100/4).

[402] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (205/1).

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هوداً أو نصارى، أي كانوا على غير دين الإسلام؛ لأن هذه حجة غير مقبولة، وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين[403].

كما أن انتسابكم إليهم لن ينفعكم ما دامت عقائدكم وأعمالكم مخالفة لعقائدهم وأعمالهم.

وبهذا جرّدت الآيات الكريمة أهل الكتاب من جميع الحجج التي يحتجون بها وبينت أن صلتهم بالأنبياء السابقين مقطوعة، فلا صلة لهم بها البتة، لا في العقيدة، ولا في العبادة، ولا في الشريعة، ولا سبيل إلى الاتصال بهم إلا بالقرآن الكريم، والكتاب الذي لا ريبَّ فيه، فهو رسالة النبي الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً عليهم الصلاة والسلام[404].

إنَّ القرآن الكريم يفصل بين الأبناء والآباء، وبين الخلف والسلف، وبين الأنبياء وذرياتهم، فالميزان في الجميع هو الاتباع لما بلغه أنبياؤه ورسله، فلا ينفع التغني بنسب ولا نسبة إلى نبي أو صحابي أو تابعي أو عالم أو رجل صالح، فالكلُّ له عمله ويُجزى بعمله[405].

ويكرر الله سبحانه وتعالى أن كل امرئ بما كسب رهين، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولهم ما كسبوا وعليكم ما اكتسبتم، وأنَّ خير الماضين ليس خيراً لكم، وأنّ شرهم ليس وزره عليكم، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء:13]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

---

[403] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (622/1).

[404] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (205/1).

[405] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (332/2).

أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:164]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم:39][406].

إنَّ الانتساب وحده لا يكفي مهما كانت صحة النسب، فمن انتسب مثلاً إلى آل النبي ﷺ، وهو مخالف له ﷺ فيما جاء به، فلا يغني عنه ذلك الانتساب شيئاً، كما صرح بذلك الرسول ﷺ حيث قال: يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً.. يا عباس.. يا صفية..[407].

وما أكثر المتغنين في هذا الزمان بالأنساب والطوائف، وهم مخالفون لأصولهم وأجدادهم فيما كانوا عليه من متابعة للرسول ﷺ، كما عاب الله على بني إسرائيل الذين زعموا الانتساب إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (عليهم السّلام)، وهم مخالفون لهم في التوحيد والدعوة والاستقامة على شرع الله تعالى، كل ذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً[408].

---

[406] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (432/1).

[407] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (332/2).

[408] المرجع نفسه، (332/2).

المبحث الرابع: دعاء إبراهيم (عليه السلام) لذريّته ولمكّة وحمده لله على أن وهب له إسماعيل وإسحاق (عليهم السلام).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)﴾ [إبراهيم:35-41].

إنَّ سورة إبراهيم مكيّة، والحديث فيها عن إبراهيم (عليه السّلام) جاء في سلسلة هذه الإلزامات الكثيرة التي تنعى على أهل مكة وغيرهم من العرب استمرارهم في عبادة الأصنام، وكان من حقهم أن يعبدوا الله الذي منّ عليهم بهذا الأمن في بلدهم، وأن يتذكروا دعوة إبراهيم (عليه السّلام) حينما سأل ربّه أن يجعل هذا بلداً آمناً، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ويصرفهم عنها، فإنها أضلّت كثيراً من الناس،

ويبيّن إبراهيم (عليه السّلام) بأن الرابطة الحقيقية التي تربط بنيه به، إنما هي رابطة العقيدة ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، كما تبيّن الآيات الكريمة حرص إبراهيم على هذا البلد الآمن وساكنيه، كل ذلك من أجل أن يشكروا نعم الله عليهم، فلا يكفروها، ولا يكفروا بالله الذي أنعم بها، ويعطي القدوة من نفسه على هذا الشكر، فهو يحمد الله الذي وهب له على الكبر ولديه إسماعيل وإسحاق (عليهما السلام)، ويسأل ربّه سميع الدعاء أن يجعله مقيم الصلاة، ومن ذريته كذلك وأن يغفر لوالديه وللمؤمنين.

ونرى أن ما جاء في سورة إبراهيم (عليه السلام) كان جانباً جديداً من خبر إبراهيم فهو متّسق مع موضوع السورة من جهة، ومع شخصيتها واسمّها من جهة أخرى، وهذه الآيات الكريمة في سورة إبراهيم أبلغ ردٍّ وخير دحض لما يقوله خصوم الإسلام من أعداء وأدعياء، والذي أشرنا إليه من قبل في كتابي عن إبراهيم (عليه السلام) أول الحديث عن قصة أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا إبراهيم (عليه السلام) من أن صلة إبراهيم بالبيت وصلته بإسماعيل عليهما السلام، لم يعرفا إلا في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام[409].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35]:

هذه بداية الآيات التي اشتملت على فقرات كثيرة من الأدعية، ومنها ما جاء على سبيل الرمز والتعريض تأدباً وحياء، وأكثرها جاء عن طريق الإيضاح والتصريح استعظاماً وطمعاً، كما أننا نلاحظ أن إبراهيم مزجها بالثناء والحمد لله في أولها وأوسطها وآخرها، والآن تفسير ما أجملنا في تفسير الآيات[410].

1- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾:

﴿وَإِذْ﴾ أي واذكر على لسان إبراهيم، وقد رفع دعاء للخالق المربي طالباً عطاء الربوبية من الربِّ الكريم سبحانه وتعالى.

﴿رَبِّ﴾ وقد تكرر الدعاء هنا مستفتحاً بلفظ ﴿رَبِّ﴾ الذي يدلُّ على تذلل الدّاعي وخشوعه من رغبته الأكيدة في الاستجابة من المدعو عزّ وجل.

﴿اجْعَلْ﴾ وهذا على رقّة إبراهيم وسلاسة دعاؤه وانكساره بين يدي الله تعالى.

---

[409] قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط 3، 1430هـ، 2010 م، ص305.

[410] دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1, 1999م، ص130.

﴿هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا﴾، فالملاحظ هنا مجيء اللفظتين معرّفتين بـ"الـــ" مع خلوّهما من هذا التعريف في الآية الواردة في ســورة البقرة ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا﴾، وما ذاك إلا أن الدعاء أولاً كان لمكة المكرمة قبل أن تكون من جملة البلاد، إذ كانت مجرد واد قفرٍ خال من كل شيء، فطلب عليه الصلاة والسلام الدعاء لها أولاً لتتمكن هاجر وابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام من سكنى المكان والبقاء فيه، أما وقد اســتقر الأمر وقد أصــبحت بلداً كســائر البلاد آهلاً بالناس عامراً بما فيها، فكان من الطبعي بل من حكمة النبي الكريم أن يدعو لها بالأمن إذ لا قيمة للحياة في بلد خالٍ من الأمن[411].

إنَّ دعاء إبراهيم (عليه السلام) بالأمن قد صدر مرتين؛

- الأولى: قبل بنائه الكعبة فجاء في سورة البقرة المدنية ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا﴾.
- والثانية: صــدر فيها دعاء إبراهيم بعد بناية الكعبة فجاء التعبير في ســورة إبراهيم المكية ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا﴾ والمعنى هنا: ربّ اجعل هذا المكان الذي مصــرته وصــيّرته معرّفاً كما سألتك من قبل اجعله آمناً[412].

وإذا تساءلنا كيف جاءت "بلداً" النكرة في سورة مدنيّة؟ وجاءت ﴿الْبَلَدَ﴾ المعرفة في سورة مكيّة؟ وكان المتوقع أن يكون العكس؟ فالجواب: لأن ذلك الكلام كان حكاية عن إبراهيم عليه الســلام، فلا فرق بين نزوله بمكة أو المدينة[413].

---

[411] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص130.

[412] من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء والمرسلين، محمد فؤاد سندي، ص103.

[413] المرجع نفسه، ص103.

ولقد مهّد إبراهيم (عليه السّلام) بهذا الدعاء الذي استجابه الله له السبيل للعابد في هذا البلد أن يتمكن من عبادته، بلا خوف أو تهديد من عدوّ، وساد الأمن والطمأنينة والاستقرار في ربوع مكة، وعمّ الخير فيها وكثر ساكنوها، وتوافد إليها أصحاب الحرف والتجارات.

ولقد أصاب إبراهيم (عليه السّلام) الحقيقة في طلبه هذا؛ لأن الأمن مصدر الخيرات، وأعظم نعم الله على بني الإنسان إذ به تتم أعمال الدين والدنيا، ولذلك سئل بعض العلماء: الأمن أفضل أم الصحة؟ فردّ قائلاً: لو أن شاة انكسرت رجلها لصحّت بعد مدة من الزمن، ولقامت بعد ذلك مقبلة على الرعي والأكل، ولو أنها رُبطت في موضع ورُبط بالقرب منها ذئب، لأمسكت عن تناول الأكل إلى أن تموت، وإن دلَّ هذا على شيء، فإنما يدلُّ على أن الضرَّ الحاصل من الخوف أشدّ إيلاماً من الضرّ الحاصل من ألم الجسد.

وطلب إبراهيم (عليه السّلام) الأمن لمكة واستجاب الله له دعاءه، فخصها بمزيد من الأمن، فهي دوحة الإيمان، وفيها أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة والأمن والإسلام، فأمن الخائف إذا التجأ إليها، حتى كان المرء يلقى قاتل أحب الناس إليه فلا يمسه بسوء أو مكروه[414].

لقد أدرك إبراهيم (عليه السّلام) بما وهبه الله من عقيدة راسخة منذ آلاف السنين أن البلد الذي أقيمت فيه الكعبة الشريفة لن يكون بلداً يرفع الحضارة الإنسانية الربانية بحق إلا إذا كان آمناً، وفعلاً استجاب الله لدعاء خليله، فحتى طيره لا يطارد، بل حتى نباته لا يُعضد، أمّا عن حجاجه فحدّث ولا حرج حتى عندما أشرك الناس كان للبيت حرمته، وبقي الأمن فيه.

فلتنتبه البشرية اليوم عندما ترسي قواعد العمران ترسي أسباب الأمن معها، ولن تكون آمنة بحق إلا إذا استمدت قوانين التعامل معها ممّا جاء في شريعة الإسلام من كليات في هذا الشأن، ومن بينها أنّ

---

[414] دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص97.

جبريل ما زال يوصي النبي ﷺ بالجار حتى ظن أنه سيورثه، فأين مثل هذه المعاني مما تتألم البشرية من ويلات فقدانها في حواضر العالم المترامية الأطراف، حيث يتجرع المواطن من مرارة الفزع ما لا يخطر على بال مما لا يتفنن الأدباء في تصويره عسى أن يظفروا بشيء من الأمن ولكن يبقى هذا الأمن بعيداً، ذلك أنهم ضلوا سواء السبيل[415].

إنَّ نعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان، عظيمة الوقع في حسِّه، متعلقة بحرصه على نفسه، والسياق هنا يذكرها ليذكّر بها سكان ذلك البلد، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها، وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمناً، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم، فكفروا النعمة وجعلوا لله أنداداً، وصدوا عن سبيل الله، ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن.

2- قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾:

ويبدو في دعوة إبراهيم (عليه السّلام) الثانية تسليم مطلق إلى ربه والتجاؤه إليه في أخصِّ مشاعر قلبه، فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه، ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله، وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، فيخرج من التيه والحيرة، والضلال والشرود، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء، ويخرج من الدينونة المذلّة لشتى الأرباب، إلى الدينونة الكريمة لربِّ العباد، إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه، فيجنبه هو وبنيه أن يعبدوا الأصنام، ويدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة ما ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير[416].

---

[415] وإبراهيم الذي وفّى، د. فرحات بن علي الجّعبيري، المكتبة السعيدية للنشر، مسقط، سلطنة عُمان، ط2، 2014م، ص93.

[416] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2109/4).

أ- **قال أبو السعود** في الآية: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾: بعّدني وإيّاهم ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، واجعلنا منها في جانب بعيد، أي: ثبتنا على ما كنّا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام، وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى، والظاهر أن المراد ببنيه أولاده من صلبه[417].

ب- **وقال ابن عاشور**: وأراد ببنيه أبناء صلبه، وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق عليهما السّلام، فهو من استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جميع نسله تعميماً في الخبر فاستُجيب له في البعض[418].

ج- **وقال الشنقيطي**: قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ لم يبيّن هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا، ولكنه بيّن في مواضع أخرى أنه أجابه في بعض ذريته دون بعض، كقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات:113] وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف:28][419].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36]:

1- قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾:

في قوله دليلٌ على أنه أشدّ الناس بغضاً للأصنام وإدراكاً لضلال من يعبدونها، ولذلك أسند الإضلال إلى الأحجار، مع أن الإضلال من الشيطان الذي ابتدع الأوهام حولها؛ وذلك لأنّهم لما عبدوها وأحاطوها بأوهام كثيرة، وصار الوهم يولّد وهماً وتوالت وتكاثرت كلّها، صحّ إسناد الإضلال إليها، وعبَّر (عليه السلام) عن الذين ضلوا بأنهم كثير وليسوا عدداً قليلاً، وذلك لعموم الضلال بها، وعمومه لا

---

[417] تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، (50/5).

[418] تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (238/13).

[419] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (112/3).

يجعلها حقاً، بل هي باطل ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:116]، وإن ذكر ضلال الأوثان على لسان إبراهيم (عليه السلام)، وهم يتشرفون بنسبتهم إليه، وهو باني الحرم الشريف المقدس، فيه بيان أنه بريء منهم ما داموا يعبدون الأوثان، ولذا قال عليه السلام في دعائه[420].

2- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾:

ملة إبراهيم (عليه السلام) هي التوحيد، كما قال تعالى: ﴿..مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:123]، فمن تبعه في ملته، فإنه منه ومفهوم هذا أن من لم يتبعه في التوحيد وعبد الأوثان فليس منه؛ لأن اشتراط كونه موحداً ليكون منه، لئن لم يتبعه لا يكون منه، بل هو بريء منه، كما تبرأ من أبيه، وكما تبرأ من قومه[421].

إنَّ إبراهيم (عليه السّلام) قصد بالتبعيّة هنا، أي السير على ملته، وأن يكون التابع حنيفاً مسلماً، ولا أدل على ذلك من تأكيد الخبر بأن المؤكدة في قوله: ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، ولنتأمل هنا جلال التعبير إضافة إلى جماله في قوله: ﴿مِنِّي﴾، إنَّ الجلال يكمن في كون التابع بعضاً من متبوعه لفرط اختصاصه به ولا يخفى على أحد الجمال في سلامة التعبير وحسن الصياغة ولطف الوَقع[422].

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: فمن تبعني في دعوتي إلى التوحيد والاستسلام لله (سبحانه وتعالى) وشرعه، فإنه على ديني وملّتي ومن المتمسكين بحبلي[423].

---

[420] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4036/8).

[421] المرجع نفسه (4036/8).

[422] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص234.

[423] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (3289/4).

3- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

في هذا تبدو سمة إبراهيم (عليه السّـــلام) ظاهرة، فهو العطوف الرحيم الأواه الحليم، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجل لهم العذاب، بل لا يذكر العذاب، إنّما يكِلهم إلى غفران الله ورحمته، ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة، وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصـــية؛ فلا يكشف عند إبراهيم الرحيم الحليم[424].

ويتجلى هنا بوضوح أدب الخليل مع ربه، حيث لم يقل: ومن عصاك، مع العلم بأن معصية الرسل في الحقيقة معصية لمن أرسلهم وهو الله تعالى، وكأنه تعاظم في نفسه أن يجرؤ العباد على معصية الله، فعبّر عن عدم اتباعهم له واسترشادهم برسالته بالعصيان له تأدباً وتجملاً في التعبير[425].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْـــكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّـــلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْـــكُرُونَ﴾ [إبراهيم:37]:

ثم يعيد السّـياق القرآني الكريم اللفظ نفسـه الذي آثر سـيدنا إبراهيم (عليه الصـلاة والسـلام) أن يستفتح به كل دعوة من دعائه[426].

1- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

﴿رَبَّنَا﴾؛ هذه اللفظة التي تنقل لنا مزيداً، بل فيضاً من مشاعر النبي الكريم في ساعة الدعاء، وهنا كما نلاحظ إضـــافتها لضـــمير المتكلم "نا"، مع أنّ ما جاء بعدها ياء المتكلم الدالة على أن الدعاء من

---

[424] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2109/4).

[425] دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص100.

[426] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص234.

سيدنا إبراهيم وحده (عليه الصلاة والسلام)، فنرى أن في الأولى إقراراً منه (عليه السّلام) بالربوبية الكاملة من الله (عزّ وجل) لجميع خلقه الذين تكفّل بمعاشـــهم وجميع أمور حياتهم ومادام الأمر كذلك فإن دعوة واحدة منه (عليه السلام) هي أدعى بالاستجابة والقبول وهذا ما توجبه لنا يا المتكلم.

وفي قوله ﴿إِنِّي﴾ هذا فضلاً عمّا نقله لنا من إحساسه (عليه الصلاة والسلام) بالضعف أمام قدرة رب العالمين سبحانه وتعالى.

وفي قوله ﴿أَسْـــكَنْتُ﴾ تأتي هذه الجملة هنا لتنقل لنا معنى دقيقاً أراده النبي الكريم من ترك زوجه وولده هناك، فهو لم يتركهما عبثاً أو مؤقتاً، بل وضعهما بنية السكن بهذا الوادي[427].

وفي قوله ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ في هذه الجملة وجه من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي في كتاب الله، وذلك في ورود التعبير ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ لأن فرعاً واحداً من ذرية إبراهيم هو الذي أســـكن عند بيت الله الحرام، وهو فرع سيدنا إسماعيل (عليه السّلام) الذي ختم ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وبارك عليه وعلى أنبياء الله أجمعين، وهو من الحقائق التاريخية الراسخة[428].

2- قوله تعالى: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾:

هذه صـورة أخرى من صـور الإعجاز الإنبائي والتاريخي والعلمي في هذا النص الكريم؛ وذلك لأن وادي مكة في ذلك الزمان كان قفراً لا زرع فيه ولا ثمر ولا ماء ولا أثر لبشـر، لأن الزرع لا يتحقق إلا في الأماكن الآهلة بالســـكان، ولما لم يكن في الحرم المكي كله أي مقيم ســـاعة أمر الله عبده إبراهيم (عليه السّـلام) بوضـع زوجه السـيدة هاجر عليها رضـوان الله ورضـيعها إسماعيل عند قواعد البيت الحرام، فقد

---

[427] المرجع نفسه، ص234.

[428] من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، (351/1).

انتفى وجود إمكانية أي زراعة، ولم تنتف إمكانية وجود بعض النباتات الفطرية من مثل العضاه والسّلَم والسّمر وغيرها؛ لأن لفظة "نبات" كلمة عامة، تشمل كل ما تنبته الأرض بالفطرة أو الزراعة[429].

لقد كان إسكان بعض ذرية إبراهيم (عليه السّلام) في هذا الوادي غير ذي زرع؛ لغرض تعمير بيت الله العتيق الذي بناه بأمر الله خليل الله أبو الأنبياء، ولذلك قال ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، إذ أضاف البيت إليه سبحانه وتعالى تشريفاً لشأنه ووصفه بالمحرم؛ لأنّه تحرم فيه الدماء، وهو في ذاته حرم آمن يأمن كل من يأوي إليه، وقد بُني في صحراء جرداء؛ ليكون آمناً من طمع الطامعين ورغبة المعتدين، إذ أنهم يرومون خصب الأرض ليشبعوا نهمهم ويرضوا مطامعهم، وليكون الاستغلال الغاشم والاستعمار الظالم، فكان في أرض لا يطمع فيها طامع، ولا يرومها فاتح، وقد كرّر نداء ربه ضراعة[430]، فقال: رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ.

3- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾:

وهذا متعلق بأسكنت، اللام للتعليل، أي أسكنتهم لأجل إقامة الصلاة فيه، وأن يعمروا بصلاتهم، لا ليستمر خراباً من العبادة خالياً من الناس، فلا تنتهي إلى الغاية التي أمر بإنشائه من أجله، وفي هذا إشارة إلى أن المشركين من ذرية إبراهيم (عليه السّلام) قد انحرفوا به عن غايته عندما أحاطوه بالأوثان التي هدمها النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم[431].

---

[429] المرجع نفسه، (351/1).

[430] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4038/8).

[431] المرجع نفسه، (4039/8).

وفي قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ طلب إبراهيم (عليه السّلام) من الله تعالى أولاً أن يعينهم على الطاعة ويرزقهم الاستقامة ويوفقهم إلى الصلاة والذكر والعبادة[432].

ويكون قصد إبراهيم (عليه السّلام) في هذا الدعاء بأن يوفقهما للصلاة، أي يديمهما على إقامتها، ولعله أراد من الله تعالى أن يُلهم أبناءه وأحفاده ومن جاء بعدهم من ذريته إقامة الصلاة منذ نعومة أظفارهم، فلا يتكاسلوا ويتراخوا في أدائها[433]؛ لأنَّ إقامة الصّلاة من أخصِّ وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه[434].

قال القرطبي: تضمن هذه الآية أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها[435].

وهذا ما دلَّ عليه الحديث الشريف عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: صلاةٌ في مَسْجِدِي أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فِيما سِواهُ إلا المسجِدَ الحرامَ، وصلاةٌ في المسْجِدِ الحرامِ أفضلُ من مِائةِ ألفِ صلاةٍ فِيما سِواهُ[436].

ومن حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً: وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه[437].

---

[432] وقفات في حياة الأنبياء عليهم السّلام، الشيخ خالد عبد العليم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 2004م، ص77.

[433] دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص100.

[434] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص852.

[435] تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي، (371/9).

[436] صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (3838).

[437] سنن ابن ماجه، رقم (1406).

ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة والصلاة في مسجدي بألف صلاة والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة[438].

وتكرر نداء ﴿رَبَّنَا﴾ وتوسيطه لإظهار كمال عنايته بإقامة الصلاة، فإنها عماد الدين، ولذا خصّها بالذكر من بين سائر شعائره[439].

4- قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾:

هنا الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، فكأنه أراد أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة، والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم، ومحبة الناس إياهم يحصل معها محبة البلد وتكرير زيارته، وذلك سبب لاستئناسهم به ورغبتهم في إقامة شعائره، فيؤول إلى الدعوة إلى الدين[440].

وقال السعدي في تفسير الآية: أي تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه، فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمد ﷺ حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملّة أبيهم إبراهيم (عليه السّلام)، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة، وافترض الله حجّ هذا البيت الذي أسكن به ذريته إبراهيم، وجعل فيه سراً عجيباً جاذباً للقلوب، فهي تحجه ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه، ازداد شوقه وعظم ولعُه وتوقه، وهذا سرّ إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة[441].

---

[438] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (302/3). روى البزار إسناده حسن.

[439] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (329/4).

[440] منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، ص95.

[441] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص853.

وفي قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾، من للتبعيض؛ لأنه لو قال "فاجعل أفئدة الناس" لانهال عليهم المسلمون من كل صوب حتى يعجز المكان عن استيعابهم، وفي الآية بشرى عمارة الحرم المكي وجعله آمناً، وانتشار الاسلام بين جميع أجناس الأرض ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وهو ما تحقق بالفعل[442].

وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ رقة ورفرفة، تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب، إنه تعبير نديّ يندى له الجدب برقّة القلوب[443].

وقيل عن "الأفئدة" جمع وفد، أي واجعل وفوداً من الناس تحن إليهم، وإلى زيارة البيت، فاستجاب الله دعاءه وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار بوما يجلب إليهم من الأمصار[444].

5- قوله تعالى: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾:

أيّ: ارزقهم من أنواع الثمار لعلهم يكونون من الشاكرين المعترفين بفضلك وإحسانك، وفيه دليل على أن تحصل منافع الدنيا إنما هو ليُستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات[445].

وقد أجاب الله دعاءه فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المكرمة كل وقت والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب[446].

---

[442] من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، د. زغلول النجار، (352/1).

[443] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2110/4).

[444] تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي، (373/9).

[445] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (330/4).

[446] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص853.

وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ هكذا يبرز السّياق هدف السكن بجوار البيت الحرام، إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله، ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض، إنه شكر الله المنعم الوهّاب، وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم، فلا صلاة قائمة لله، ولا شكر بعد استجابة الدعاء، وهويّ القلوب والثمرات[447].

ولا يخفى ما في دعاء إبراهيم (عليه السّلام) من مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة، ولهذا منّ الله عليه بحسن القول وإعطاء المسؤول ولا بِدع في ذلك من خليل الرحمان[448].

ويعقب إبراهيم (عليه السلام) على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله، حيث يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء، فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء، إنما هو توجه القلب إلى الله الذي يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء[449].

---

[447] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2110/4).

[448] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (330/4).

[449] في ظلال القرآن، سيد قطب، (2110/4).

رابعاً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:38]:

يبدو هذا التدفق الروحاني واضح في تكرار لفظ ﴿رَبَّنَا﴾ في بداية كل آية، فقد نادى ربه بضمير الجمع، فقال ﴿رَبَّنَا﴾ أي أنه ربّه وربّ ذريته وربّ الوجود كله، وأنه أعلم بحالهم سرهم وعلانيتهم، وأن العلم على سواء يستوي فيه المغيب والمعلن وما غاب وما حضر[450].

تعلم سرّنا كما تعلم علننا من الحاجات وغيرها وما سألناك هذه الحاجات لكونها غير معلومة لك، بل لإظهار افتقارنا إليك وتذللنا لعزتك[451].

يا ربنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما تسر وما تظهر ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، أي لا يغيب عليه تعالى شيء من الكائنات سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها؟ فإبراهيم (عليه السّلام) يثني على الله تعالى بما هو أهله ويعترف بأنه تعالى هو الذي يعلم عواقب الأحوال، ونهايات الأمور مستقبلاً، وكأنه بهذا الثناء يقول: أنت الأعلم بما تحفظ ابنيّ إسماعيل وإسحاق؛ لأنه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء[452]. فالله (سبحانه وتعالى) قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء[453].

---

[450] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4040/8).

[451] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (330/4).

[452] دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، 101.

[453] ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص333.

1- قول أبو حيان في تفسيره الآية:

كرر النداء للتضرع والالتجاء، ولا يظهر تفاوت بين إضافة رب إلى ياء المتكلم وبين إضافته إلى جمع المتكلم، وما نخفي وما نعلن عام فيما يخفونه وما يعلنونه، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن مما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكِلكم، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: لا نخشى تركتنا إلى كافٍ، والظاهر أن قوله: ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ من كلام إبراهيم لاكتناف ما قبله وما بعده من كلام إبراهيم ولما ذكر أنه تعالى عمم ما يخفي هو ومن كنى عنه تمم جميع الأشياء، وأنها غير خافية عنه (سبحانه وتعالى)[454].

وقيل: ﴿وَمَا يَخْفَى...﴾ الآية من كلام الله سبحانه تصديقاً لإبراهيم (عليه السلام)، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:34] بعد حكاية قول ملكة سبأ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل:34]، والذي يظهر لي أن قوله تعالى: ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هو تتمة لكلام إبراهيم (عليه السلام)، وقد التفت من الخطاب إلى الإخبار؛ لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم وعمومه[455].

2- قول الشوكاني في تفسيره الآية:

قال جمهور المفسرين: هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ من الأشياء الموجودة كائناً ما كان، وإنما ذكرت السماوات والأرض لأنها المشاهدة للعباد، وإلا فعلمه سبحانه

---

[454] البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (422/5).

[455] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (331/4).

محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية، قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقاً لقول الأول وتعميماً بعد التخصيص[456].

خامساً: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:39]:

ابتدأ كلامه بالحمد إشعاراً بشكر النعمة وتقديرها، إذ إن هذه الآيات من سورة إبراهيم (عليه السّلام) تحدثت عن آخر حياة إبراهيم بعد فراغه من بناء البيت وإقرار الله عينه برؤية أبنائه وذريته، ودعائه لهم بأن يكونوا ممن يقيم الصلاة، ويسلم من الشرك[457].

1- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

فيه معنى القصر، أي أن الحمد لله تعالى وحده، فهو مانح النعم ومُجريها وحده[458].

وعرّف ابن قيم الجوزية "الحمد" بأنه: إخبار عن محاسن المحمود مع حبّه وإجلاله وتعظيمه[459]، وإنَّ إبراهيم (عليه السلام) يحمد الله على نعمائه ويحمده كذلك على ما اتّصف به سبحانه من صفات الكمال والعظمة[460].

---

[456] فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1414هـ، (160/3).

[457] حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص475.

[458] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4042/8).

[459] بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (93/2).

[460] الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن فلمبان، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2016م، ص37.

2- ﴿الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾:

والوهب هو عطاء من الله بلا مقابل منك وكل الذرية هبة[461]، ولذا قال الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)﴾ [الشورى:49-50]، إنه يحمد الله ويشكره على وهبه إسماعيل وإسحاق ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ مع أنه كبير، وهذا يدلُّ على جلال الشعور بالنعمة، إن ذلك واضح أنه إكرام من الله بخرق الأسباب وإن شكر النعمة بذكر إسماعيل وإسحاق فيه معنى جليل؛ لأنهما ولدا أبي الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم (عليه السّلام)، فكأن النبوّة انحصرت في ذريته (عليه السلام)، كما يبدو من قصص القرآن الكريم الصادق في ذاته[462].

وإنما ذكر ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾؛ لأن المنّة بهبة الولد في هذا السن أعظم من حيث إن هذا الزمان زمن وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم (عليه السلام)[463].

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾: تفيد ﴿عَلَى﴾ الاستعلاء، فالكبر ضعف، ولكن إرادة الله أقوى من الضعف فقوله تعالى: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ..﴾ جعل قدرة الله في العطاء فوق الشيخوخة[464].

---

[461] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (7582/12).

[462] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4042/8).

[463] التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (262/9).

[464] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (7584/12).

وفي قوله: ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، قدم إسماعيل على إسحاق (عليهما السّلام) يدل على أن إسماعيل هو الأكبر[465].

ويعلّمنا إبراهيم (عليه السلام) الاعتراف بفضل الله ونعمائه علينا التي لا تحصى، والواجب أن تقابل بالحمد والشكر، وذلك بتسخيرها في طاعة الله، كما يعلّم البشرية ألا تتوقف عن الدعاء لله وألا تقنط من رحماته تعالى، وذلك بالتأكيد على أن الله سميع الدعاء[466].

3- ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾:

فالمراد بالسمع هنا: السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سبحانه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسمع الربّ تبارك وتعالى له إثباته على الثناء، وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا[467].

وقد أكد إبراهيم (عليه السلام) أن الله سميع الدعاء:

- أولاً: بالجملة الاسمية.
- ثانياً: بـ "إن" المؤكدة.
- ثالثاً: باللام في قوله ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وعبّر بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ فيه أيضاً شعور بالشكر الجزيل لربه، لأنه الذي ربّاه وكونه وقام على شئونه واستجاب دعاءه.

---

[465] حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص476.

[466] وإبراهيم الذي وفّى، فرحات بن علي الجّعبيري، ص100.

[467] بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (4/3).

لقد كان إبراهيم (عليه السلام) صورة سامية للفطرة الإنسانية، وأوضح هذه الفطرة حبّ الذرية والحدب عليها وإكرامها وتوجيهها إلى الحق وإلى عبادة الله تعالى ولذا قال الله تعالى على لسانه[468].

سادساً: قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم:40]:

يعود السّياق القرآني مرة أخرى لبيان أهمية إقامة الصلاة، واحتفاء سيدنا إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) بها فيقول:

1- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

﴿رَبِّ﴾: ويكرر هنا الاستعطاف والتذلل لله عزّ وجل للفظة ﴿رَبِّ﴾ هذه اللفظة التي تزيّن بداية كل آية، وكأنها مصباح يضيء الطريق أو يتيح الفرصة للمضيء – فيما سيرد من دعاء بعد ذلك – [469].

إنَّه النداء والدعاء إلى الله تعالى بوصف أنه ربّه الذي كونه وخلقه ورزقه، وهو المتصرف في حياته والمالك له والمدير لشؤونه يستغيث به ليعينه على طاعته.

وفي قوله: ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾: يطلب العون من الله على إقامة الصلاة فربه الذي غذّاه في بدنه وعموم أحواله وحاجاته البدنية، وأن يعينه على غذائه الروحي بعد غذائه الجسدي، أي صبرني وحولني ووجهني إلى أن أكون مقيم الصلاة، أي مؤدياً لها أداءً مقوماً مستقيماً كاملاً، بأن تكون أركانها

---

[468] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4043/8).

[469] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص241.

الحسية مستوفاة، ومنها الخشوع والخضوع المطلق والصلاة رمز إلى القيام بحق الدين كاملاً من غير التواء[470].

إنَّ إبراهيم (عليه السلام) يطلب من المولى عزّ وجل أن يكون مقيماً للصلاة رغم كونه نبياً، وهذا منهج تربوي عالٍ ولا شكَّ، فالمؤمن يجب ألا يغتر بنفسه ويزكيها بل عليه أن يتحرى الدّقة والصّواب في كل أعماله وأقواله[471].

وفي قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: لم يكتف بالدعاء لنفسه، بل أضاف إلى ذلك الدعاء لذريته، ولكن أشار إلى أنه سيكون من ذريته من لا يشكر الله تعالى ومن يعصيه ولذا قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ و"مِنْ" هنا للتبعيض، أي اجعل من ذريتي مقيم الصلاة؛ ليكون حبل العبادة متصلاً إلى يوم القيامة لا ينقطع التوحيد وإقامة شعائره، بل تتصل إلى يوم القيامة ومن ذريته قائمون على الحق يهتدون بهديه ويسيرون في طريق الحق، وهو الطريق المستقيم[472].

2- ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾

أي: تقبل دعائي وعبادتي وطاعتي وهو أدب رفيع مع الله تعالى يدعوه ويتذلل إليه، ثم يسأله أن يتقبله بفضله وكرمه وقد ظهر مثل هذا الأدب أيضاً في دعائه (عليه السلام) مع ولده إسماعيل عندما كانا يرفعان قواعه بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:127][473].

---

[470] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4044/8).

[471] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص241.

[472] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4044/8).

[473] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (332/4).

أ- قول الطبري في تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك وهذا نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: إنَّ الدعاء هو العبادة[474]، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:60][475].

ب- قول الشوكاني في تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾: ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أولياً قيل: والمراد بالدعاء هنا: العبادة فيكون المعنى: وتقبل عبادتي التي أعيدك بها[476].[477]

سابعاً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:41]:

إنَّ إبراهيم (عليه السلام) يمثل في شخصه النبويّ، الرجل الفطري المستقيم النفس في كل اتجاهاتها، وقد رأينا من فطرته أنه فكر في ذريته كما فكر في نفسه، والفطرة السليمة تجعله يذكر عند الخير أبويه كما ذكر ذريته، فقد كان إبراهيم (عليه السلام) متجهاً دائماً إلى مقام الربوبية فنادى ربه بالربوبية، وقد ذكرناها في ذلك من ضراعة المؤمن المقدر لنعمة الإيجاد والربوبية والقيام على شؤونه وأنه الحي القيوم القائم ما أنشأ من خلق، وهو اللطيف الخبير، ودعاه بالمغفرة، وابتدأ بنفسه أولاً، ثم ثنى بوالديه، وثلث

---

[474] مسند أحمد، (4/ 267، 271)، وسنن الترمذي، رقم (2969)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

[475] تفسير تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (235/13).

[476] فتح القدير، الشوكاني، (161/3).

[477] سنن الترمذي، رقم (2372)، حديث حسن صحيح.

بالمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، سـواء أكانوا من ذريته أم كانوا من غيرهم، فهو دعاء لعامة المؤمنين[478].

وكانت أدعية إبراهيم (عليه السّلام) عامة (جماعية)؛ لأنه نادى بالأخوة الإنسانية، وهي الأخوة القائمة على توحيد الله عزّ وجلن وإفراده بالعبادة وطاعة الله عزّ وجل وفق منهجه سبحانه وتعالى، وطلب إبراهيم (عليه السّلام) الغفران وستر الذنوب، ومحو السيئات، وقيام الحسنات، يوم يقوم الحساب، وهو يوم القيامة حيث يكون الحساب بأن يقوم كل إنسان ما قدم من خير، وقد كتب ما ارتكب من خير وشرّ، فهو يطلب من الله في هذا اليوم عفوه وتغليب مغفرته على عذابه، وذلك بالنسبة لوالديه وبالنسبة للمؤمنين[479].

قال أبو حيان – رحمه الله –: والظاهر أن إبراهيم سأل المغفرة لأبويه القريبين وكانت أمه مؤمنة، وكان والده لم ييأس من إيمانه ولم تتبين له عداوة الله، وهذا يتماشى إذا قلنا: إنَّ هذه الأدعية كانت في أوقات مختلفة، فجمع هنا أشياء مما كان دعا بها، وقيل أراد أمه ونوح (عليه السلام)، وقيل: آدم وحواء، والأظهر القول الأول، وقد جاء نصاً دعاؤه لأبيه بالمغفرة في قوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾[480].

1- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾:

أيّ اغفر لي ما فرط مني مما أراه ذنباً، وهذا يدلُّ على شدّة تواضع خليل الله (عليه السلام) لربّه، واتهامه لنفسه بالتقصير في حق شكر نعم الله تعالى عليه، وهذا الشعور كان يدفع نبينا محمداً ﷺ

---

[478] زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (4045/8).

[479] المرجع نفسه، أبو زهرة، (4045/8).

[480] البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسي، (423/5).

لمضاعفة عبادته وقيامه في الليل، فكان يقوم حتى ترم قدماه، ففي الحديث الشريف: عن المغيرة (رضي الله عنه) قال: إنْ كانَ النبيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ – أَوْ سَاقَاهُ – فيُقَالُ له، فيَقولُ: أَفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا [481].

2– ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾:

أيّ؛ اغفر لأمي وأبي، ويبدو أن أمه كانت مؤمنة، ووقع استغفاره لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، بإصراره على الكفر حتى الموت، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:114].

3– ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

أيّ؛ اغفر للمؤمنين كافة يوم القيامة عند وقوع الحساب، وسبق لنبي الله نوح (عليه السلام) سؤال المغفرة لجميع المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح:28]، وكان الشعبي – رحمه الله – يقول: ما يسرني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم (عليهما السلام) للمؤمنين والمؤمنات حُمُر النعم[482].

وهكذا ينتهي هذا المشهد العظيم، مشهد النبي الكريم إبراهيم (عليه الصلاة والسّلام) بعد أن يملا قلوبنا وأنفسنا بوحدانية لا يمكن أن يوفرها لنا، سوى أسلوب القرآن الكريم كلام رب العالمين، ذلك الأسلوب الذي احتوى على جرس قرآني نديّ عذب فضلاً عن رفعة المعنى[483].

---

[481] صحيح البخاري، رقم (1130).

[482] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (333/4).

[483] وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، سميرة عدلي محمد رزق، ص241.

ثامناً: إسماعيل (عليه السلام) في سورة مريم.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)﴾ [مريم: 52-55].

تفسير الآيات الكريمة:

1- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾:

أي: واذكر – أيها الرسول الكريم – لقومك خير جدّك إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) لكي يقتدوا به في صفاته الجليلة[484]، والتي منها ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ إذا وعد وعداً أوفى به ونفّذه، والصدق من أخصّ صفات إسماعيل (عليه السلام) وقد اشتهر به فجُعل وصف الصدق كاللقب له تشريفاً وإكراماً.

ومن أظهر الدلائل على صدق وعده موقفه من أبيه إبراهيم (عليه السلام) حينما قصّ عليه رؤياه التي رأى فيها أنّه يؤمر بذبحه، أي: إسماعيل، فأجاب (عليه السلام) بقوله: ﴿قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، فلم يجبن ولم يتخلّف، ولم يتراجع بل صدق في وعده[485]، وعندما قال لوالده: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾؛ لذلك استحقّ أن يميّزه ربّه بهذه الصفة ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، وقد استعدّ أن يُذبح حتّى نزل الفداء، كما قيل أنّه (عليه السلام) كان لا يُخالف ربّه شيئاً ممّا يعده به من طاعة وعبادة[486].

وقيل إنّه كان له مواعيد لله وللناس، فوفّى بالجميع، فلذلك خصّ بالصدق. وقيل: خُصّ بذلك تشريفاً له، وإكراماً، كالتلقيب نحو: الحليم، الأوّاه، الصدق[487].

---

[484] القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ص222.

[485] تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، دار النوادر، دمشق، سوريا، 2011م، ص219.

[486] تأملات في سورة مريم، المصدر السابق، ص219.

[487] البحر المحيط، (6/ 188).

أ- قال شيخ المفسّرين ابن جرير الطبري – رحمه الله –:

يقول تعالى في ذكره لنبيّه محمّد ﷺ: واذكر يا محمّد في الكتاب إسماعيل بن إبراهيم، فاقصص خبره، إنّه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف، ولكنّه كان إذا واعد ربّه، أو عبداً من عباده وعداً وفّى به[488].

ب- قال الرازي – رحمه الله –:

هذا الوعد يمكن أن يكون المراد به فيما بينه وبين الله تعالى، ويمكن أن يكون المراد بينه وبين الناس.

أمّا الأوّل: فهو أن يكون المراد أنّه كان لا يُخالف شيئاً ممّا يؤمر به من طاعة ربّه، وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشره، فلا بدّ من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك، ويدلّ على القيام بسائر ما يخصّه من العبادة.

وأمّا الثاني: فهو أنّه (عليه السلام) كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده، فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف[489].

وعن عبد الله بن عبّاس (رضي الله عنه) قال: أخبرني أبو سفيان أنّ هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنّه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف[490]، والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبيّ[491].

وصدق الوعد محمود، وهو من خلق النبيّين والمرسلين، وضدّه وهو الخلق مذموم، وذلك من أخلاق الفاسدين والمنافقين[492].

---

[488] جامع البيان، (16/ 95)، التدبّر والبيان، المعراوي، (20/ 328).

[489] مفاتيح الغيب، (21/ 232).

[490] العفاف/ الكف عن المحارم وخوارم المروءة.

[491] البخاري، رقم 2681، مسلم، رقم 1773.

[492] تفسير القرطبي، (11/ 77).

وعن المسور بن مخرمة، أنّ النبيّ ﷺ ذكر صهراً له[493] من بني عبد شمس، فأثنى عليه في مصاهرته إيّاه، قال: حدّثني فصدقني، ووعدني فوفّى لي.

قال النووي – رحمه الله –: وقد أجمع العلماء على أنّ من وعد إنساناً شيئاً ليس بمنهي عنه فينبغي أن يفي بوعده، وهل ذلك واجب أم مستحب؟ فيه خلاف بينهم. ذهب الشافعي وأبو حنيفة والجمهور إلى أنّه مستحب، فلو تركه، فاته الفضل، وارتكب المكروه كراهة تنزيه شديد، ولكن لا يأثم.

وذهب جماعة إلى أنّه واجب، قال الإمام أبو بكر بن العربي المالكي: أجلُّ من ذهب إلى هذا المذهب عمر بن عبد العزيز، قال: وذهبت المالكيّة مذهباً ثالثاً: أنّه إن ارتبط الوعد بسبب، كقوله: تزوّج ولك كذا، أو احلف أنك لا تشتمني ولك كذا، أو نحو ذلك، وجب الوفاء، وإن كان وعداً مطلقاً لم يجب[494].

قال الشنقيطي – رحمه الله –: بعد سرده لهذه الأحاديث: علم أنّ الذي يظهر لي في هذه المسألة، والله تعالى أعلم، أن خلاف الوعد لا يجوز، لكونه من علامات المنافقين، ولأنّ الله يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)﴾ [الصف: 3].

وظاهر عمومه يشمل إخلاف الوعد، ولكن الواعد إذا امتنع من إنجاز الوعد لا يحكم عليه به، ولا يلزم به جبراً، بل يؤمر به ولا يُجبر عليه؛ لأنّ أكثر علماء الأمّة على أنّه لا يجبر على الوفاء به لأنّه وعد بمعروف محض، والعلم عند الله تعالى[495].

قال القرطبي – رحمه الله –: ولا خلاف أنّ الوفاء يستحقّ صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخُلف: الذمُّ. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على صدق وعده ووفّى بنذره، وكفى به مدحاً وثناء، وبما خالفه ذمّاً[496].

---

[493] الصهر: القريب بالزوج ويوصف، يقال: هو صهري، جمع أصهار.

[494] صحيح الأذكار، النووي، (2/ 777- 778).

[495] أضواء البيان، (4/ 304- 305).

[496] تفسير القرطبي، (13/ 463- 465).

وصدق الوعد والوفاء من شرعة الله تعالى لإسماعيل، وهو من الأحكام الشرعية المهمّة حتّى يتحقّق النفع بالوفاء بالوعد وينتفي الضـــرر والإيذاء والفســـاد الذي ينجم عن إخلاف الوعد، وهو ما جاء في القرآن الكريم، وفي الســيرة النبويّة والأحاديث الشــريفة[497]. وهذا ممّا لا يُخالف به عاقل، ويؤدي إلى أثر محمود، وثقة في التعامل، ويورث المحبّة والصـــدق بين المتعاملين، وإنّ عدم الوفاء بالوعد من كثير من المســـلمين يُعطي صورة سيّئة، وسمعة فاسدة، بينما يحقق الوفاء بالوعد في الغرب اليوم في الجانب الاجتماعي فقط، أثراً محموداً ومعاملة صادقة[498].

2- ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾:

كان إسماعيل (عليه السلام) من رسل الله الذين نصّ القرآن عليهم ووصفهم بالنبوّة والرسالة معاً، كما في الآية المذكورة وهو نبيّ ووالده نبيّ، ولم تبيّن لنا النصوص الصحيحة تفاصيل دعوة إسماعيل (عليه السلام) والقوم الذين أُرســل إليهم، كما هو الحال مع جُلّ الأنبياء والرســل الذين نصّ عليهم القرآن الكريم، لكنّه وكما بيّن القرآن الكريم آنفاً وصـــف بأنّه كان رســولاً نبيّاً. ولا شــكّ أنّ هناك قوماً حمل إسماعيل (عليه السلام) رسالة الله لهم، وبلّغها إليهم[499].

وقد ذكر المؤرّخون أنّ إسماعيل (عليه الســـلام) قام بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، ورعاية بيت الله، والدعوة للحجّ، وبقي يرعى الأمانة بشجاعة وصبر وأمانة، وفي غضون ذلك بعثه الله رسولاً ونبيّاً إلى قومه من العماليق وقبائل اليمن من جرهم وغيرهم، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وحجّ بيته، وينهاهم عن الرذائل وعن عبادة الأصنام، فتبعه أناس كثيرون[500].

---

[497] موسوعة نضرة النعيم، مجموعة من الباحثين، 2018م، (11/ 5631)، شرعة الله للأنبياء، ص207.

[498] شرعة الله للأنبياء، ص207.

[499] تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين، دار الكتب العلمية، 2007م، ص 162.

[500] مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد عبد القادر أبو فارس، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2013م، ص279.

وقد نجحت دعوته في العرب واستمرّوا على دين التوحيد ورسالة إسماعيل التي هي امتداد لرسالة إبراهيم (عليه السلام)، ولم يحتاجوا إلى نبيّ حتّى بعثة محمّد ﷺ، وكان بينهما ما يُقارب من 2400 سنة، وقد انحرفوا عن دعوته (عليه السلام) في الأربع مائة سنة الأخيرة، في حين نجد أنّ هناك أعداداً كبيرة من الأنبياء بُعثوا في بني إسرائيل بعد إسحاق (عليه السلام)، وآخرهم عيسى (عليه السلام)[501].

أ- إسماعيل (عليه السلام) في موكب الأنبياء والمرسلين:

عرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الأنبياء والمرسلين من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيّين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، ويعرض السياق هذا الموكب ممتدّاً موصولاً، ولا يراعي التسلسل التاريخي في العرض، لأنّ المقصود هنا هذا الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي[502].

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)﴾ [الأنعام: 83-90].

---

[501] أضواء على القصص القرآني، بسام الجرار، ص67.

[502] في ظلال القرآن، (2/ 1144).

ب- تعاليم إسماعيل (عليه السلام) من عند الله:

تشمل هذه التعاليم رسالة إسماعيل (عليه السلام) التي تلقّاها من ربّخ (عزّ وجل) عن طريق الوحي، وقد ذكر الله إسماعيل (عليه السلام) في جملة من يوحي إليهم من النبيّين[503].

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)﴾ [النساء: 163-165].

ج- الحكمة من بعث الرسل:

ذكر العلماء الحكمة من بعث الرسل، فذكروا منها:

- حاجة الخلق إليهم.
- دعوة الناس إلى عبادة الله.
- إقامة الحجة على البشر بإرسال الرسل.
- حاجة الخلق للقدوة الحسنة.
- إصلاح النفوس وتزكيتها.
- الأنبياء هم الطريق لمعرفة العقائد الغيبيّة.
- تبليغ الشريعة الربانيّة.
- تبشير وتحذير العباد وغير ذلك من الحكم.

[503] الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرّسل، محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1997م، ص315.

وقد توسّعت في ذكر الحكمة من بعث الرسل في كتابي (إبراهيم عليه السلام خليل الله، داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة) [504].

د- النبيّ والرسول والنبوّة والرسالة:

- النبيّ ﷺ في الاصطلاح: هو من بعث لتقرير شرع من قبله[505].

فلا شكّ أنّه كان على شرعة وملّة إبراهيم (عليه السلام).

- الرسول في الاصطلاح: هو من بُعث بشرع جديد[506].

ويقول الإمام الشوكاني – رحمه الله – في تعريف النبيّ والرسول، الذي بيّن فيه الفرق بينهما، فالرسول: من بُعث بشرع وأمر بتبليغه. والنبيّ: من أُمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، ولم يُنزّل عليه كتاب، ولابدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة[507].

إذن فهناك فرق بين النبيّ والرسول منا تبيّن في تعريفهما الاصطلاحي. فالنبيّ جاء لتقرير شريعة من قبله، وأمّا الرسول فهو من اختصّ بشريعة جديدة، وكلّ رسول نبيّ[508]، وليس كلّ نبيّ رسولاً.

وإسماعيل (عليه السلام) هو نبيّ رسول، قد نبّأه الله تبارك وتعالى بخبر السماء، وأنزل عليه الوحي، كما أمره أن يدعو الناس، ويبلّغ رسالة ربّه، فقد أرسل إسماعيل إلى جرهم والعماليق وغيرهم، وقد عاش في رحاب بيت الله الحرام، بشريعة أبيه إبراهيم (عليه السلام)، ولا مانع من أن يُخاطب بالشريعة الواحدة رسولان[509].

---

[504] إبراهيم خليل الله، الصلابي، ص88 إلى 98.

[505] روح المعاني، الألوسي، (17/ 173).

[506] روح المعاني، المصدر السابق، (17، 173).

[507] فتح القدير، الشوكاني، (3/ 461).

[508] تنوّع خطاب القرآن الكريم في العهد المكّي، رجاء بنت صالح محمد البحر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط1، 2016م، ص245.

[509] زهرة التفاسير، ص4659.

وقد استدلّ بعضهم على عدد الرسل والأنبياء بالحديث المرويّ عن أبي ذرّ (رضي الله عنه) في ذكر عدد الأنبياء والرسل، ونصّه: عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وعشرون ألفاً، قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة عشر جمّاً غضّاً[510]، ولكنّ هذا الحديث ضعيف في إسناده[511].

والصحيح أنّ عدد الرسل والأنبياء لا يعلمه إلّا الله، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

هـ- حقيقة النبوّة:

إنَّ النبوّة اتصال بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه، وسفارة بين الملك المالك الواحد الأحد وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم - تبارك وتعالى- لخلقه؛ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهي نعمة مهداة من الله تبارك وتعالى إلى عبيده، وفضل إلهي يتفضّل به عليهم وهذا في حقّ المرسَل إليهم.

وأما في حق المرسِل نفسه فهي امتنان من الله يمنُّ بها عليه، واصطفاء من الربّ له من بين سائر الناس وهبة ربانية يختصه الله بها من بين الخلق كلهم، ولا تنال النبوة بعلم ولا رياضة ولا تدرك بكثرة طاعة أو عبادة. ولا تأتي بتجويع النفس أو إظمائها كما يظن من في عقله بلادة، وإنما هي محض فضل إلهي واصطفاء ربّاني، فهو جلّ وعلا كما أخبر عن نفسه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:105].

إنَّ النبوّة لا تأتي باختيار النبيّ، ولا تُنال بطلبه ولذلك لما قال المشركون: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:31]، فأجابهم الربّ تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ

[510] صحيح ابن حبّان، ك السير، رقم 361.

[511] في سنده إبراهيم بن هشام الغساني: كذاب.

رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف:32]، فالله تعالى هو الذي يقسم ذلك، ويتفضّل به على من يشاء من الناس، ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه، ما كانت الخيرة لأحد غيره، وما كان الاجتباء لأحد سواء[512].

وإنَّ الإيمان بالنبوّة هو الطريق المؤدي إلى معرفة الله عزَّ وجل ومحبته، والمسلك المفضي إلى رضوان الله وجنته، والسبيل المؤدّي إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بمغفرته[513].

يقول ابن تيمية: "والإيمان بالنبوّة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يُحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب"[514].

وإنَّ حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوّة أشدّ من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنسّمونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه، إذ من فقد أحد هؤلاء، خسر الدّنيا، أما من عُدم الإقرار بالنبوّة فخسارته أشدّ وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة عياذاً بالله تعالى، ولا شكّ أنَّ معرفة رسوله وطاعته يحتاجها كل مخلوق مكلّف، ومن حكمة الله تعالى أنه كلّما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنه (جلّ وعلا) يجعله سهلاً ميسراً غير ذي عوج[515].

وإن حاجة النّاس إلى معرفة النبوّة والإقرار بالرّسول، وضّحها المولى جلّ وعلا في كتابه توضيحاً أعظم من أن يُشرح هذا المقام، إذ الشرح يطول، يقول ابن تيمية: "فتقرير النُبوَّات من القرآن الكريم أعظم

---

[512] كتاب النبوّات، ابن تيمية، تح: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط1، 1420هـ، 2000م، مقدمة المحقق، (20/1).

[513] المرجع نفسه، (20/1)

[514] نوح عليه السلام والطوفان العظيم، د. علي محمد محمد الصّلّابي، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2020م، ص79.

[515] المرجع نفسه، ص79.

من أن يُشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبويّة، وينبوع كل خير، وجماع كل هدى" [516].

وإن لابن تيمية كلام رائع نفيسٌ يُجمل فيه ما قُدّم بيانه، يقول فيه: إن الله سبحانه جعل الرُّسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

- فالأصل الأول يتضمَّن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.
- والأصل الثاني يتضمّن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يُحبه الله وما يكرهه.
- والأصل الثالث يتضمّن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرّسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيها ومعرفة حقائقها، وإن كان يُدرك وجه الضرورة إليها، من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدى إلى تفاصيل المرض ووصف الدواء له، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبّ، فإن آخر ما يقدّر بعلم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا تُرجى الحياة معه أبداً، أو شقى شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتّباع الرسول[517].

---

[516] كتاب النبوّات، ابن تيمية، مقدمة المحقق، (21/1)

[517] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، 1412هـ، (19/96-97).

و- خصائص الأنبياء والمرسلين:

إنَّ الأنبياءَ (عليهم الصلاة والسلام) صفوة البشر وسادتهم، وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكنَّ الله (عزّ وجل) اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس، وخصّهم كذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقية البشر فيها، وهذه الخصائص لا تخرجهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عزّ وجل، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:11]، ولله (عزّ وجل) الحكمة البالغة في كون الأنبياء من البشر، فلو لم يكونوا كذلك لم يكن هناك مجال للاقتداء بهم والتأسّي بأحوالهم، وما خفي علينا من الحكم أكثر.

وقد تحدث بعض العلماء عن خصائص الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لعلنا نعرف لهم حقهم ونقدر لهم قدرهم، فنبذل لهم من الأدب والحب والولاء ما يستحقونه، وما يلزم ذلك من الاتّباع والتأسي بحياتهم وهديهم، وقبل ذكر هذه الخصائص فإنه يحسن أن نُلم ببعض لوازم بشرية الرّسل التي استنكرها كل قوم على نبيهم وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء:94].

وعجباً للقوم الكافرين كيف لم ينتبهوا لنعمة الله (عزّ وجل) بأن جعل الرسل بشراً من جنسهم، فجحدوا هذه النعمة واستغربوها مع ما فيها من اللطف والرفق بالعباد؛ حيث أرسل الله إليهم رسلاً من جنسهم؛ ليفقهوا عنهم ما يبلغونهم عن الله تعالى، ويتمكّنوا من القيام بما يُدعون إليه، ولو بُعث إلى الناس رسل من الملائكة أو من غير جنسهم لما استطاع الناس الفقه والأخذ عنهم، ولقالوا: هم من جنس غيرنا فلا نقبل ولا نفقه عنهم، فرجع الإعراض في الأول والآخر إلى الهوى نعوذ بالله.

- **ومن لوازم بشرية الرسل (عليهم الصلاة والسلام):**

- الاتّصاف بما تتصف به الطبيعة البشرية من كونهم جسداً يحتاجون إلى الطعام والشراب والنكاح، كما أن لهم أزواجاً وذرية وآباء وأمهات وأقارب.
- يصيبهم ما يصيب البشر من الأمراض والمكاره والسهو والنسيان والنوم.
- يرضون ويغضبون، ويفرحون ويحزنون.
- يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر؛ بل إنَّ الأنبياء أشدّ الناس بلاءً.
- لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله عزّ وجل.
- يقومون بأعمال البشر والأشغال التي يمارسها البشر، كالرّعي والتجارة وصناعة السيوف والدروع وغيرها من المهن البشرية.
- ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية ولا الربوبية بل هم عبيد الله تعالى، حققوا العبودية على أكمل وجه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم، واعتصموا بالله وحده وفوضوا أمورهم إليه.

ومع اشتراكهم مع البشر في صفة البشرية، فلقد حققوا الكمال البشري في أرقى صورة؛ لأن الله (عزّ وجل) اصطفاهم واجتباهم ورباهم على عينه، فجاءت قلوبهم أطهر البشر قلوباً، وعقولهم أزكى البشر عقولاً وقريحة، وأخلاقهم أكمل البشر وأزكاهم أخلاقاً، ومعرفتهم بربهم وعبادتهم له سبحانه أكمل البشر معرفة وعبودية وإيماناً، بل حتى في الصورة الظاهرة الخلفية كانوا أكمل البشر أجساماً وأجملهم صورة، وصدق الله العظيم: ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:124].

وهذه الصفات – السابق ذكرها – هي من مقتضيات البشرية التي يشتركون مع البشر فيها، ولكن الله عزّ وجل بعلمه الشامل وحكمته البالغة خصّ هؤلاء الصفوة من البشر بنعمة النبوة والرسالة، وخصّهم لأجلها بصفات وخصائص تفرّدوا بها عن سائر البشر وفُضّلوا عليهم واستحقوا من أجلها إجلال الناس

لهم، ومحبتهم إياهم وطاعتهم لهم، واتباعهم لمنهجهم وهديهم العام ووجب على كل قوم طاعة نبيّهم في شريعته الخاصة بهم [518]. ويمكن إجمال هذه الخصائص التي تفرّدوا بها عن سائر البشر فيما يأتي:

- **اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:**

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:75]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:110]، ويترتب على هذا الوحي أمور يتميزون بها عن الناس، مثل تكليم بعضهم لله عزّ وجل، ونزول الملائكة عليهم، وتعريف الله سبحانه لهم ببعض الغيوب الماضية أو المستقبلية، أو اطلاعه سبحانه لبعضهم على شيء من عالم الغيب، كما حصل ذلك للرسول ﷺ الإسراء والمعراج، وهذه أكبر وأعظم صفات الأنبياء التي تفردوا بها وأنعم الله سبحانه بها عليهم، وهذه الخاصية هي التي توجب على العباد طاعة أنبيائهم وقبول ما يأتون به ويأمرون وينهون؛ لأنه وحي من عند الله عزّ وجل أمر الأنبياء بإبلاغه للناس، وهذا بدوره يوجب على الناس توفير أنبيائهم وأقوالهم وتوجيهاتهم ويمنع من التقدم عليهم بقول أو فعل[519].

- **العِصمة:**

هذه خاصّيّة ثانية، انفرد بها الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) عن البشر، وهي من لوازم الوحي والرسالة التي أكرم الله سبحانه بها من أنبياءه، فجعلهم معصومين فيما يبلغونه للناس من العقائد والأحكام، ولو وقع أحدهم في خطأ قولي أو عملي، فمن لوازم العصمة أن الله عزّ وجل لا يقرّه على هذا الخطأ في وقته ويفيء النبي في ذلك بأسرع وقت؛ ويكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل وقوعه في الذنب أو الخطأ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: واعلم أنَّ المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي

[518] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (30/3).

[519] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (30/3).

نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب، حتى حرفوا نصـــوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم ورفع درجاتهم بذلك، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضـــافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها، هؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتدياً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[520].

والذي يعنينا هنا، هو عصمة منهجهم وهديهم؛ لأنه وحي من الله عزّ وجل، وهذا يكفل لسالكه السلامة من الخلل والانحراف ويضمن له النجاة والفوز والتمكين؛ لأنه منهج معصوم لا يعتريه ما يعتري المناهج البشرية من خلل وقصور وانحراف، وينبغي قبل أن ننهي الحديث حول هذه المسألة التنبيه على مسألتين مهمّتين:

- **الأولى**: وجوب التأدب مع أنبياء الله (عزّ وجل) ومعرفة حقهم وبالأخص مع من بدر منه بعض الأخطاء التي لم يقرّهم الله (عزّ وجل) عليها، بل وفقهم لتركها والتوبة منها، حيث إن هذا لا ينافي عصـــمتهم ولا ينقص من قدرهم وكمالهم لأن الله عزّ وجل تاب عليهم واجتباهم وهداهم، ومن ذلك قوله ﷺ عن نبي الله يونس عليه الصـــلاة والســـلام: لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى[521]. فالحذر الحذر من تنقصهم وإساءة الظن بهم.
- **الثانية**: الحذر من الروايات الإسرائيلية التي يرويها كثير من المفسرين في قصص الأنبياء في القرآن وما في بعضها من إساءة الظن والأدب بأنبياء الله ورسله ومنافاتها لعصمتهم مع أنه لا أصل لها،

---

[520] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (150/15).

[521] صحيح البخاري، رقم (3395). ويُنظر: صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م. رقم (2377).

فهي مردودة سنداً ومتناً، فجميع الأخبار الماضية لا نقبل منها في تفسير القرآن إلا ما جاء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة وما سواهما فمردود ومرفوض لأنه رجم بالغيب [522].

ويقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالى –: "وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله (عزَّ وجلَّ) يقينيّة، وتلك أمور لا تصدّق ولا تكذب فلا يمكن اتفاقهما [523].

- **تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:**

عن أنس (رضي الله عنه) في حديث الإسراء: "والنبي نائمة عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم" [524].

وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: إنّا معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا [525]، ويَنبَني على هذه الخاصّيّة أن رؤيا الأنبياء حقّ ووحي يُتّبع [526].

---

[522] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (32/3).

[523] تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (130/2).

[524] صحيح البخاري، ك المناقب، رقم (3570).

[525] الطبقات، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي للطباعة، القاهرة، ط1، 1421هـ، 2001م، (171/1)؛ ويُنظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1415هـ – 1995م، رقم (1705).

[526] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (33/3).

- **تخييرهم عند الموت:**

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من نبيّ يمرض إلا خُيّر بين الدنيا والآخرة"[527]، وسُمع النبي ﷺ في شكواه التي قُبض فيها يقول: "مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين"[528].

- **يُقبر النبي حيث يموت:**

صحّ عنه ﷺ قوله: "لم يُقبر نبيّ إلا حيث يموت"[529]، ولهذا فإن الصحابة (رضي الله عنهم) دفنوا الرّسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قُبض [530].

- **لا تأكل الأرض أجسادهم:**

أكرم الله (عزّ وجل) أنبيائه ورسله (عليهم الصلاة والسلام)، فمهما طال الزّمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البَلى، وهذا قد ثبت عنه ﷺ في قوله: "إنَّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"[531].

---

[527] صحيح البخاري، رقم (4586).

[528] المرجع نفسه، رقم (4586).

[529] صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، رقم (5201).

[530] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (34/3).

[531] صحيح سنن أبي داود، الألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1419هـ، 1998م، رقم (925).

- **أحياء في قبورهم:**

صحّ عنه ﷺ أنه قال: "الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون"[532]، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: "مررت على موسى ليلة أُسريَ بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره [533].

وأمّا عن كيفية هذه الحياة، فهذا أمر غيبيّ لا مجال للعقل فيه، فما دام أنه صح عن رسول الله عليه وسلم فيجب الإيمان به من غير تكييف، ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم، ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضرّون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ..﴾ [يونس:106].

- **لا يورثون بعد موتهم:**

قال رسول الله ﷺ: "إنّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركت مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة"[534].

والروايات التي عند الإمامين البخاري ومسلم ليس فيها: إنّا [535]، معشر الأنبياء وإنما هي بلفظ: لا نورث ما تركنا صدقة، وقال الإمام ابن حجر رحمه الله بعد شرحه لهذا الحديث: وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ "نحن"، لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عُيينة عن أبي الزناد بلفظ: "إنّا معاشر الأنبياء لا نورث"[536]، أُخرج الحديث عن محمد بن منصور عن ابن عُيينة، وهو كذلك في مسند الحميدي

---

[532] سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (621).

[533] صحيح مسلم، ك الفضائل، رقم (2375).

[534] مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2008م، رقم (9973).

[535] صحيح البخاري، رقم (1757).

[536] مسند أحمد، إسناده صحيح، رقم (9973).

عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه، وأورده الهيثم بن كُليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور، وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور، وأخرجه الدارقطني في العلل من رواية أُم هانئ عن فاطمة عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنهما) بلفظ: إنَّ الأنبياء لا يورثون.

قال ابن بطّال وغيره: ووجّه ذلك – والله أعلم – أنَّ الله بعثهم مبلغين رسالته وأمرهم أن لا يأخذوا على ذلك أجراً كما قال تعالى: ﴿... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا..﴾ [الشورى:23]، وقال نوح وهود وغيرهما نحو ذلك، فكانت الحكمة في أن لا يورثوا لئلا يظن أنهم جمعوا المال لورثتهم، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:16] حمله أهل العلم بالتأويل على العلم والحكمة وكذا قول زكريا ﴿... فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي..﴾ [مريم:5-6]، وقد حكى ابن عبد البرّ أن للعلماء في ذلك قولين: وأن الأكثر على أن الأنبياء لا يورّثون [537].

وقال الساعاتي – رحمه الله تعالى – في الفتح الربّاني: قال العلماء: والحكمة في أنهم (عليهم الصلاة والسلام) لا يورّثون أنهم لو ورّثوا لظُنّ أن لهم رغبة في الدنيا لوارثهم، فيهلك الظانّ، أو لئلا يتمنى ورثتهم موتهم فيهلكون، أو لأن النبي ﷺ كالأب لأمته، فيكون ميراثه الجميع وهو معنى الصدقة العامة [538].

- **إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالاته:**

لقد أكرم الله (عزّ وجل) أنبياءه ورسله وخصّهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، فخصّهم الله بأخلاق سامية وآداب

---

[537] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (8/12).

[538] الفتح الربّاني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفيق علي وهبة، المكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2014م، (192/15).

عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صـــحيحة[539]، وقد ظهرت عناية الله (عزّ وجل) بنبيّه إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وتهيئته للرسالة وتأييده له كما ستبيّن ذلك بإذن الله تعالى في هذا الكتاب.

ز- دين الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام واحد، ودعوتهم واحدة:

-الإيمان بالأنبياء والمرسلين من أركان الإيمان:

يُعدُّ الإيمان بأنبياء الله ورسله ركناً من أركان الإيمان، فلا يتحقق إيمان العبد حتى يؤمن بجميع الأنبياء ويصـدّق بأن الله تعالى أرسـلهم لهداية البشـر وإرشـاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنّهم بلغوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة، وأدّوا الأمانة ونصحوا الأمّة وجاهدوا في الله حقّ جهاده.

قال تعالى: ﴿آَمَنَ الرَّسُـولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُـلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِـيرُ﴾ [البقرة:285]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:177]، ومن السـنة قول النبي ﷺ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسـله وتؤمن بالبعث"[540]، ولا بدَّ في الإيمان أن يؤمن العبد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله وكل كتاب أنزله [541].

ولا يتمُّ الإيمان بأنبياء الله (عزَّ وجل) حتى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصـر من قصّـهم الله علينا ومن لم يقصُصهم، فقد أخبرنا الله (جلّ وعلا) أن هناك أنبياء لم يقصُصهم علينا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ

---

[539] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (36/3).

[540] صحيح البخاري، رقم 48.

[541] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الرياض، 1405هـ، 1985م، ص117.

قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:78]، قال ابن تيمية: فنؤمن بما سمّى الله في كتابه من رُسُله، ونؤمن بأن الله سوّاهم رسلاً وأنبياء ولا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، ونؤمن بمحمد ﷺ وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائباً على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أدّيت الفرائض، وأحللت الحلال وحرّمت الحرام، ووُفقت عند الشُّبهات، وسارعت في الخيرات [542].

وقال أيضاً: من أطاع رسولاً واحداً فقط، فقد أطاع جميع الرّسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم، فقد عصى الجميع، ومن كذّب واحداً منهم فقد كذَب الجميع؛ لأنَّ كل رسول يصدق الآخر، ويقول: إنّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذّب رسولاً فقد كذّب الذي صدّقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته[543].

- **الإسلام دين الأنبياء جميعاً:**

قال الله (عزّ وجل): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25].

إنَّ الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، فمنذ أن أهبط آدم عليه الصلاة والسلام ودينه الإسلام ودعوته إلى الإسلام الذي هو الاستسلام لله عزّ وجل وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، ثم استمر الإسلام في ذريته عشرة قرون حتى ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح، فبعث الله نبيّه نوحاً (عليه السّلام)

---

[542] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (313/7).

[543] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (180/19).

بالإسلام، ثم بعث الله عزّ وجل رسله تَتْرى مُبلغةً دين الإسلام إلى أقوامهم كلما ظهر الشرك وانطفأت أنوار الإسلام[544].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:19].

إذن، فإن دين الإسلام وتاريخ الإسلام معناه العام وجد مع وجود الإنسان على هذه الأرض، وهو دين الأنبياء جميعاً، أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث به محمد ﷺ جامعاً فيه بين الإسلام العام – الذي هو التوحيد ونبذ الشرك – وبين الأحكام الشرعية لهذه الأمة، حيث أحلّ لها الحلال وحرّم عليها الحرام، ووضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على من قبلها، فجاءت شريعة كاملة ميسرة شاملة خاتمة للشرائع صالحة لكل زمان ومكان، وهذا معنى قوله ﷺ: "أنا أوْلى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعَلّات، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد"[545].

حيث يوضح هذا الحديث أن الأنبياء كالأبناء لأمهات شتّى وأب واحد، وذلك لاتفاقهم في التوحيد والإسلام وأصول الإيمان والأخلاق واختلافهم في الشرائع [546].

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: وهذا الدين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام، قال تعالى عن نوح: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس:71] إلى قوله: ﴿..وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:72]، وقال عن إبراهيم: ﴿وَمَنْ

---

[544] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (41/3).

[545] صحيح البخاري، ك الأنبياء، رقم 3443.

[546] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (42/3).

يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ..﴾ [البقرة:130] إلى قوله:﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131] إلى قوله: ﴿..فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:132]، وقال عن موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس:84]، وقال في حواري المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:111]، وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿... يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة:44]، وقال عن بلقيس أنّها قالت: ﴿... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:44].

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة كان في كل من الفعلين حين الأمر به داخلاً في الإسلام، فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين وإنما تنوع بعض صور الفعل – وهو وجهة المصلي– فكذلك الرسل، وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك، فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد [547].

ويقول الشيخ عمر الأشقر – رحمه الله –: إنَّ الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعاً منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير، ولذلك فإنها تمثل صراطاً واحداً يسلكه السابق واللاحق، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن، نجد أنَّ الدين الذي دعت إليه الرّسل جميعاً هو الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ..﴾ [آل عمران]، والإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم

[547] التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، المؤلف: فالح بن مهدي آل مهدي الدوسري، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط3، 1413هـ، ص 322.

للدّين المشـــترك الذي هتف به كلّ الأنبياء، فنوح يقول لقومه: ﴿..وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ﴾ [يونس:72].

والإسـلام هو الدّين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْـلِمْ قَالَ أَسْـلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131]، ويوصّـــي كل من إبراهيم ويعقوب وأبناءه قائلاً: ﴿... فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْـــلِمُونَ﴾ [البقرة:132]، وأبناء يعقوب يُجيبون أباهم: ﴿... نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ﴾ [البقرة:133]، وموســى يقول لقومه: ﴿... يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْـــلِمِينَ﴾ [يونس:84]، والحواريّون يقولون لعيســى: ﴿... آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْـهَدْ بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ﴾ [آل عمران:52]، وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن: ﴿... قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:53]، فالإسلام شعارٌ عام كان يدور على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمّدية[548].

- **أول عقيدة في الأرض هي التوحيد:**

هذه الحقيقة، حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإســـلام القائم على توحيد الربوبية والقوامة لله وحده، وقد بيّنت ذلك في كتابي قصـــة بدء الخلق وآدم (عليه السّـــلام)، وكتاب نوح (عليه السّـلام) والطوفان العظيم، وإنَّ الحجج الدامغة والبراهين السـاطعة والأدلة الثابتة ترفض كل ما يخبط فيه من يسـمُّون "علماء الأديان المقارنة"، فهؤلاء وغيرهم من التطوّريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصـفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة، سـبقته أطوار شـتّى من التعدّد والتثنية للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشـموس والكواكب.. إلى آخر ما تأتي له هذه الدراسـات المغرضـة، والتي تقوم ابتداءً على منهج موجّه بعوامل تاريخية ونفسـيّة وسـياسـية معينة، حيث يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان

[548] الرّسل والرّسالات، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، لبنان. دار النفائس، الكويت، ط4، 1410هـ، 1989م، ص243.

السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أنَّ الأديان من صنع البشر، وأنَّها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان [549].

وإنّه حينما يتقرر أن دعوة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) هي دعوة واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله (عزّ وجل) وتوحيده – فإننا نقصد ذلك المفهوم الشامل للتوحيد والعبادة– ألا وهو إخراج الناس من العبودية والدينونة لغير الله إلى الدينونة لله وحده بكل شمولها، وليس مجرد أن يوحّد الناس بألسنتهم أو أن يتوجهوا إلى الله سبحانه شعائر التعبد الظاهرة فقط، ثم تبقى قلوبهم ومصادر تلقّيهم وتشريعاتهم إلى غير الله (عزّ وجل).

إنَّ مهمة الرّسل في رسالتهم ودعوتهم أشمل من هذا المفهوم القاصر للتوحيد والإيمان، ولو كانت الدعوة إلى التوحيد بهذا المفهوم القاصر لما استحقت كل هذه الجهود المضنية والتضحيات الباهظة من أنبياء الله عزّ وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام [550].

- **دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة خالصة:**

نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول، وفي كل رسالة دعوة توحيد العبادة والعبودية لله المتمثّلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿... قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..﴾، ولقد كنا دائماً نفسّر "العبادة" لله وحده بأنها "الدينونة الشاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة"، ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي، فإن "عبد" معناها: دان وخضع وذل، وطريق معبّد: طريق مذلّل ممهّد، وعبّده: جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً، ولم يكن العربيّ الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر

---

[549] في ظلال القرآن، سيد قطب، (1882/3).

[550] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (45/3).

التعبُديّة، بل إنَّه يوم خوطب به أول مرة في مكة، لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبديّة، إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله، وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره.

إنَّ توحيدَ الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس، والدينونة الشاملة، هو التوحيد الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مرِّ الأزمان؛ ذلك ليس لأنَّ الله سبحانه في حاجة إليه، فهو سبحانه غنيّ عن العالمين، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة "بالإنسان"، إلا بهذا التوحيد الذي لا حدّ لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها [551].

من كل ما سبق، يتأكد لنا أنَّ دين الأنبياء (عليهم السلام) واحد، وبأنَّ دعوتهم واحدة، أنّها دعوة الإسلام، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، كما أن هناك أموراً أخرى اتفقت عليها جميع الأديان والرّسالات ودعت إليها، ألا وهي الأخلاق والقيم التي فطر الله الناس عليها، حيث نجد الدعوة إليها والمحافظة عليها ونبذ ما يخالفها موجود في كل رسالة، وقد تضمنتها دعوة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، ولا يمكن أن تتغير ولا يعتريها تبديل ولا نسخ مثلها، مثل التوحيد وأصول الإيمان، وكذلك برّ الوالدين، وتحريم الفواحش والظلم، وقتل النفس بغير حق، والإحسان إلى اليتيم، والقسط بين الناس، وتحريم الكبر والفجر، والحثّ على الكرم والوفاء، وتحريم الغدر والخيانة [552].

---

[551] في ظلال القرآن، سيد قطب، باختصار، (3/1902-1903).

[552] وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (3/47).

- **الاتفاق في الأصول والخلاف في الفروع:**

وفيما عدا أصول الإيمان والقيم الثابتة، جعل الله (عزّ وجل) لكل رسول شريعة خاصة به لقومه، شاملة وكاملة في وقتها لأهلها، وقد تختلف هذه الشرائع من نبيّ لآخر، وقد يتفق بعضها، حتى ختم الله سبحانه جميع الشرائع بما أنزل على محمد ﷺ من الشريعة الكاملة الشاملة التي كتب الله عزّ وجل لها الخلود والقيام بمصالح العباد في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا هو المعنى المأخوذ من قوله تعالى: ﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:48]، ومعناه: لكل أهل ملة منكم أيها الأمم جعلنا شرعةً ومنهاجاً [553].

ويرى الشيخ عبد الرازق عفيفي (رحمه الله تعالى) بخصوص اختلاف الشرائع واكتمالها في شرعة نبينا محمد ﷺ: أنَّ من تمام رحمة الله بعبادة ونعمته عليهم، وكمال حكمته في إقامة الحجة والأعذار إلى من سبق عليه القول منهم، أن جعل شريعة كل رسول من رسله شاملة لكل ما تحتاجه أمته، وجامعة لكل ما يُصلح شأنها، وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أوَدها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلى في جميع شؤونها، سعيدة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: "إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم عن شر ما يعلمه لهم[554].

وكذلك، فقد تضمنت فوق ذلك ما يُكمل الضروريات والحاجيات والتحسينيات على خير حال وأقوم طريق... والأمم الماضية لما كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وكان الوحي مستمراً، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدريج في الأحكام، وكان كثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتاً، فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئةً للأمة وتربيةً لها وسداً لحاجتها، أو عقوبةً لها على ظلمها للأمة وتمرّدها على شرائع ربّها، قال تعالى في رسالة عيسى (عليه

---

[553] تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، (385/10).

[554] صحيح مسلم، ك الإمارة، رقم (1848).

الصــلاة والســلام): ﴿وَمُصَــدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..﴾ [آل عمران:50].

وقال الله تعالى في محمد (عليه الصلاة والسلام): ﴿..وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُــولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَــعُ عَنْهُمْ إِصْــرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَــرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)﴾ [الأعراف:156-157].

وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (160) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161)﴾ [النساء:160-161].

وأما هذه الأمة المحمّدية فشريعتها خاتمة الشرائع ورسولها خاتم الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا نبيّ بعده، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلى يوم القيامة، كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، منظِمةً لنواحي حياتهم المختلفة، مُغنيةً لهم عمّا ســواها في جميع أمورهم وشــؤونهم، ولو طال بهم الأمد واختلفت أحوالهم على مرّ الأيام والعصور حضارةً وثقافةً، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوةً، وحالتهم قوةً وضعفاً وغنىً وفقراً[555].

[555] الحكمة من إرسال الرّسل، عبد الرازق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط2،1420هـ، 1999م، ص. ص30-32.

3- ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾:

وفي هذه الآية ذكر لأهم ركنين من أركان الشريعة التي جاء بها إسماعيل (عليه السلام) الصلاة والزكاة، هذان الركنان الأساسيّان كان يأمر إسماعيل أهله خاصة وقومه عامّة بأدائهما، والمراد بهما: العبادتان الشرعيّتان، وخُص هاتان العبادتان؛ لأنّهما أمّا العبادات الروحيّة والماليّة[556].

وقد قرن القرآن الزكاة مع الصلاة في آيات كثيرة، وهي كما قلنا عبادة ماليّة، ولها وظائف إيمانيّة، وأخلاقيّة، ونفسيّة، وتربويّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، وروحيّة، وغيرها[557].

فكان إسماعيل (عليه السلام) يأمر أهله بالصلاة والزكاة، والمراد من أهله: يعني أمّته، قال الحسن، وقال ابن مسعود (رضة الله عنه): وكان قوم إسماعيل (عليه السلام) لا يعدون أهله: أمّه وبنية وأصهاره من جرهم، ثمّ إنّ أمّة العرب نشأت من ذرّيته فهم أهله أيضاً، وكان إسماعيل اشترك مع بنيه في بناء الكعبة المشرّفة كما سبق، وفي قبلة المصلّين من أرجاء المعمورة وطوال الدهر[558].

فمن أراد أن يتّصف بصفة من صفات النبوّة، فعليه أن يأمر أهله بالصلاة والزكاة، والأهل هم البيئة المباشرة التي إن صلحت للرجل صَلُح له بيته وصلحت له ذرّيته، فإذا كان الرجل يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرّات في اليوم والليلة، فإنّه يسدّ الطريق على الشيطان، فليس له مجال في بيت يُصلّي أهله الخمس صلوات[559].

ولذلك ذكر المولى (عزّ وجل) إسماعيل (عليه السلام) بالثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلّة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربّه آمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132)﴾ [طه: 132]. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

---

[556] تأملات في سورة مريم، ص21.

[557] شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة، ص209م.

[558] شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة، المصدر السابق، ص210.

[559] تفسير الشعراوي، (15/ 9125).

آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)﴾ [التحريم: 6]؛ أي: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة[560].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلّيا، أو صلّى ركعتين جميعاً كُتبا في الذاكرين والذاكرات[561].

والصلاة بناء عجيب، رُكّب من القيام والقراءة والركوع والسجود، فكلّ ركن من الصلاة بمنزلة لَبِن، وخشبة في البناء، فكما أنّ الجنّة قصورها لَبنة من ذهب، ولبنة من فضّة وملاطها[562] المسك، فالصلاة بناؤها لبنة من قيام، ولبنة من قراءة، ولبنة من ركوع، ولبنة من سجود، وملاطها التسبيح والتحميد والتهليل، ثمّ هذه الجملة بمنزلة الصورة، والإخلاص بمنزلة الروح، فروح الصلاة الإخلاص لله ربّ العالمين. إنّ الصلاة فيها استعمال جميع ما أعطاه الله تعالى للعبد في مرضاته سبحانه وتعالى ممن بدنه، ركوع وسجود وقيام، ومن باطن العبد من الإخلاص والخشوع والخضوع والانقياد والتذلّل لله تعالى، إذ كلّ ذلك نعمة من الله تعالى، واستعمال نعمة من المنعم في طاعته في غاية الحسن لا يخفى على عاقل أنصف من عقله[563].

هذا مبحث نفيس في فضل الصلاة وعظم منزلتها وجدته في التدبّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن عند تفسير الآية الكريمة المتعلّقة بإسماعيل (عليه السلام)، فرأيت تضمينه في كتاب إسماعيل للفائدة.

---

[560] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 239- 240).

[561] سنن أبي داود، رقم 1309، ابن حيان، رقم 2569.

[562] الملاط: الذي يملط بالطين.

[563] محاسن الإسلام والشرائع، أبي عبد الله محمد البخاري، ص70.

– فضل الصلاة وعظم منزلتها:

قال الإمام محمد بن نصر المروزي : فلا نعمة أعظم على المؤمنين بالله من نعمة الإيمان، والخضوع لربوبيته، ثم النعمة الأخرى ما افترض عليهم من الصلاة خضوعاً لجلاله، وخشوعاً لعظمته، وتواضعاً لكبريائه، ولم يفترض عليهم بعد توحيده، والتصديق برسله، وما جاء من عنده فريضة أوَّلَ من الصلاة، وأخبر أنّ ذلك أمرُهُ لهم، وللأنبياء والأمم قبل أن يبعث محمداً ﷺ؛ فقال (عزّ وجل) : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)﴾ [البينة: 1-5].

فجعل أوّل فريضة نصّها بالتسمية بعد الإخلاص بالعبادة لله: الصلاة، وقال (عزّ وجل): ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ (5)﴾ [التوبة: 5]. وقال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 11]. وبنظير ذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ ... وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم من قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، فقوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾؛ خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[564].

وقال – رحمه الله –: ومما دل الله تعالى به على تعظيم قدر الصلاة ومباينتها على سائر الأعمال إيجابُه إياها على أنبيائه ورسله، وإخباره عن تعظيمهم إياها، فمن ذلك أنه (جل وعز) قرّب موسى نجيّا، وكلّمه تكليماً، فكان أوّل ما افترض عليه بعد افتراضه عليه عيادته؛ إقامُ الصلاة، ولم ينص له فريضة غيرها،

[564] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 85- 87).

فقال (تبارك وتعالى) مخاطباً لموسى بكلماته ليس بينه وبينه ترجمان: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)﴾ [طه: 13-14]، فدلّ ذلك على عظم قدر الصلاة وفضلها على سائر الأعمال، إذ لم يبدئ مناجيه وكليمه بفريضة أوّل منها، ثم ما أخبر عن سحرة فرعون بعد شركهم وعنادهم إذ يحلفون بعزة فرعون متّخذين إلهاً من دون الله، ولم يأتهم رسول قبل ذلك، ولا سمعوا كتاباً، فلما أراهم موسى الآية حين ألقى عصاه فقلبها الله حيّة تسعى، فالتقفت حبالهم وعصيّهم، فعلموا أنّ ذلك ليس بسحر ولا يشبهه فعل بني آدم؛ انقادوا للإيمان بالله (عزّ وجل)، فلم يلهموا طاعة يرجعون بها إلى الله ويترضونه بها ظناً أن يغفر لهم عمّا كان منهم إلا السجود، وهو أعظم الصلاة، قال الله (عزّ وجل): ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47)﴾ [الشعراء: 46-47]. فَعَفَّرُوا وجوههم لله في التراب خضوعاً له، فلم يجعل الله لهم مفزعاً إلا إلى الصلاة مع الإيمان به، وهي مفزع كل منيب.

ثمّ كان من أول ما أمر به موسى أن يأمر بني إسرائيل بعد أن آمنوا به الصلاة، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)﴾ [يونس: 87].

وحكى عن عيسى (عليه السلام) حين تكلّم في المهد صبيا أنه قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31)﴾ [مريم: 30-31].

وحكى عن إبراهيم خليله أنه لما ذهب بإسماعيل (صلى الله عليهما وسلم) فأسكنه بواد ليس به أنيس، دعا ربه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: 37]. ولم يذكر عملاً غير الصلاة، فدلّ ذلك أنّه لا عمل أفضل من الصلاة، ولا يوازيها، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26)﴾ [الحج: 26]. وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا

نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ (55)﴾ [مريم: 54-55]. وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)﴾ [الأنبياء: 72-73]. وقال في قصّة زكريا: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]. وقال: ﴿يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)﴾ [آل عمران: 43].

ثم داود نبي الله وصفيّه لما أصاب الخطيئة وأراد التوبة لم يجد لتوبته مفزعاً إلا إلى الصلاة، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24)﴾ [ص: 24]. ثمّ سليمان بن داود عرض الخيل بالعشي فأشغله النظر إليها عن صلاة العصر حتّى تأخّر وقتها، فأسف وندم، فعاقب نفسه بأن حرمها الخيل التي أشغلته حتى جاوز وقت صلاته، فاعترضها يُعرقبها عقوبةً لنفسه، ليُغم عليها بدلاً من لهوه بها حين اعترضها، فألهاه النظر إلى حسنها وسرعة سيرها، فلمّا عاقب نفسه بتضريبه أعناق الخيل شكر الله له ذلك، فعوضه من الخيل الريح، أسرع في السير، وأوطأ في الركوب من فوقها، وأشرف في القدر، وأرفع في المنزلة، وأعجب في الأحدوثة. وقال الله في قصّة يونس حين التقمه الحوت: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)﴾ [الصافات: 143-144].

وقال في قصة شعيب لما نهى قومه عن عبادة غير الله، ونهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن فقالوا : ﴿يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا (87)﴾ [هود: 87]، وفي ذلك دليل على أنهم لم يكونوا يرونه يعظّم شيئًا من الأعمال تعظيم الصلاة، قال الله : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي (12)﴾ [المائدة: 12] ثمّ ذكر (عزّ وجل) الأنبياء نبيّاً نبيّاً، فوصفهم ثمّ قال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (58)﴾ [مريم: 58]. فأخبر عن جميع الأنبياء أنّ مفزعهم كان إلى الصلاة،

يعبدون الله، ويتقرّبون إليه بها، ثمّ قال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)﴾ [مريم: 59][565].

وقال – رحمه الله –: ثمّ وكّدها الله في الوجوب بفرضها بنصّ التنزيل، فقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)﴾ [النساء: 103][566]. قال: ثم توعد بالعذاب من أضاعها، أو سها عنها فصلاها في غير وقتها، أو راءى بها فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6)﴾ [الماعون: 4-6][567]. وحكى عن الكفّار أنّهم لما سئلوا بعد دخولهم النار فقيل لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43)﴾ [المدثر: 42-43]؛ فلم يذكروا شيئًا من الأعمال عُذّبوا عليها قبل تركهم الصلاة، وقال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9)﴾ [المنافقون: 9][568]. وقال الله (تبارك وتعالى) فيما يوبّخ به الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31)﴾ [القيامة: 31]؛ ولم يضم إلى التصديق شيئاً غير الصلاة ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32)﴾ [القيامة: 32]؛ فالكذب ضد التصديق، والتولّي ترك الصلاة وغيرها من الفرائض، ثمّ أوعده وعيداً بعد وعيد، فقال: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35)﴾ [القيامة: 34-35]، ويقال: إنها نزلت في أبي جهل[569]. وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49)﴾ [المرسلات: 48-49].

---

[565] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 96- 113).

[566] تعظيم قدر الصلاة، المصدر السابق، (1/ 117- 118).

[567] تعظيم قدر الصلاة، المصدر السابق، (1/ 118- 124).

[568] تعظيم قدر الصلاة، المصدر السابق، (1/ 127).

[569] تعظيم قدر الصلاة، المصدر السابق، (1/ 129).

وقال : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (15)﴾ [السجدة: 15]، ولقد شدّد تبارك وتعالى الوعيد في تركها ووكّده على لسان نبيّه ﷺ بأن أخرج تاركها من الإيمان بتركها، ولم تجعل فريضة من أعمال العباد علامة بين الكفر والإيمان إلا الصلاة، فقال: "ليس بين العبد وبين الكفر من الإيمان إلّا ترك الصلاة"، فأخبر أنّها نظام للتوحيد، وأَكفَرَ بتركها كما أكفر بترك التوحيد، ثمّ أخرج من الإيمان من عاهد من جميع العباد على الإيمان فقال: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"، وإن كانت العلماء مختلفة في الإكفار بتركها، فإنّهم مجمعون على الرواية بإكفار من تركها ، ثمّ ما غلظ في تركها وجوب النار، وإيجاب المغفرة والرحمة لمن قام بها[570].

ونعت الله المؤمنين في أوّل سورة البقرة فقال: ﴿الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3)﴾ [البقرة: 1-3]؛ فلم يبدأ بعد الإيمان بالغيب بذكر فريضة قبل الصلاة[571].

ومدح الله عباده المؤمنين فبدأ بذكر الصلاة قبل كلّ عمل فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)﴾ [المؤمنون: 1-2]؛ فمدحهم في أوّل نعتهم بالخشوع فيها، ثمّ أعاد ذكرها في آخر القصة إعظاماً لقدرها في القربة إليه، ولما أعد للقائمين بها المحافظين عليها من جزيل الثواب، ونعيم المآب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾ [المؤمنون: 9-11].

ولم نجد الله (عزّ وجل) مَدَحَ أحداً من المؤمنين بمواظبته على شيء من الأعمال مدح من واظب على الصلوات في أوقاتها، ألا تراه كيف ذكرها مبتدأة من بين سائر الأعمال، قال الله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)﴾ [المعارج: 19-21]؛ ثمّ لم

---

[570] تعظيم قدر الصلاة، المصدر السابق، (1/ 132- 133).

[571] تعظيم قدر الصلاة، المصدر السابق، (1/ 134).

يبرئ أحداً من هذين الخلقين المذمومين من جميع الناس قبل المصلّين فقال : ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23)﴾ [المعارج: 22-23]؛ ثم أعاد ذكرهم في آخر الآية بذكر آخر فقال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)﴾ [المعارج: 34-35]، وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [فاطر: 29]؛ في كلّ ذلك يبدأ بمدح الصلاة قبل سائر الأعمال، تبعها ما تبعها من سائر الطاعات، فكرّر الثناء عليهم، ومدحهم بالمحافظة عليها ليدوموا عليها، كلّ ذلك تأكيداً لها، وتعظيماً لشأنها[572].

ثمّ لم يخصّ الله تعالى عملاً من أعمال الدين فجعله يُكَفّر به الخطايا ويطهر به المذنبين كما خصّ الصلاة بذلك، فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]؛ فجاءت الأخبار أنّها نزلت في الصلوات الخمس ... عن عبد الله قال: قال رجل يا رسول الله، إنّي لقيت امرأة في البستان فضممتها إليّ فقبلتها وباشرتها، ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها، فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]، فدعاه رسول الله ﷺ وقرأها عليه، فقال عمر : يا رسول الله، أله خاصة؟ فقال رسول الله ﷺ: بل للناس كافة[573].

عن محمد بن كعب القرظي قال: بلغنا أنّ النبي ﷺ قال: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، كفّارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر"[574]. قال محمد بن كعب: وهذا في القرآن: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (31)﴾ [النساء: 31]. وقال محمد ﷺ:

---

[572] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 135- 136).

[573] أخرجه أحمد، (1/ 386)، والبخاري، (8/ 453- 4687)، ومسلم، (4/ 2115- 2116/ 2763)، وأبو داود، (4/ 611- 612/ 4468)، والترمذي، (5/ 270/ 3112).

[574] أخرجه من طريق محمد بن كعب القرظي هكذا مرسلاً: ابن المبارك في الزهد، (2/ 681- 682/ 852)، وأخرجه موصولاً: أحمد، (2/ 400)، ومسلم، (1/ 209/ 16/233)، والترمذي، (1/ 214/418)، وابن ماجه، (1/ 345/ 1086) من حديث أبي هريرة.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾: الفجر والظهر والعصر، ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ وهنّ الصلوات الخمس (١٠)[575].

وعن أبان بن عثمان بن عفان، يقول: قال عثمان بن عفان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أرأيت لو كان بفناء أحدكم نهر يجري يغتسل منه كلّ يوم خمس مرار، ماذا كان مبقياً من درنه؟ قالوا: لا شيء، قال: فإنّ الصلوات الخمس يذهبن بالذنوب كما يذهب الماء الدرن"[576].

وجعل الله كلّ خطوة إليها حسنة وكفارة وطهارة للذنوب... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "من حين يخرج أحدكم من بيته إلى المسجد فرجل تكتب حسنة، والأخرى تمحو سيئة"[577].

وعن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: "إذا خرج المسلم إلى المسجد كتب الله له بكلّ خطوة خطاها حسنة، ومحا عنه بها سيئة، حتّى يأتي مقامه[578].

وجعل الله الفرائض كلّها لازمة في بعض الأوقات من الزمان، وساقطة في بعضها كالصيام المفترض شهراً من السنة، وعلى من ملك ما تجب فيه الزكاة، والحج على من وجد السبيل إليه في العمر مرة واحدة، وكذلك جميع الفرائض، رفع فرض وجوبها في حال، ولم يوجب فرضه في كل حال إلا الصلاة وحدها، فإنّ الله تعالى ألزم عباده خمس صلوات في كل يوم وليلة، وإنّما منع الحائض من الصلاة تعظيما لقدر الصلاة، لا تقربها إلا هي طاهرة من الحيض، إلا أنّه خفف شطرها عن المسافر رحمة له لما علم من تعب السفر وشدّته، وألزمه على كل حال فرض الشطر الباقي.

---

[575] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 147- 148).

[576] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 151).

[577] أخرجه أحمد، (2/ 319)، والنسائي، (2/ 372/ 704)، وصححه ابن حبان، (4/ 503/ 1622)، وقال الحاكم (1/ 217): صحح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

[578] أخرجه ابن نصر في تعظيم قدر الصلاة، (1/ 160/ 102)، وحسنه الألباني في الصحيحة، (3/ 51/ 1063).

فلم يزل فرضـها إذا حضـر وقتها في حال من الأحوال إلا في الحال التي تزول فيها العقول، والزائل العقل كالميت الذي لا يلزمه وجوب فرض الله في بدنه من الفرائض كلها، وجعلها واجبة في كل شـديدة وسـقم أن يؤديها العاقل البالغ قائماً إن اسـتطاع، وجالسـاً إن لم يسـتطع القيام، ومضـطجعاً إن لم يقدر على القعود، ومومئاً إن لم يقدر على الركوع والسـجود، حتّى أوجب فرضـها عند المخاطرة بتلف النفوس عند الخوف من المشركين، ولم يرفعها الله عن عباده في حال أمن ولا خوف، ولا صحة ولا سقم.

فاعقلوا ما عظم الله قدرها لشـدّة إيجابه إياها، وإلزامها عباده في كل الأحوال لتُعظّمُوها إذ عظّمها الله، وتجزّعوا أن تضيعوها وتنقصوها، ولتؤدوها بإحضار العقول، وخشوع الأطراف.

ثمّ لم يرخص لأحد إن غُلب بنوم أو نسـيان أن يدع أن يأتي بها، كما افترضـت عليه لو لم يغلب عليها، فقال النبي ﷺ: من نام عن صلاته فليصلها إذا انتبه لها، ومن نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها[579].

ثمّ جعل جميع الطاعات من الفرض والتنقل متقبلة بغير طهارة ولا ينقضـها الأحداث ولا يفسـدها إلا الصلاة وحدها لإيجاب حقها، وإعظام قدرها، إلا الطواف بالبيت، فإنّ السنة أن يؤتى على طهارة؛ لأنّه صلاة.

ومن الدليل على أنّها أرفع الأعمال أن الله (عزّ وجل) أوجب أن لا تؤتى إلا بطهارة الأطراف، ونظافة الجسد كلّه واللباس من جميع الأقذار، ونظافة البقاع التي يصلى عليها، ثمّ زاد تعظيماً أنّه أمرهم إذا عدموا الماء عند حضـور وقت الصـلاة أن يضـربوا بأيديهم على الصـعيد فيمسـحوا مكارم وجوههم بالتراب، إعظاما لقدرها أن لا تؤدى إلا بطهارة[580].

ومن الدليل على عظم قدرها وفضلها على سائر الأعمال؛ أنّ كل فريضة افترضها الله فإنّما افترضها على بعض الجوارح دون بعض، ثمّ لم يأمر بإشغال القلب به إلا الصلاة، فإنّه أمر أن يقام بجميع الجوارح كلها،

---

[579] أخرجه أحمد، (3/ 269)، والبخاري، (2/ 89/ 597)، ومسلم، (1/ 477/ 684)، وأبو داود، (1/ 308- 308/ 442)، والترمذي، (335/1- 336/ 178)، والنسائي، (1/ 319/ 612)، وابن ماجه، (1/ 696/227).

[580] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 168- 170).

وذلك أن ينتصب العبد ببدنه كله، ويشغل قلبه بها ليعلم ما يتلو وما يقول فيها، ولم يفعل ذلك بشيء من الفرائض، لم يمنع أن يشتغل العبد في شيء من الفرائض بعمل سواء إلا الصلاة وحدها، فإنّ الصائم له أن يلتفت وينام ويتكلم بغير ذكر الصوم، ويعمل بجوارحه ويشغلها فيما أحب من منافع الدنيا ولذاتها ممّا أحلّ له، والمقاتل في سبيل الله له أن يلتفت ويتكلم، والحاج في قضاء مناسكه قد أبيح له أن يتكلم كذلك فيما بين ذلك، وينام ويشتغل بما أحبّ من منافع الدنيا المباحة له، وله أن يتكلم في الطواف، وكذلك إعطاء الزكاة، وجميع الطاعات، له أن يعمل فيها ويتفكر في غيرها، ومُنع المصلي من الأكل والشرب، وجميع أعمال الدنيا من الالتفات والأفعال بالجوارح إلّا بالصلاة وحدها، ومن التفكّر إلا فيما يتلو ويقول، إلّا أنّ العمل في الصلاة بغيرها مختلف في الضرر في الدين، فمنه ما يُفسد الصلاة، ومنه ما يُلزم به سجود السهو، ومنه ما يكون منقوصاً من الثواب على صلاته، إلّا أنّ أهل العلم مجتمعون على أنّه إذا شغل جارحة من جوارحه بعمل من غير عمل الصلاة أو بفكر، وشغل قلبه بالنظر في غير أمر الصلاة، أنه منقوص من ثواب من لم يفعل ذلك تاركاً جزءاً من تمام صلاته وكمالها.

فالمصلّي كأنّه ليس في الدنيا ولا في شيء منها، إذا كان بجميع قلبه وجميع بدنه في الصلاة، فكأنّه ليس في الأرض، إلا أنّ ثقل بدنه عليها ، وذلك أنّه يناجي الملك الأكبر، فلا ينبغي أن يخلط مناجاة الإله العظيم بغيرها، وكيف يفعل ذلك والنبي ﷺ قد أخبر أنّ الله مقبل عليه بوجهه، فكيف يجوز لمن صدق بأنّ الله مقبل عليه بوجهه أن يلتفت أو يغيب أو يتفكر أو يتحرك بغير ما يحب المقبل عليه بوجهه؛ لأنّ اشتغاله في صلاته بغيرها من الالتفات أو العبث أو التفكّر في شيء من الدنيا هو إعراض عمن أقبل عليه، وما يقوى قلب عاقل لبيب أن يقبل عليه من الخلق من له عنده قدر فيراه يولي عنه بمعنى من المعاني، وكل مقبل سوى الله لا يطلع على ضمير من ولى عنه بضميره، والله تعالى مقبل على المصلي بوجهه، يرى إعراضه بضميره، وبكل جارحة من جوارحه سوى صلاته التي أقبل عليه بوجهه من أجلها، فكيف يجوز لمؤمن عاقل أن يملّها أو يلتفت أو يتشاغل بغير الإقبال على رب العالمين، إذ أخبره النبي ﷺ

أن الله مقبل عليه بوجهه، فهل يفعل ذلك من فعله إلا قلّة مبالاة بالمقبل عليه، أو كيف يجوز لمن عرف أنّ الله مقبل عليه وهو مناج له أن يُعرض عنه بما قل أو كثر[581].

ثمّ جاءنا الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ أنّه سُئل: أيّ العمل أفضل؟ فقال: "الصلاة لوقتها"[582]. وقال ﷺ: "خير عملكم الصلاة"[583].

عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ فقال: الصلاة لميقاتها.. وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: "سددوا وقاربوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة[584]. [585] .

ومن الدليل على تقدمها على سائر الأعمال قوله ﷺ: "أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة".. عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء"[586].

---

[581] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 171- 173).

[582] أخرجه أحمد، (1/ 409- 410 و439)، والبخاري، (6/ 4/ 2782، ومسلم، (1/ 89/ 85)، والترمذي، (1/ 325- 326/ 173)، والنسائي، (1/ 319/ 610).

[583] أخرجه أحمد، (5/ 277 و282)، وابن ماجه، (1/ 101- 102/ 277)، وصححه الحاكم، (1/ 130) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

[584] أخرجه أحمد، (5/ 282)، والدارامي، (1/ 520/ 682)، والطبراني، (2/ 101/ 1444)، وصححه ابن حبان، (3/ 113/ 1037).

[585] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 200- 203).

[586] أخرجه أحمد، (1/ 388)، والبخاري، (12/ 230/ 6864)، واللفظ له، ومسلم، (3/ 1304/ 1678)، والترمذي، (4/ 10/ 1396)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي، (7/ 96/ 4004)، وابن ماجه، (2/ 873/ 2615).

عن أنس بن حكيم الضبي، قال: قال لي أبو هريرة: إذا أتيت أهل مصرك فأخبرهم أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ أول ما يحاسب به العبد صلاته، فإن أتمها وإلا نظر هل له من تطوع، فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه، ثمّ ترفع سائر الأعمال على ذلك[587].

وأمر الله عباده أن يفزعوا إلى الصلاة، والاستعانة بالصلاة على كل أمرهم من أمر دنياهم وآخرتهم، ولم يخصّ بالاستعانة بها شيئًا دون شيء، فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، وإنما بدأ بالصبر قبلها لأن الإيمان وجميع الفرائض والنوافل من الصلاة وغيرها لا تتمّ إلا بالصبر، ثمّ قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45]، وهم المنكسرة قلوبهم إجلالاً لله، ورهبة منه، فشهد لمن حقت عليه أن يقيمها له، إنّه من الخاشعين، وكيف لا يفزع المؤمنون إلى الصلاة وهي عماد دينهم، كذلك أخبر النبي ﷺ أنّ الصلاة عمود الدين .. وما زال مفزع المؤمنين عند كل مهم من أمر الدنيا والآخرة إلى مناجاة ربهم في الصلاة حتى آدم فمن دونه من الأنبياء[588].

ولقد ذكر أن النبي ﷺ كان إذا رأى بأهله شدة أو ضيقاً أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: 132] وأمر الله عباده أن يأتموا بمحمد، وأمرهم محمد إذا رأوا الآيات التي يخافون فيها العذاب أن يفزعوا إلى الصلاة فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، فإذا انكسفت فافزعوا إلى الصلاة"[589]، وفزع هو إلى الصلاة، ولا نعلم طاعة يدفع الله بها العذاب مثل الصلاة، فصلى عند الكسوف بزيادة في الركوع، وبكى في سجوده، وتضرع.

---

[587] أخرجه أحمد، (2/ 425)، وأبو داود، (1/ 540- 541/ 864)، وصححه الحاكم، (1/ 262، ووافقه الذهبي.

[588] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 218- 224).

[589] أخرجه مسلم، (2/ 620- 621/ 901)، وأبو داود، (1/ 695- 696/ 1177)، والنسائي، (3/ 147/ 1469)، من طريق عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة.

"فالصـــلاة مفزع كل مريد عند الشـــدائد، وعند حوادث عظيم النعم شـــكراً لله، فإذا لم تمكن الصـــلاة فالســـجود له عند حوادث النعم، وذلك لما عرّفهم من عظم قدر الصـــلاة عنده، حتى إن الملائكة في السماوات السبع إذا رعبوا فأصابهم هول اعتصموا بالسجود"[590].

وأما الصـلاة والسـجود عند حوادث النعم شـكراً لله (عزّ وجل) فمن ذلك أن الله لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمان ركعات شكراً لله[591].

فلا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله؛ لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثمَّ الثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله وثناء عليه، وتمجيد له ودعاء، وكذلك التســـبيح في الركوع والســـجود والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله وتعظيم له، وختمها بالشـــهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعاً له وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع، ورفع الرأس تعظيماً لله وإجلالاً له، ووضـــع اليمين على الشـــمال بالانتصـــاب الله تذللاً له، وإذعاناً بالعبودية، ثمّ النبي يبتهج ويخبر أمته تعظيم نعمة الله عليه، مما يخصـــه به يوم القيامة بأن يجعله أول مأذون له بالسـجود يوم القيامة، وأخبر أنّه إذا قصـد إلى الله (عزّ وجل) ليشـفع لأهل التوحيد خرّ سـاجداً بين يدي الله ، فلا يزال كذلك حتى يؤمر برفع رأسه، ويجاب إلى ما سأل[592].

ومن فضـل الصـلاة على سـائر الأعمال أنّ من دخل النار من المؤمنين لم يجدوا شـيئًا من الأعمال التي عملوها بجوارحهم تمنع شـيئًا من أجسـامهم من الاحتراق إلا السـجود له في الدنيا، فإنّ النار لم تصـب مواضع السجود من المصلين خاصّة، كذلك أخبر النبي ﷺ[593].

---

[590] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 235- 236).

[591] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 240).

[592] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 268- 269).

[593] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 292).

ومن ذلك أنّ المنافقين ميزوا يوم القيامة من المؤمنين بالسجود، قال الله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: 42- 43]، وذلك أنّ المؤمنين لما نظروا إلى ربهم خرّوا له سجداً، ودعي المنافقون إلى السجود فأرادوه فلم يستطيعوا، حيل بينهم وبين ذلك عقوبة لتركهم السجود لله في الدنيا، قال الله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ يعني في الدنيا، ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: 43]؛ مما حدث في ظهورهم، مما حال بينهم وبين السجود[594].

ولو لم يستدل المؤمن على أنّ الصلاة أحبّ الأعمال إلى الله إلا بما ألزم قلب حبيبه المصطفى محمد ﷺ من حب الصلاة، وجعل قرّة عينه فيها دون سائر الأعمال كلها، وإن كان ﷺ محباً لجميع الطاعات، ولكنّه خصّ الصلاة فأخبر أن قرة عينه جعل في الصلاة لربه، لكفاء بذلك دليلاً[595].

ثمّ لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه فصار إلى الحال التي انكسر فيها لسانه، لم يكن له وصية أكثر من الصلاة[596].

وشهد الله بالإيمان لمن أقام الصلاة لربه فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: 18][597].

وسماها الله إيماناً وإسلامًا وديناً فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143]. وقال الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]. وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. وقال: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة: 132]؛ الذي ارتضاه واصطفاه هو الإسلام، ثمّ قال ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85]، فدلّ بذلك أن الإيمان المقبول الذي وعد الله عليه الثواب هو الإسلام؛ لأنه لو كان غير الإسلام لكان من دان

---

[594] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 296).

[595] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 331).

[596] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 332).

[597] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 340).

الله بالإيمان غير مقبول منه إياه، لقوله : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْـــلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فلما اجتمعت الأمة على أنّ من دان الله بالإيمان فجائز أن يقبل منه ثبت بذلك أن الإيمان هو الإســـلام، وهو الدين المرتضى، وثبت بذلك أيضًا أنّ الصلاة والزكاة وسائر ما يدان الله به إسلام وإيمان؛ لأنّها لو لم تكن إيماناً وإسلاماً لم يجز أن يقبل ممن دان الله بها لقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فلمّا كانت الصـلاة والزكاة وسـائر الفرائض مقبولة من المسـلمين إذا دانوا الله بها عند جميع الأمة، ثبت أنّها كلّها من الإسلام والإيمان، لا غيره؛ لأنّها لو كانت غير الإسلام لم تجز أن تقبل من أحد دان الله بها لقوله : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. ثمّ أبان الله (عزّ وجل) أنّ الطاعات كلّها دين لقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّـلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) ﴾ [البينة: 5] ومعقول في اللغة وعند العلماء أن عبادة الله هي التقرّب إليه بطاعته، والاجتهاد في ذلك، وقال الله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)﴾ [الأنبياء: 19-20].

فلمّا قال الله (تبارك وتعالى): ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، كانت الطاعات كلها اللاتي يتقرّب بها إلى الله داخلة في عبادته، ثمّ خصّ الصـــلاة والزكاة من بينهما فأعاد ذكرهما تأكيداً لأمرهما، وتعظيماً لشـأنهما، كما قال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّـلَوَاتِ وَالصَّـلَاةِ الْوُسْـطَى﴾ [البقرة: 238]؛ والوسـطى داخلة في الصـــلوات، إلّا أنّه أعاد ذكرها فخصّـــها بالأمر بالمحافظة عليها تأكيداً لأمرها، وقال الله (عزّ وجل): ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـيتُ لَكُمُ الْإِسْـلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فأخبر الله (تبارك وتعالى) أنّه أكمل للمؤمنين دينهم في ذلك اليوم، ولو كان قبل ذلك اليوم مكمّلاً تامّاً لم يمكن لإكمال ما أُكمل وتمّ المعنى[598].

[598] تعظيم قدر الصلاة، (1/ 341- 349).

قال ابن القيم – رحمه الله –: الصلاة قد اختصّت من بين سائر الأعمال بخصائص ليست لغيرها: فهي أوّل ما فرض الله من الإسلام، ولهذا أمر النبيّ ﷺ نوّابه ورسله أن يبدؤوا بالدعوة إليها بعد الشهادتين، فقال لمعاذ: ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أوّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنّ الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة[599].

ولأنّها أوّل ما يُحاسب عليه العبد من عمله، ولأنّ الله فرضها في السماء ليلة المعراج، ولأنّها أكثر الفروض ذكراً في القرآن، ولأنّ أهل النار لمّا يُسألون: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)﴾ [المدثر: 42] لم يبدؤوا بشيء غير ترك الصلاة، ولأنّ فرضها لا يسقط عن العبد بحال دون حال ما دام عقله معه، بخلاف سائر الفروض فإنّ ها تجب في حال دون حال، ولأنها عمود فسطاط الإسلام، وإذا سقط عمود الفسطاط وقع الفسطاط، ولأنها آخر ما يفقد من الدين، ولأنها فرض على الحر والعبد والذكر والأنثى والحاضر والمسافر والصحيح والمريض والغني والفقير.. ولأنّ قبول سائر الأعمال موقوف على فعلها، فلا يقبل الله من تاركها صوماً ولا حجاً ولا صدقةً ولا جهاداً ولا شيئًا من الأعمال، كما قال عون بن عبد الله: إنّ العبد إذا دخل قبره سئل عن صلاته أول شيء يسأل عنه، فإن جازت له نظر فيما سوى ذلك من عمله، وإن لم تجز له لم ينظر في شيء من عمله بعده، ويدلّ على هذا الحديث الذي في المسند والسنن من رواية أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ: «أوّل ما يحاسب به العبد من عمله يحاسب بصلاته

[599] أخرجه أحمد، (1/ 233)، والبخاري، (3/ 333/ 1395)، ومسلم، (1/ / 50/ 19)، وأبو داود، (2/ 242- 243/ 1584)، والترمذي، (3/ 21/ 625)، وقال: حسن صحيح، والنسائي، (5/ 58- 59/ 2521)، وابن ماجه، (1/ 568/ 1783).

فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر[600]، ولو قبل منه شيء من أعمال البر لم يكن من الخائبين الخاسرين[601].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات، ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها، كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يكتب إلى عماله: إنّ أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة، وهي أول ما أوجبه الله من العبادات.

والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج، وهي آخر ما وصّى به النبي ﷺ أمّته وقت فراق الدنيا؛ جعل يقول: "الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم"، وهي أوّل ما يحاسب عليه العبد من عمله، وآخر ما يفقد من الدين، فإذا ذهبت ذهب الدين كله، وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين. قال النبي ﷺ: "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله"[602]، وقد قال الله في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)﴾ [مريم: 59]، قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) وغيره : إضاعتها تأخيرها عن وقتها، ولو تركوها كانوا كفارًا، وقال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: 238] والمحافظة عليها فعلها في أوقاتها. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5)﴾ [الماعون: 4-5] وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت.

---

[600] أخرجه أحمد، (2/ 290)، وأبو داود، (1/ 541/ 864)، والترمذي، (2/ 269- 270/ 41113، وقال: حديث غريب من هذا الوجه، والنسائي، (1/ 251/ 464)، وابن ماجه، (1/ 458/ 14255)، والحاكم (1/ 262)، وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

[601] الصلاة وحكم تاركها، (310 32).

[602] أخرجه أحمد، (5/ 245- 246)، والترمذي، (5/ 13/ 2616)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، (2/ 1314- 1315/ 3973)، والنسائي في الكبرى، (6/ 428/ 11394)، والحاكم، (2/ 412- 413)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وقد اتفق المسلمون على أنّه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل، ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار، لا لمسافر ولا لمريض ولا غيرهما، لكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار وهي الظهر والعصر في وقت إحداهما، ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت إحداهما، وذلك لمثل المسافر والمريض وعند المطر ونحو ذلك من الأعذار. وقد أوجب الله على المسلمين أن يصلوا بحسب طاقتهم كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] فعلى الرجل أن يصلّي بطهارة كاملة وقراءة كاملة وركوع وسجود كامل، فإن كان عادماً للماء أو يتضرر باستعماله لمرض أو برد أو غير ذلك وهو محدث أو جنب يتيمّم الصعيد الطيب وهو التراب يمسح به وجهه ويديه ويصلّي ولا يؤخرها عن وقتها باتفاق العلماء.

وكذلك إذا كان محبوسًا أو مقيدًا أو زَمِناً أو غير ذلك صلّى على حسب حاله، وإذا كان بإزاء عدوه صلى أيضاً صلاة الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (101) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)﴾ [النساء: 101-103]. ويجب على أهل القدرة من المسلمين أن يأمروا بالصلاة كل أحد من الرجال والنساء حتى الصبيان؛ قال النبي ﷺ: مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع[603]، والرجل البالغ إذا امتنع من صلاة واحدة من الصلوات الخمس، أو

[603] أخرجه أحمد، (2/ 187)، أبو داود، (1/ 334/ 495)، وصححه الحاكم، (1/ 197).

ترك بعض فرائضها المتفق عليها فإنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا قتل. فمن العلماء من يقول: يكون مرتداً كافراً لا يصلى عليه ولا يدفن بين المسلمين، ومنهم من يقول: يكون كقاطع الطريق وقاتل النفس والزاني المحصن. وأمر الصلاة عظيم.. فإنّها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات، فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة، ويقرنها بالزكاة تارة، وبالصبر تارة، وبالنسك تارة كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43]. وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]. وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)﴾ [الكوثر: 2]. وقوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)﴾ [الأنعام: 162-163]. وتارة يفتتح بها أعمال البر ويختمها بها كما ذكره في سورة سأل سائل، وفي أول سورة المؤمنين، قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾ [المؤمنون: 1-11][604].

وقال شيخ الإسلام أيضًا: فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال، وتبين ذلك من وجوه نذكر بعضها مما انتزعه الإمام أحمد وغيره: أحدها: أنّ الله سمى الصلاة إيماناً بقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس؛ لأنّ الصلاة تصدق عمله وقوله وتحصل طمأنينة القلب واستقراره إلى الحق، ولا يصح أن يكون المراد به مجرد تصديقهم بفرض الصلاة؛ لأنّ هذه

.

[604] مجموع الفتاوى، (3/ 427- 430).

الآية نزلت فيمن صـلّى إلى بيت المقدس ومات ولم يدرك الصـلاة إلى الكعبة، ولو كان مجرد التصـديق لشاركهم في ذلك كل الناس.

وفي يوم القيامة فإنهم مصـدقون بأن الصـلاة إلى بيت المقدس إذ ذاك كانت حقاء ولم يتأسـفوا على تصـديقهم بفرض معين لم يترك، كما لم يتأسـفوا على ترك تصـديقهم بالحج وغيره من الفرائض، ولم يكن اعتماد تصـديقهم بالصـلاة فقط أولى من تصـديقهم بجميع ما جاء به الرسـول، هذا مع أنه خروج عما عليه أهل التفسـير، وعما يدل عليه كلام الباري؛ لأن الله افتتح أعمال المفلحين بالصـلاة فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلَاتِهِمْ خَاشِـعُونَ (2)﴾ [المؤمنون: 1-2] وختمها بالصـلاة فقال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)﴾ [المؤمنون: 9] وكذلك في قوله ﴿إِلَّا الْمُصَـلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23)﴾ [المعارج: 22-23] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34)﴾ [المعارج: 34] وهاتان الآيتان جمعتا خصال أهل الجنة وملاكها، الثاني: أنّ الله تعالى قال لنبيه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت: 45] وتلاوة الكتاب اتباعه والعمل بما فيه من جميع شرائع الدين، ثمّ قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: 45] فخصها بالذكر تمييزاً لها ، فسبحانه خصها بالأمر بعد دخولها في عموم المأمور به، وكذلك قوله : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّـلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [الأنبياء: 73] خصـها بالذكر مع دخولها في جميع الخيرات، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90] وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّـلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ﴾ [المجادلة: 13] فإنّ في طاعة الله ورسـوله فعل جميع الفرائض، وخص الصـلاة والزكاة بالذكر وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِـيقُ صَـدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّـاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)﴾ [الحجر: 97-99] تعمّ جميع الطاعات، وقد خصّت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها، وكذلك ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)﴾ [الحج: 77] وكذلك قوله: ﴿وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلَاةِ﴾ [البقرة: 45] فإنّ الصـبر وإن كان هو الحبس عن المكروهات فإنّ فيه فعل جميع العبادات،

وكذلك قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)﴾ [الأعلى: 14-15] فإنّ الصلاة تعمّ العمل الصالح كله، وإن خص بالصدقة وغيرها، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)﴾ [طه: 14] فإنّ عبادة الله تعمّ جميع الأعمال الصالحة، ثمّ خصّ الصلاة بالذكر. وقوله لبني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: 40] ينتظم جميع الفرائض، ثمّ قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)﴾ [البقرة: 43].

الثالث: أنّ كل عبادة من العبادات فإنّ الصلاة مقرونة بها، فإنّ العبادة تعم جميع الطاعات، وقد خصّت الصلاة بذلك الأمر، والاصطبار عليها، فإذا ذكرت الزكاة قيل: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وإذا ذكرت المناسك قيل﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)﴾ [الكوثر: 2]، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: 162] وإن ذكر الصوم قيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)﴾ [البقرة: 45] فإن الصبر المعدود في المثاني هو الصوم ...

الرابع: أنّ الله أمر نبيه أن يأمر أهله بالصلاة فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ [طه: 132] مع أنّه مأمور بالاصطبار على جميع العبادات لقوله: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: 65] وبإنذارهم بجميع الأشياء لقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)﴾ [الشعراء: 214].

الخامس: أنّ الله فرضها ليلة الإسراء وأمر بها نبيه بلا توسط رسول ولا غيره.

السادس: أنّه أوجبها على كل حال ولم يعذر بها مريضاً ولا خائفاً ولا مسافراً ولا منكسراً به ولا غير ذلك، بل وقع التخفيف تارة في شرائطها، وتارة في عددها، وتارة في أفعالها ولم تسقط مع ثبات العقل.

السابع: أنّه اشترط لها أكمل الأحوال من الطهارة والزينة باللباس والاستقبال مما لم يشترط في غيرها.

الثامن: أنّه استعمل فيها جميع أعضاء الإنسان من القلب واللسان وسائر الجوارح وليس ذلك بغيرها.

التاسع: أنّه نهى أن يشتغل فيها بغيرها حتى بالخطرة واللفظة والفكرة.

العاشر: أنها أول ما يجب من الأعمال وآخر ما يسقط وجوبه.

الحادي عشـر: أنها دين الله الذي يدين به أهل السـماوات والأرض، وهي مفتاح شـرائع الأنبياء كلهم، فإنّ كل من دان لله من العقلاء فإنّ عليه الصـلاة، ولم يُبعث نبي إلا بالصـلاة، بخلاف الصـوم والحج والزكاة.

الثاني عشـر: أنها مقرونة بالتصـديق بقوله: ﴿فَلَا صَـدَّقَ وَلَا صَـلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32)﴾ [القيامة: 31-32]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَـلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)﴾ [الأنعام: 92]. وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْـلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّـلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ [الأنعام: 71-72]. وخصائص الصلاة كثيرة جدا، فكيف تقاس بغيرها ؟![605].

هذا المبحث الجميل اللطيف الرائع في فضـل الصـلاة، وعظم منزلتها، وجدته في كتاب التدبّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، لأبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغروي في تفسيره للآية الكريمة ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، فلم أجد مثل هذا التفسير للآية الكريمة على حسب علمي واطّلاعي، فمن باب الفائدة العظيمة رأيت تدوينه في قصّة (إسماعيل عليه السلام).

وأمّا الزكاة، فقد كان إسماعيل يأمر أهله والمؤمنين برسـالته بها كذلك، للمواسـاة من الأغنياء والأثرياء للفقراء والمساكين وسواهم، بإنفاق جزء معلوم من المال النامي إذا بلغ النصاب في مصارف مخصوصة، وهي أعظم وسـائل التكافل الاجتماعي في الحياة، وأهمّ عوامل القضـاء على الفقر والبطالة، مع آثار اقتصاديّة واجتماعيّة كثيرة، وكانت الزكاة شرعة إسماعيل، والملّة الحنيفيّة السمحاء، وملّة أبيه إبراهيم (عليه السلام)، وتكرار الأمر بالزكاة والوصيّة بها على لسان عدّة أنبياء.

وجاء الإسـلام فجعلها الفريضـة الثانية بعد الصـلاة، وعدّها رسـول الله ﷺ الركن الثالث من أركان الإسلام، ونفّذها الصحابة رضوان الله عليهم، وأعلن أبو بكر الصدّيق (رضي الله عنه) الحرب على من نفى الزكاة، وهي أوّل حرب لمصلحة الفقراء، وأدّت الزكاة وظيفتها في المجتمع طوال التاريخ الإسلامي، ثمّ

[605] شرح العمدة، (4/ 86- 91).

ضـمرت في العصـور الأخيرة، لتصـحو من كبوتها، وتزدهر من جديد في العصـر الحاضـر، ولو إلى حدود معيّنة، لتبقى من شـريعة الله تعالى وأحكامه الشـرعيّة أبد الآبدين، مع تفصـيل أحكامها في كتب الفقه، وإصدار النظام أو القانون المعاصر لها[606].

وقد سـبق بيان الكعبة المشـرّفة، ورفع قواعدها على يدي إبراهيم وإسماعيل، ولكنّ إبراهيم كان يرجع مراراً إلى بيت المقدس وفلسـطين، وإلى زوجته سـارة، ثمّ ابنه إسـحاق (عليه السـلام)، وأمّا إسماعيل (عليه السـلام) فهو المقيم الدائم في مكّة المكرّمة، وكان أوّل من تولّى شـؤون بيت الله الحرام، وبعد وفاته تولّى شؤونه ابنه (نابت) ثمّ تحوّلت السدانة على أخواله من بني جرهم[607]، وقد فصّلت ذلك فيما سبق في هذا الكتاب.

4- ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾:

جمع إسماعيل (عليه السـلام) بين الصـلاح والإصـلاح، فرضـي الله عنه، لامتثاله أمر ربّه، واجتهاده في طاعته، وحرصه على رضاه، فجعله الله من خواص عباده وأولياءه المقرّبين[608].

- قال الفخر الرازي – رحمه الله –: في تفسيره للآية: وهو في نهاية المدح، لأنّ المرضي عند الله هو الفائز في كلّ طاعاته بأعلى الدرجات[609].

- قال الشـعراوي – رحمه الله –: رضـي الله عنه، ليس لخصـال الخير التي وصـفه بها، بل من بدايته، فقد رضي عنه، فاختاره رسولاً نبياً[610].

---

[606] شرعة الله للأنبياء، ص209.

[607] شرعة الله للأنبياء، المصدر السابق، ص209.

[608] الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي، ص325.

[609] تفسير الرازي، (21/ 550).

[610] تفسير الشعراوي، (15/ 9126).

– قال الدكتور عادل أحمد صابر الرويني: أي: رضيّاً زكيّاً صالحاً، لاستقامة أقواله وأفعاله، و(كان) في كل أوصاف الله تدلّ على الاستمرار والدوام، تلك أوصاف الذبيح الأوّل أبي العرب إسماعيل (عليه السلام)[611].

– قال الدكتور محمد سيد طنطاوي – رحمه الله –: أي: وكان إسماعيل (عليه السلام) عند ربّه مرضيّ الخصال، لاستقامته في أقواله وأفعاله، والصدق وعده، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة، ولا شكّ أنّ من اجتمعت فيه هذه المناقب كان ممّن رضي الله عنهم ورضوا عنه[612].

تاسعاً: ذكر إسماعيل (عليه السلام) في سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86)﴾ [الأنبياء: 85–86].

تفسير الآيات الكريمة:

1– ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾:

هذه الآية تضمّ حشداً من ثلاثة من الأنبياء الكرام (عليهم السلام) إكراماً لهم من الله، وجاء الثلاثة عقّب الحديث عن أيّوب (عليه السلام) الذي كان رمز الصابرين، وختم بوصفهم بهذه الصفة، وقال ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، فالآيات نسق أيّ نسق[613].

وسورة الأنبياء لا تذكر قصصاً كاملاً، إنّما تعطينا طرفاً منها. وهنا تذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط، ثمّ يقول تعالى: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ كأنّ الصبر في حدّ ذاته حيثيّة برسل الله من أجلها

---

[611] تفسير سورة مريم، ص221.

[612] القصة في القرآن، ص221. ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

[613] تفسير سورة الأنبياء، د. أحمد نوفل، ص421.

الرسول، ولنتأمّل الصبر عند إسماعيل (عليه السلام)، وكيف أنّه صبر على أن يذبحه أبوه برؤيا رآها، فأيّ صبر أعظم من هذا؟

ثمّ يعيش في صـــغره – وحتّى كبر – في واد غير ذي زرع، ويتحمّل مشـــاقّ هذه البيئة الجافّة المجدبة، ويخضع لقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: 37].

وبقي إسماعيل في مكّة وترك الأراضي التي فيها النعيم والزروع والثمار، وحافظ على الصلاة وإعمار بيت الله (عزّ وجل)، وفضّل البقاء في مكّة وبجوار الكعبة والمسجد الحرام، وزهد في نعيم الدنيا قربةً وعبادةً لله، وكانت النتيجة أن أعطاه الله ما هو خير من الزروع والثمار، أعطاه عطاء يفخر به بين جميع الأنبياء، هو أنّه جُعل من نسله النبيّ الخاتم محمّد بن عبد الله، وأيّ ثمرة أحسن من هذه؟

– ﴿وَإِدْرِيسَ﴾؛ إنّ الله سرد قصص عدد من الرسل في سورة مريم، وذكر من بينهم إدريس (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)﴾ [مريم: 56-57].

ثمّ عقّب ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُـجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (58)﴾ [مريم: 58].

وهـذا أقوى الأدلّة على أنّ إدريس من ذريّة نوح، ووجه دلالة الآية على ذلك أنّ قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ إشارة إلى أولئك الرسل الذين ذُكرت قصّتهم قبل الآية، ومنهم إدريس (عليه السلام) الذي هو آخرهم في الذكر، فدلّ ذلك على أنّ كل من ســـبق ذكرهم من الأنبياء هم من ذريّة نوح، بل من ذريّة إبراهيم، ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس، ولكن الأرجح أنّه من ذريّة نوح، بل ومن ذريّة إبراهيم[614].

[614] قصة نوح عليه السلام، عمر إيمان أبو بكر، ص7.

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس، ولكن الأرجح أنّه من ذريّة نوح وإبراهيم (عليهما السلام) وليس من أنبياء بني إسرائيل ولم يرد ذكره في كتبهم والقرآن بصفة بأنّه كان صدّيقاً نبيّاً، وأنّ الله رفعه مكاناً عليّا، فأعلى قدره ورفع ذكره، وعلى أيّة حال فنحن نكتفي بما جاء في القرآن الكريم، ونرجّح أنّه سابق على أنبياء بني إسرائيل[615]، وأنّه من ذريّة نوح (عليه السلام).

ويقف السياق في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوّة في تاريخ البشريّة (من ذرية إبراهيم وإسرائيل) فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل الجميع، وإبراهيم يشمل فرعي النبوّة الكبيرين، ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل، وإسماعيل إليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيّين.

أولئك النبيّون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريّتهم قصصهم البارزة: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾؛ فهم أيضاً شديدو الحساسيّة بالله ترتعش مشاعرهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عمّا يخالج نفوسهم من تأثّر فتفيض عيونهم بالدموع ويخرّون سجّداً وبكيّاً[616].

وممّا يؤكّد أنّ إدريس (عليه السلام) من ذريّة نوح (عليه السلام) أنّه كان كلّما ذُكر نوح مع غيره من الرسل (عليهم السلام) أشير إلى أسبقيّته عليهم في معظم السور، ففي:

- سورة الأنعام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: 84].
- وفي سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [التوبة: 70].
- ومثلها في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: 5].
- وفي سورة الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: 46].
- وفي سورة النجم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: 52].

---

[615] في ظلال القرآن، (4/ 2313).

[616] في ظلال القرآن، المصدر السابق، (4/ 2314).

في حين أنّ إدريس (عليه السلام) لم يُذكر بالقبليّة على غيره من الأنبياء ولو مرّة واحدة ولو كان ذلك واقعاً لوصف لوُصف بذلك كما هو الحال في شأن نوح (عليه السلام)[617].

– وما أخرجه ابن حبّان في صحيحه من حديث أبي أمامة أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أنبيّ كان آدم؟ قال: نعم مُكلّم، قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال عشرون قرناً[618].

ووجه دلالة هذه الآثار أنّ إدريس (عليه السلام) لم يكن قبل نوح (عليه السلام) وقد قرنت نوحاً بآدم (عليهما السلام) في تحديد المدّة بينهما، وذلك دليل على أنّه ليس بينهما رسول آخر، ولو كان بينهما إدريس (عليه السلام) لذُكر هو بدلاً من آدم (عليه السلام)، ولم يُسكت عنه في جميع النصوص السابقة.

– ومن الأدلّة قول أهل الموقف يوم القيامة في الحديث الصحيح: (أنت أوّل الرسل إلى أهل الأرض). فهذا الحديث – وهو في الصحيحين – يُفيد أنّ نوحاً لم يسبقه رسول بعد آدم (عليه السلام).

إنّ ابن كثير وهو ممّن قدّم إدريس على نوح في البداية والنهاية اعتماداً على ما اشتهر عند المؤرّخين تشكك في صحة تقديم إدريس على نوح، فقال وهو يسرد نسب نوح: هو نوح بن لامك بن متوشلح بن خنوخ وهو إدريس النبيّ (عليه السلام) فيما يزعمون.

فقوله: (فيما يزعمون): دليل على أنّ تقديم إدريس على نوح (عليهما السلام) في نظرة لا يعدوا أن يكون مجرد زعم لا دليل عليه.

إنّ ابن كثير مع تقديمه إدريس في الترجمة على نوح إلّا أنّه عدل عن ذلك، وصرّح بخلافه في كتابه التفسير قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)﴾ [الشورى: 13].

---

[617] قصة نوح عليه السلام، عمر إيمان أبو بكر، ص7.

[618] صحيح ابن حبان، (25/ 4211).

قال رحمه الله: فذكر أوّل الرسل بعد آدم وهو نوح (عليه السلام)، وآخرهم وهو محمّد ﷺ[619].

وهذا منه تصريح أنّه يرى أنّ نوحاً هو أوّل الرسل لخلاف ما وضعه في التاريخ فإنّه قد قلّد المؤرّخين في ذلك[620].

وفي صحيح البخاري من حديث أنس (رضي الله عنه) أنّ النبيّ ﷺ حين مرّ بإدريس (عليه السلام) في السماء الرابعة، قال له إدريس: مرحباً بالنبيّ الصالح، والنبيّ الصالح[621].

ولم يقل له كما قال آدم وإبراهيم (عليهما السلام): مرحباً بالنبيّ الصالح، والابن الصالح، فلو كان إدريس هو الخنوخ: الذي هو الجدّ الأعلى لنوح (عليه السلام) لكان هو أيضاً الجدّ الأعلى للنبيّ ﷺ، ويُسلّم على النبيّ ﷺ بما سلّم عليه آدم وإبراهيم (عليهما السلام)[622].

وبهذا يتّضح خطأ من قال إنّ إدريس بين نوح وآدم، ونثبت أنّ نوحاً (عليه السلام) هو أوّل الرسل، كما أنّ الاختلاف في تقديم نوح على إدريس، أو إدريس عليه لا يترتّب عليه محذور شرعي طالما أنّ الجميع متّفقون على أنّهما من الأنبياء والمرسلين[623].

- ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾؛ قال ابن كثير: عن ذي الكفل: فالظاهر من السياق أنّه ما قرن مع الأنبياء إلّا وهو نبيّ.

وقال آخرون: إنّما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً وحاكما مقسطاً[624].

---

[619] الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، (7/ 194).

[620] قصة نوح عليه السلام، عمر إيمان أبو بكر، ص45.

[621] صحيح البخاري، رقم 3598.

[622] قصة نوح عليه السلام، عمر إيمان أبو بكر، ص9.

[623] قصة نوح عليه السلام، المصدر السابق، ص10.

[624] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 357).

وقال الفخر الرازي – رحمه الله –: أنّه تعالى قرن ذكره بذكر إسماعيل وإدريس، والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسّى بهم، وذلك يدلّ على نبوّته، كما أنّ السورة ملقّبة بسورة الأنبياء، فكلّ من ذكره الله تعالى فيها فهو نبيّ[625].

– وقال السعدي – رحمه الله –: أي: واذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس وذا الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل (كل) من هؤلاء المذكورين (من الصابرين).

والصبر: هو حبس النفس ومنعها، ممّا تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر على معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحقّ العبد اسم الصبر التام حتّى يوفي هذه الثلاثة حقّها، فهؤلاء الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، قد وصفهم الله بالصبر، فدلّ أنّهم وفوها حقّها وقاموا بها كما ينبغي[626].

والصبر المحمود: وهو أن يكون الإنسان صابراً لوجه الله تعالى، راضياً بما نزل به من الله، طالباً في ذلك الصبر ثواب الله تعالى، محتسباً أجره على الله، فهذا هو الصبر الذي يُدخل صاحبه رضوان الله[627].

وقد ذُكر الصبر في القرآن الكريم في خمسة وتعسين موضعاً، ومن أجمعها في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾ [البقرة: 156-157].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)﴾ [البقرة: 45].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)﴾ [ص: 44].

---

[625] التفسير الكبير، (22/ 212).

[626] تفسير السعدي، ص694.

[627] تفسير السعدي، المصدر السابق، ص694.

قرن هذا الصـــبر بنون العظمة، ومن أبهجها قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)﴾ [الرعد: 23-24].

إنّ الصبر مشهور، والحض عليه في الكتاب والسنّة مقرّر مسطور، ومن عظمة الصبر أنّ أحد أسماء الله تعالى هو الصبور[628].

2- ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 86]:

هذا جزاء الصـــابرين الذين ذكرهم الله في الســـابقة، وهم (إسماعيل وإدريس وذا الكفل عليهم الســـلام)، وختم بوصفهم ونعتهم، مثنياً عليهم ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، وفي هذه –كما سلف – ما كافأهم به من جائزة، أن أدخلهم في رحمته، وختم ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فكان صفتهم قبل الجائزة وبعدها.

– ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾؛ سلكناهم في سُرادق رحمتنا، وعددناهم في سجلّ المرحومين بهذه الرحمة والشمولين بها.

– ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾؛ فهم مستغرقون بهذه الرحمة، محفوفون بها من كلّ جانب، ومن ناحية.

– ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ هل هذا الوصف سبب أم نتيجة؟

أظنّ أنّ الأمر يصلح على الوجهين، وإن كان إلى كونه سبباً أقرب والله أعلم وأحكم؟

– ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ المعدودين في قائمة الصالحين، والصلاح كلمة عامّة ووصف شامل يشمل صلاح العقيدة، والعمل والخُلق والمعاملة وشؤونهم كلّها[629].

قال السعدي – رحمه الله –: ووصفهم أيضاً بالصلاح وهو يشمل صلاح القلب؛ بمعرفة الله ومحبّته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان بأن يكون رطباً من ذكر الله وصلاح الجوارح، بانشغالها بطاعة الله وكفّها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين وأثابهم

---

[628] تفسير سورة الأنبياء، أحمد نوفل، ص424.

[629] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص462.

الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلّا أنّ الله تعالى نوّه بذكرهم في العالمين وجعل لهم لسان صادق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً[630].

إنّ هذا الدين رسالة إصلاح للبشريّة والحضارة الإنسانيّة، وأوّل هذا الإصلاح إصلاح الإنسان الذي تقوم عليه الحضارة، فإذا صلح صلح الأمر كلّه، وإذا فسد فسد الأمر كلّه.

والأنبياء والمرسلون هم رموز الإصلاح والمثل العليا والنماذج الحسنة لهذا الإصلاح.

ومن فوائد ودروس الآية الكريمة:

- رحمة الله بالصالحين والمصلحين، تحفّهم من قبل ومن بعد، فبالرحمة صلحوا وبالرحمة كافأهم مولاهم بالجنّات.
- من صفات العابدين، أنّهم من قوافل الصابرين، وهنا من قوافل الصالحين، فجمعت الآيات السابقة لهذه الآية معها صفاتهم العليا.
- صفات العابدين ليست مقصورة على الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) بل كلّ من اتصف بها، واقتدى بهم، أُلحق بقوافلهم.
- وصف الله لعباده بالصلاح، شامل كامل، يشمل صلاح القلب وصلاح اللسان وصلاح الجوارح.
- بصبر الأنبياء وصلاحهم (عليهم السلام) أدخلهم الله برحمته، ونوّه بذكرهم في العالمين، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً[631].

عاشراً: ذكر إسماعيل (عليه السلام) في سورة ص:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48) هَذَا ذِكْرٌ﴾ [ص: 48].

---

[630] تفسير السعدي، ص494.

[631] تفسير سورة الأنبياء، ص426.

أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثنِ عليهم أحسن الثناء؛ فإنّ كلّاً منهم من الأخيار، الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال، والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة[632].

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾؛ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة، وذكر أوصافهم (ذكر): في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكّر بأحوالهم المتذكّرون ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويُعرف ما منّ الله عليهم به من الأوصاف الزكيّة، وما نشر لهم من الثناء بين البريّة، فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير[633].

وفائدة ذكر هؤلاء الأنبياء تأكيد الصلة بين كلّ هذه الرسالات لأنّها من مصدر واحد ولغاية واحدة[634].

وقد ذكروا بعد ذكر الله تعالى لإبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48)﴾ [ص: 45-48].

وهؤلاء ممّن اختارهم الله تعالى وأكرمهم بصفات عظيمة، ومنها كونهم من الأخيار، وقمّة صفة الخيريّة في المصطفين الأخيار.

وأمم الأنبياء الذين آمنوا برسالتهم اتّصفوا بالخيريّة، ولكنّ أمّة محمّد ﷺ تقدّمت على بقيّة الأمم، فنبيّنا محمّد ﷺ سيّد الأخيار، وأمّته خير الأمم وأكرمها على الله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]؛ ومن معاني الوسطيّة الخيريّة.

وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]؛ يعني خير الناس للناس، والمعنى خير الأمم وأنفع الناس للناس[635].

---

[632] تفسير السعدي، ص959.

[633] تفسير السعدي، المصدر السابق، ص 959.

[634] مجالس النور، د. محمد عياش، (3/ 1307).

[635] الوسطية في القرآن، الصلابي، ص65.

وروى الترمذي في سننه أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّكم تُتِمّون سبعين أمّة، أنتم خيرها، وأكرمها على الله[636].

وقال ﷺ: أعطيت مالم يُعط أحد من الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ فقال: نُصرت بالرعب، وأُعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم[637].

فهذه الأحاديث مع آية آل عمران تبيّن خيريّة هذه الأمّة التي جعلها الله أمّة وسطاً[638].

وإسماعيل (عليه السلام) من الصفات البارزة في شخصه الكريم كونه من الأخيار التي تدلّ على مسارعته في الخيرات والأعمال الصالحة العديدة والمتنوّعة التي يتقرّب بها إلى الله (عزّ وجل).

الحادي عشر: أهمّ صفات إسماعيل (عليه السلام) ووفاته:

لقد تميّزت شخصيّة إسماعيل (عليه السلام) بصفات عظيمة ذكرها الله في القرآن الكريم، وقد مررنا عليها وبيّنا ماذا قال المفسّرون فيها، واتّضح لنا أنّه (عليه السلام) من أصحاب النفس المطمئنّة التي تنوّرت بنور الوحي، وبصبحة أبيه، وتعظيمه لشعائر الله (عزّ وجل)[639]، وسما بأخلاقه الحميدة التي استجابت لأوامر الله وآمنت برسالة إبراهيم (عليه السلام)، وأكرمه بالنبوّة والرسالة، فكان منشرح الصدر راضياً بما قسم الله، قانعاً برزقه، رضيّاً بما عند الله[640]. قائماً بدعوته إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، فقد اطمأن في طاعته لله ورضي بشرعه ومنهجه، وغمره الإيمان وركن إليه، فهو يُسارع في الخير والحسنات ويجتهد في ذلك، ويبغض الشر والسيئات ويكره ذلك[641].

---

[636] سنن الترمذي، رقم 3001، المشكاة للألباني، رقم 6285.

[637] مسند أحمد، (1/ 98)، رقم 158.

[638] الوسطيّة في القرآن، ص67.

[639] صلاح القلوب وفسادها، مها رومي العنزي، ص52- 71- 82.

[640] الدروس المستفادة من القصص القرآني، د. نصرة إبراهيم، ص140.

[641] الدروس المستفادة من القصص القرآني، المصدر السابق، ص140

ومن أهمّ صفات إسماعيل (عليه السلام):

1- حليم: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

2- صادق الوعد: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

3- رسول نبي: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

4- داع إلى الله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾.

5- مرضي: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

6- من الأخيار: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

7- مفضّل: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

8- صابر: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

9- هبة من الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

10- مبتلى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

11- مستسلم لأمر الله: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

وقد شرحت الآيات التي تحدّثت عن صفاته في هذا الكتاب، وأجاد العلماء والباحثين في حديثهم عن هذه الصفات، فمنهم من توسّع ومنهم من تناول بعض الصفات[642].

– وفاته:

– قال ابن كثير – رحمه الله –: وكان إسماعيل (عليه السلام) رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن (صلوات الله وسلامه عليه)، ولمّا حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه

[642] صفات الأنبياء من القصص القرآني، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، د. عقيل حسين عقيل، ص187 إلى 223، المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، ص149- 155، في قصصهم عبرة، علي حسن العبيدي، 114- 115.

إسحاق (عليه السلام) وزوج ابنته (نسمة) من ابن أخيه (العيص) بن إسحاق فولدت له الروح، ويُقال لم بنو الأصفر، لصفرة كانت في العيص، وولدت له اليونان في أحد الأقوال، ومن ولد العيص الإسبان قيل: منهما أيضاً، وتوقف ابن جرير – رحمه الله –.

ودُفن نبيّ الله إسماعيل بالحجل مع أمّه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة[643].

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنّه قال: شكا إسماعيل (عليه السلام) إلى ربّه (عزّ وجل) حرّ مكّة، فأوحى الله إليه: إنّي سأفتح لك باباً من الجنّة إلى الموضع الذي تدفن فيه يجري عليك روحها إلى يوم القيامة.

وعرب الحجاز كلّهم ينتسبون إلى ولديه: نابت وقيذار[644].

– وقال عبد الوهاب النجار – رحمه الله –: وقد ذُكر في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين أولاد إسماعيل الذكور، وهم اثنا عشر ولداً رؤساء قبائل[645].

وفيها: أنّ إسماعيل عاش مئة وسبعاً وثلاثين سنة، وفيها أيضاً ما يُشير إلى أنّه مات بفلسطين، ولكن ما عليه مؤرّخو العرب أنّه بمكّة، ويُظنّ أنّه دفن بالحجر الذي في البيت هو وأمّه[646].

– وقال الدكتور محمد بكر إسماعيل: ولقد لقي إسماعيل ربّه (عزّ وجل) بعد عمر تجاوز مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ودُفن مع أمّه هاجر بالحجر، وعرب الحجاز كلّهم ينتسبون إلى ولديه (نابت) و(قيذار).

وإسماعيل (عليه السلام)، هو أبو العرب المستعربة، والمصريون ينسبون إليه من أمّه هاجر، وهي قبطية من بنات مصر[647].

---

[643] قصص الأنبياء، ابن كثير، ص218.

[644] قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص218، قصص الأنبياء، محمد الفقي، ص93، تاريخ الأنبياء، محمود عبده، ص167.

[645] قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص158.

[646] قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص158.

[647] قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص90.

الخلاصة:

جعل الله إبراهيم (عليه السّلام) إمام هدى للناس، كل الناس على اختلاف الزمان والمكان: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وبقي إبراهيم إماماً لمن بعده من المؤمنين، كان إماماً لمؤمني بني إسرائيل وإماماً لمؤمني النصارى، وصار إماماً للمسلمين أتباع محمد ﷺ، ومازال إماماً لهذه الأمة وسيبقى إماماً لها، ما دامت هذه الأمة باقية.

1. إسماعيل عليه السلام هو الابن البكر للنبي إبراهيم عليه السلام، وقد ولد من السيدة هاجر المصرية، التي كانت أميرة أُسرت في مصر، ثم أُهديت إلى سارة زوجة إبراهيم، فأصبحت زوجة ثانية له.
2. بعد ولادته، أمر الله إبراهيم أن ينقل هاجر وإسماعيل إلى وادٍ غير ذي زرع في بلاد الحجاز، وهناك تركهما امتثالًا لأمر الله، ودعا لهما دعاءً خاشعًا يسأل فيه الرزق والحفظ والذرية الصالحة.
3. بقي إسماعيل في رعاية أمه التي نهضت بمهمة حضانته وتأمين سبل الحياة له، وقامت بهذه الوظيفة العظيمة في غياب والده، مما يعكس قيمة حضانة الأم التي أقرّتها الشرائع الإلهية وخالفتها فقط الأنظمة المادية المجردة كالشيوعية.
4. اسم إسماعيل في اللغات السامية القديمة يعني "سميع الرب" أو "المستجيب لله"، وهو دلالة على طاعته وامتثاله لأوامر الله تعالى.
5. شبَّ إسماعيل في مكة وتربى بين قبيلة جرهم العربية، فتعلم منهم العربية البليغة وأتقنها، حتى قيل إنه أول من نطق بها من غير العرب.
6. وصفه القرآن الكريم بصفات جليلة، منها: الحِلم، والصدق في الوعد، والمحافظة على الصلاة، والأمر بها، وقد برّأه الله من كل ما نُسب إليه من الجاهلين.
7. عاش إسماعيل عليه السلام 137 عامًا، ودُفن في الحِجْر بجوار الكعبة إلى جانب والدته هاجر.
8. لازم إسماعيل والده في فترات وجوده بمكة، وساعده في بناء الكعبة ورفع قواعدها امتثالًا لأمر الله تعالى.

9. بعد وفاة والده، بقي إسماعيل في مكة وتولى شؤون بيت الله الحرام، ثم تولى هذه المهمة ابنه نابت، وبعده انتقلت السدانة إلى أخواله من بني جرهم.
10. حين بلغ إسماعيل مبلغ الشباب، رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبحه، وكانت رؤيا الأنبياء وحيًا، فاستشار ابنه فأجابه بالطاعة قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.
11. تهيّأ إبراهيم لتنفيذ الرؤيا، وتله إسماعيل للجبين حتى لا يرى وجهه، لكنه لم يذبحه، إذ فداه الله بذبح عظيم بعد أن تحقق المقصود الإلهي.
12. كان المراد من الرؤيا اختبار حب إبراهيم لله تعالى، وأن يتقدّم حب الله على كل محبوب، حتى على الولد، فتحققت بذلك مرتبة الخُلّة الخالصة.
13. الذبح العظيم الذي فُدي به إسماعيل أصبح شعيرةً إسلامية تُمارس كل عام في عيد الأضحى، إحياءً لهذا الامتثال العظيم.
14. إسماعيل كان شابًا ناضجًا يشارك والده في الدعوة إلى الله، وفي الإرشاد، وفي شؤون الحياة العامة، فكان نبيًا عاملًا متفاعلًا مع مجتمعه.
15. شريعة إسماعيل كانت استمرارًا لشريعة أبيه إبراهيم، وتتضمن الهجرة، تعدد الزوجات، الحضانة، إقامة الصلاة، الختان، بناء الكعبة، الطواف، الاعتكاف، الأمن في مكة، الحج، الرؤيا، الشورى، الأضحية، السعي، رمي الجمرات، وتطهير البيت.
16. يُستدل على أن الذبيح هو إسماعيل من قول الأعرابي للنبي ﷺ: "يا ابن الذبيحين"، ومن قول النبي ﷺ: "أنا ابن الذبيحين"، في إشارة إلى إسماعيل وعبد الله والد النبي.
17. رؤيا الأنبياء وحي، وهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، وما رآه إبراهيم حقّ لا مرية فيه، وقد همّ بتنفيذه موقنًا بأمر الله، وكذلك إسماعيل استسلم ورضي.
18. حين تهيأ إبراهيم للذبح، وأكب إسماعيل على وجهه ليذبحه من قفاه، كانا قد بلغا نهاية التكليف، وأدّيا ما أمر الله به، وما بقي إلا الذبح، فرفعه الله.
19. لم يكن القصد الإلهي من الرؤيا ذبح الجسد، وإنما ذبح الشغف، وتطهير المحبة، وإتمام الامتحان، فتحقق المراد بزوال المشاركة في الخُلّة.

20. بعد بناء الكعبة المشرفة، أقام إسماعيل في مكة مع أمه، بينما كان إبراهيم يتردد بين فلسطين ومكة، ويزور سارة وابنه إسحاق.
21. إسماعيل كان أول من تولى إدارة شؤون البيت الحرام، وبعده ابنه نابت، ثم آل الأمر إلى بني جرهم، وبقي أثر إسماعيل حيًّا في مكة.
22. إسماعيل عليه السلام ارتبط ارتباطًا وثيقًا ببناء الكعبة، ومقامه مرتبط بهوية مكة وذاكرتها الروحية والدينية، ولهذا اقترن ذكره بالحج والنسك.
23. إن قصة إسماعيل عليه السلام تُجسد معاني الطاعة الخالصة، والتسليم لأمر الله، وقيمة الأمومة، والتضحية، وترسيخ العقيدة، وبناء المقدسات، لتكون نموذجًا خالدًا في السير الإيمانية.
24. ذكر الله وصية إبراهيم عليه السلام لأبنائه في سياق الحث على التمسك بملّته، موضحًا أن من أعرض عنها إلى غيرها فقد جهل ما فيه خير نفسه في الدنيا والآخرة، كما فعل اليهود والنصارى الذين انحرفوا عن الحق، فوصيته تمثل دعوة صريحة للثبات على الإسلام وعدم التفريط به.
25. إن الوصية بعقيدة التوحيد ومكارم الأخلاق المرتبطة بها من أعظم ما ينبغي أن يوصي به الآباء أبناءهم في كل مراحل حياتهم، حتى يلقوا الله وهم ثابتون على الإيمان، والمقصود بالدين هنا هو الإسلام الخالص الذي ارتضاه الله لعباده.
26. لقد استجاب أبناء إبراهيم عليه السلام لوصيته، ويظهر ذلك جليًا في موقف يعقوب عليه السلام حين كرر الوصية ذاتها في سكرات الموت، وقد كان ذلك شغله الشاغل، مما يدل على مركزية التوحيد في حياة الأنبياء واهتمامهم بنقلها للأجيال.
27. إن ملة إبراهيم عليه السلام هي التوحيد الخالص ونبذ الوثنية، وهي لبّ الدين الذي اصطفاه الله لعباده، وهي المعيار الذي يُعرف به الحق من الباطل، فمن آمن بها فقد اهتدى، ومن أعرض عنها فقد ضلّ وغوى.
28. إن الإيمان فطرة مودعة في النفس الإنسانية، كما جاء في الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة"، وإنما يُغيرها تأثير البيئة، حيث ينشأ الطفل على دين أبويه، فيصبح يهوديًا أو نصرانيًا حسب المحيط، وهذا هو معنى "صبغة الله"، أي التوحيد الفطري.

29. الإخلاص سرّ بين العبد وربه، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، وهو جوهر العبادة وروحها، وهو الحصن الذي تحفظ به الأعمال من الرياء والفساد.

30. يكرر القرآن التأكيد على مبدأ المسؤولية الفردية، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولكل امرئ ما كسب، فلا ينفع المرء خير آبائه إن لم يكن له عمل، ولا يتحمل شرّهم إذا كان بريئًا من أفعالهم.

31. يفصل القرآن بين الأنساب والأعمال، فلا قيمة للانتساب إذا لم يُقترن بالاتباع، فالعبرة بالاقتداء بمنهج الأنبياء لا بمجرد القرابة أو الانتماء، فكل نفس بما كسبت رهينة.

32. لا يكفي الانتساب إلى آل النبي ﷺ أو إلى الصحابة أو الصالحين، ما دام صاحبه مخالفًا لهديهم، فالنسب بلا عمل لا يغني شيئًا.

33. بيّن إبراهيم عليه السلام أن الرابطة الحقيقية التي تربط بينه وبين أبنائه ليست الدم أو الاسم، وإنما العقيدة، فقال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

34. دعا إبراهيم عليه السلام ربّه أن يجعل مكة بلدًا آمنًا، فاستجاب الله دعاءه، وخصّها بالأمن والطمأنينة، حتى إن القاتل كان يُؤمَّن فيها، والطير لا يُنَفَّر، والنبات لا يُقطع.

35. أدرك إبراهيم عليه السلام بعقله النير أن الحضارة الحقة لا تقوم في بيئة مضطربة، ولذلك دعا الله أن يجعل مكة آمنة، فكانت دعوته أساس الاستقرار الذي قام عليه أول بيت وضع للناس.

36. كان إسكان بعض ذرية إبراهيم عليه السلام في مكة تمهيدًا لتعمير بيت الله الحرام، فكان ذلك جزءًا من الخطة الإلهية لنشأة مركز التوحيد الأول في الأرض.

37. الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء علمًا، يعلم السر والعلانية، والواجب والممكن والمستحيل، وعلمه يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء.

38. حمد إبراهيم عليه السلام ربّه على نعمه، وحمده كذلك على صفاته العليا، مما يدل على تمام المعرفة بالله وتعظيمه له سبحانه.

39. علّمنا إبراهيم عليه السلام أن نشكر نعم الله علينا، وأن نسخّرها في طاعته، وألا نغفل عن الدعاء له، وأن نثق باستجابته، فهو سميع الدعاء.

40. كان إبراهيم عليه السلام أنموذجًا للفطرة الإنسانية النقية، وكان من أبرز مظاهرها حبّه لذريته، وحرصه على توجيههم لعبادة الله تعالى والاستقامة على الطريق.

41. طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يجعله مقيمًا للصلاة، رغم كونه نبيًا، وهو درس تربوي عظيم في التواضع وعدم الاغترار، ووجوب الاستمرار في طلب الهداية والثبات.

42. كان الصدق من أبرز صفات إسماعيل عليه السلام، فكان لا يُخلف وعدًا، ولا يخلّ بعهد، مطيعًا لله في كل ما أمره به.

43. قيل إن إسماعيل عليه السلام كان يُوفِي بوعده مع الله ومع الناس، فكان لا يتخلّف، وخصّه الله بوصف "صادق الوعد" تكريمًا له وتشريفًا، كما لُقّب بصفات أخرى مثل الحليم والأوّاه.

44. إن إسماعيل عليه السلام إذا وعد، وفى بوعده، وصدق في فعله، فاستحق بذلك أن يُخلَّد ذكره في القرآن بوصفٍ قلّ أن يُوصف به غيره.

45. صدق الوعد والوفاء به من شرائع الله التي كلف بها نبيه إسماعيل عليه السلام، وهو من الأحكام الشرعية المهمّة التي يتحقق بها النفع وتنتفي بها المفاسد، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، وأكّدت عليه السنة النبوية المطهرة.

46. كان إسماعيل عليه السلام من الرسل الذين نصّ عليهم القرآن الكريم، ووصفهم بالنبوة والرسالة معًا، وهو نبيّ ابن نبي، لكن لم ترد إلينا نصوص صحيحة تفصيلية تشرح دعوته والقوم الذين أُرسل إليهم.

47. نقل المؤرخون أن إسماعيل عليه السلام دعا إلى التوحيد، وحثّ على عبادة الله وحده، ورعاية البيت الحرام، والدعوة إلى الحج، وكان مثالًا في الشجاعة والصبر، وقد بعثه الله إلى العماليق وقبائل من جرهم واليمن، فتبعه جمع غفير من الناس.

48. إسماعيل عليه السلام نبيّ مرسل، أوحى الله إليه، وأمره أن يبلغ رسالة ربه، وقد عاش في مكة داعيًا إلى التوحيد بشريعة أبيه إبراهيم، ولا مانع شرعًا أن يبعث الله رسولين بشريعة واحدة في آنٍ واحد.

49. النبوة هي صلة بين الخالق والمخلوق لتبليغ شرعه، وسفارة من الله إلى خلقه؛ دعوة لرفع الجهل وإخراج الناس من ظلمات الضلال إلى نور الهداية، وهي فضل إلهي عظيم على البشرية.

50. الإيمان بالنبوة هو السبيل إلى معرفة الله ومحبة الله، وهو الطريق الموصل إلى رضوانه وجنته، والفوز بمغفرته ورضاه، والنجاة من عذابه وسخطه.

51. حاجة البشر إلى الإيمان بالنبوة أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والهواء، فمن حُرم أحد هذه الثلاثة خسر دنياه، لكن من أنكر النبوة خسر دنياه وأخراه، والعياذ بالله.

52. جعل الله سبحانه وتعالى الرسل وسائط بينه وبين عباده، ليعرّفوهم ما ينفعهم وما يضرهم، ويبلغوهم الشرائع التي تصلح معاشهم ومعادهم، وجاءوا كلهم بالدعوة إلى الله وبيان السبيل إليه.

53. أكرم الله عزّ وجل أنبياءه ورسله بصفات عالية، وهيأهم لقيادة الأمم وهداية الناس، فجمع لهم الأخلاق السامية، والحكمة البالغة، والإرادة الصلبة، والعقيدة الصحيحة، ليتحملوا أعباء الرسالة.

54. إن الإسلام هو دين جميع الأنبياء، فمنذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض ودينه الإسلام، وبقي الإسلام في ذريته عشرة قرون، ثم لما ظهر الشرك بعث الله نوحًا، وتوالى الرسل من بعده لإبلاغ دين الإسلام كلما فتر.

55. الرسالات السماوية التي جاء بها الأنبياء جميعًا نزلت من عند الله العليم الحكيم، وهي تمثل طريقًا واحدًا، يتبعه السابقون واللاحقون على سواء.

56. الإسلام في اصطلاح القرآن لا يختص بدين محمد صلى الله عليه وسلم وحده، بل هو الاسم الجامع للدين الذي بعث الله به جميع أنبيائه.

57. الإسلام كان شعارًا عامًا على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور، ولم يزل يُتوارث من جيل إلى جيل حتى ختمه الله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

58. إن مهمة الرسل تتجاوز المفهوم الضيق للتوحيد، فهي دعوة شاملة لإصلاح العقيدة والسلوك والمجتمع، ولو كان التوحيد محصورًا بالمفاهيم الذهنية لما استحقت الرسالات تلك التضحيات العظيمة التي قدّمها الأنبياء عليهم السلام.

59. كان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة، والمراد بأهله أمته التي عاش بينها.

60. أثنى الله عزّ وجل على إسماعيل عليه السلام بالذكر الحسن، ووصفه بالخلق النبيل والمثابرة في طاعته، وكان حريصًا على الصلاة آمرًا بها لغيره.

61. لا نعمة أعظم على المؤمن من نعمة الإيمان بالله، تليها نعمة الصلاة، فهي عمود الدين، وخضوع لجلال الله، وخشوع لكبريائه، وقد فرضها الله على عباده بعد التوحيد والتصديق بالرسالة مباشرة.

62. كان النبي ﷺ إذا رأى بأهله شدة أمرهم بالصلاة، وتلا قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، تأكيدًا على ارتباط الفرج بالصلاة.

63. كانت الصلاة ملاذًا للأنبياء والملائكة عند الشدائد، ومظهرًا للشكر عند النعم، وإذا عجز العبد عن الصلاة فليُسجد شكرًا، فالملائكة إذا أصابها الفزع اعتصمت بالسجود، مما يدل على عظمة الصلاة عند الله.

64. فلا عمل بعد توحيد الله أعظم شأنًا من الصلاة، إذ افتُتحت بالتكبير تعظيمًا لله، ثم جاء الثناء عليه بفاتحة الكتاب، وهي حمد وتمجيد ودعاء، تليها التسبيحات في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع، حتى تختم بالشهادة لله بالتوحيد، فهي في مجموعها تعظيم لله من أولها إلى آخرها.

65. كان إسماعيل عليه السلام يأمر بالصلاة والزكاة، فحثّ أهل الإيمان برسالته على الزكاة للمواساة بين الأغنياء والفقراء، ولتحقيق التكافل الاجتماعي، فهي من أعظم الوسائل لمحاربة الفقر والبطالة، وبها تنتظم الحياة وتصفو النفوس.

66. جمع إسماعيل عليه السلام بين الصلاح لنفسه والإصلاح لغيره، فكان ممتثلًا لأمر الله، مجتهدًا في طاعته، حريصًا على رضاه، فجعله الله من خاصّة عباده وأوليائه المقرّبين.

67. كان إسماعيل عليه السلام رضياً، زكياً، صالحًا، لما كانت أقواله وأفعاله مستقيمة، ولفظ "كان" يدلّ في أوصافه على الدوام والاستمرار والثبات على الطاعة.

68. اختار إسماعيل عليه السلام البقاء في مكة، وزهد في الأرض التي فيها الزروع والثمار، وآثر مجاورة الكعبة المشرفة، محافظًا على الصلاة وعمارة بيت الله، فآتاه الله نعمة خالدة، إذ جعل من ذريته خاتم الأنبياء محمدًا ﷺ.

69. كان إسماعيل عليه السلام من أصحاب النفوس المطمئنّة، التي أنارتها أنوار الوحي، وتشربت التربية بصحبة أبيه الخليل، وعظّم شعائر الله، فسكنت نفسه واطمأن قلبه.

70. ارتقى إسماعيل عليه السلام في أخلاقه، واستجاب لأوامر الله، وآمن برسالة أبيه إبراهيم عليه السلام، فآتاه الله النبوة، وكان راضيًا، منشرح الصدر، قانعًا برزقه، مؤمنًا بقضاء الله وقدره.

71. أخلص إسماعيل عليه السلام في دعوته إلى توحيد الله، فاطمأن قلبه، وركن إلى الإيمان، وسارع في الخيرات، واجتهد في الطاعات، وأبغض المعاصي والسيئات، فكان طيب القلب، ثابت القدم.

72. تُوفي نبي الله إسماعيل عليه السلام عن عمر بلغ 137 عامًا، ودُفن مع أمه هاجر في الحِجر بجوار الكعبة المشرفة، وهو الموضع الشريف الذي يُعرف اليوم بجانب البيت الحرام.

73. رُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكا إسماعيل عليه السلام حر مكة، فأوحى الله إليه: "إني سأفتح لك بابًا من الجنة إلى الموضع الذي تُدفن فيه، يجري عليك من روحها إلى يوم القيامة"، تكريمًا له وتسليةً له في مثواه.

74. لقي إسماعيل عليه السلام ربه بعد حياة حافلة بالطاعة، وقد جاوز عمره 137 سنة، ودُفن مع أمه بالحِجر، وينتسب إليه عرب الحجاز من ولديه نابت وقيذار، وهو أبو العرب المستعربة، وأمّه هاجر القبطية، هي أصل نسب المصريين إليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

علي محمد محمد الصلابي

الدوحة – قطر

الجمعة 3/ يناير/ 2025م، 3/ رجب/ 1446هـ

الساعة الثانية وسبعة عشرة دقيقة بعد صلاة الجمعة.

فلله الحمد دائماً وأبداً

ولله الحمد حتّى يرضى وبعد الرضى.

المصادر والمراجع:

1. **القرآن الكريم.**
2. **إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود** "عرض ونقد"، فاطمة بنت خالد ردمان، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1421هـ، 2001م.
3. **إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم**، أحمد البراء الأميري، دار المنار، جدة، السعودية، 1406هـ.
4. **الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان**، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط1، 1417هـ.
5. **الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء** عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1995م.
6. **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، الفاكهي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1414هـ، 1994م.
7. **الإخلاص في القرآن الكريم**، حمد الوهيبي، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1433هـ.
8. **أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم**، د.عودة عبد عودة عبد الله، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2005م.
9. **الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرّسل**، محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1997م.

10. **الأسماء والصفات**، البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1413 هـ، 1993م.
11. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1415هـ، 1995م.
12. **الإيمان بالرسل والرسالات**، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ط1، 2011م.
13. **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيّان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1420 هـ.
14. **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
15. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996م.
16. **تاج العروس في جواهر القاموس**، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
17. **تاريخ أرض القرآن**، سليمان الندويّ، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2016م.
18. تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين، دار الكتب العلمية، 2007م.
19. **تأملات في سورة مريم**، عادل أحمد صابر الرويني، دار النوادر، دمشق، سوريا، 2011م.
20. **التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية**، المؤلف: فالح بن مهدي آل مهدي الدوسري، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط3، 1413هـ.
21. **التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن**، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، 1435هـ، 2014م.
22. **تعظيم قدر الصلاة**، محمد بن نصر المروزي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، 2006م.

23. **تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"**، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار المصحف ومكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، 2008م.

24. **تفسير البغوي "معالم التنزيل"**، البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، الرياض، ط3، 1416هـ.

25. **تفسير التحرير والتنوير** "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

26. **تفسير الخطيب الشربيني المسمى** "السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير"، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

27. **تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران**، محمد صالح المنجد، دار العبيكان، الرياض، ط1، 2016م.

28. **تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط4، 1435هـ (659/1).

29. **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، 2013م.

30. **تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"**، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م.

31. **تفسير القرآن العظيم** (تفسير ابن كثير)، ابن كثير، تحقيق: يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1434هـ، 2013م.

32. **تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"**، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط1، 1427هـ، 2006م.

33. **التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)**، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1417هـ- 1997م.

34. **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، 2010م.

35. **تفسير النابلسي "تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة"**، د. محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، ط1، 2017م- 1438هـ.

36. **تفسير سورة الأنبياء**، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2023م.

37. **تنوّع خطاب القرآن الكريم في العهد المكّي**، رجاء بنت صالح محمد البحر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط1، 2016م.

38. **الثناء في القرآن الكريم**، هتون سامي عبد الرحمن فلمبان، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2016م.

39. **حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين**، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.

40. **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي**، الماوردي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ، 1999م.

41. **حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام**، د. سليمان إبراهيم الحصين، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، 2016م.

42. **الحكمة من إرسال الرّسل**، عبد الرازق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1420،2هـ، 1999م.

43. **الحياة الزوجية في القرآن الكريم**، عبد الفتاح أحمد الخطيب، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1425هـ، 2004م.
44. **درب إبراهيم عليه السلام**، سعيد الشبلي، ام كي للنشر والتوزيع، ط1، 2019م.
45. **دعاء الأنبياء والرسل**، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1, 1999م.
46. دعوة الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، د. بسام صباغ.
47. **الرّسل والرّسالات**، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، لبنان، دار النفائس، الكويت، ط4، 1410هـ، 1989م.
48. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ.
49. **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية** لابن هشام ومعه السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.
50. **رؤية إسلامية للنهضة بواقع الأمة**، محمد مسعد ياقوت، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط1، 2013م.
51. **رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين**، الإمام النووي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1422هـ، 2001م.
52. **زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط4، 1407هـ، 1987م.
53. **زاد المعاد في هدى خير العباد**، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 28، 1415هـ.

54. **زهرة التفاسير**، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2008م.
55. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1415هـ، 1995م.
56. سنن ابن ماجه
57. سنن الترمذي.
58. **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب النسائي، مؤسسة الرسالة، 2015م.
59. **شرعة الله للأنبياء**، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2018م.
60. **صحيح ابن حبان**، محمد بن حبان التميمي الدارمي البُستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ، 1993م.
61. **صحيح الأذكار**، النووي، 2006م.
62. **صحيح البخاري**، البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط 4، 2002م.
63. **صحيح الترغيب والترهيب**، الألباني، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421 هـ، 2000م.
64. **صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير**، الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1408هـ، 1988م.
65. **صحيح سنن أبي داود**، الألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1419هـ، 1998م.
66. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م.

67. **صفات الأنبياء من قصص القرآن** "إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط"، عقيل حسين عقيل، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2011م.
68. **صناعة الحوار** "مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم"، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2015م.
69. الطبقات، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
70. **عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة**، فوزي محمد حميد، دار حطين للدراسات والترجمة، دمشق، سوريا، ط1، 1993م.
71. **العقيدة الصافية للفرقة الناجية**، سيّد سعيد السيّد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2006م.
72. **فبهداهم اقتده** "قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء"، عثمان محمد الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط1، 1431هـ، 2010م.
73. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ.
74. **الفتح الربّاني والفيض الرحماني**، عبد القادر الجيلاني، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفيق علي وهبة، المكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2014م.
75. **فتح القدير، الشوكاني**، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1414هـ.
76. **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، ابن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الرياض، 1405هـ، 1985م.
77. **فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم** وذكر تاريخهما وأحكامهما الفقهية وما يتعلق بهما، سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1996م.

78. **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق للطباعة، القاهرة، ط 32، 2003 م.

79. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ.

80. **قصة إبراهيم في القرآن الكريم**، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 1992م.

81. **قصة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين** عرض ونقد، د. فتحي محمد الزغبي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.

82. القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1996م.

83. **قصص الأنبياء في رحاب الكون**، د. عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر، القاهرة، ط 1، 2010م.

84. **قصص الأنبياء**، ابن كثير، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1421هـ، 2001م.

85. **قصص القرآن الكريم**، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط 3، 1430هـ، 2010 م.

86. **قصص القرآن**، محمد بن صالح العثيمين، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الأسكندرية، 2004م.

87. **القصص القرآني بين الآباء والأبناء**، عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، ط1، 1990م، 1410هـ.

88. **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق – الدار الشامية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1998م.

89. **كتاب النبوّات**، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط1، 1420هـ، 2000م.
90. **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد علي التهانوي، تحقيق: رفيق العجم، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م.
91. **الكعبة المشرفة**، محمود أحمد الدوسري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 2017م.
92. **مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن**، ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة ط1، 1415 هـ، 1995م.
93. **مجموع الفتاوى**، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، 1412هـ.
94. محاسن الإسلام والشرائع، أبي عبد الله محمد البخاري.
95. **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1398هـ-1978م.
96. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** (تفسير ابن عطية)، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م.
97. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفضي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1412هـ.
98. مدرسة الأنبياء عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين.
99. **مستدرك الحاكم**، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م.
100. **مسند أحمد**، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2008م.

101. **مسند الدارامي**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارامي، 2015م.
102. **مع الأنبياء في الدعوة إلى الله**، محمد عبد القادر أبو فارس، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2013م.
103. **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.
104. **مفتاح دار السعادة**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط1، 1997م.
105. **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1412هـ، 1992م.
106. **ملة أبيكم إبراهيم**، عبد الستار كريم المرسومي، دار المعراج للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2021م.
107. **من أنباء القرى**، أحمد عبيد الكبيسي، تحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.
108. **من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي**، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2013م.
109. **من لطائف التعبير القرآني حول سير الأنبياء** والمرسلين (آدم ونوح وإبراهيم)، محمد فؤاد سندي، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط1، 2002م.
110. **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، ابن تيمية، محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1406هـ، 1986م.
111. **منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله**، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، الكويت، ط3، 1409هـ، 1988م.

112. **منهج الدعوة إلى العقيدة في ضـــوء القصـــص القرآني**، منى عبد الله بن داود، دار ابن حزم، بيروت، 1998م.

113. موسوعة نضرة النعيم، مجموعة من الباحثين، 2018م.

114. **نظم الدرر في تناسـب الآيات والسـور**، برهان الدين أبي الحسـن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ- 1995م.

115. **نونية الكافية الشـافية في الانتصـار للفرقة الناجية**، ابن قيّم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشـر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2007م.

116. **وإبراهيم الذي وفّى**، د. فرحات بن علي الجّعبيري، المكتبة السـعيدية للنشـر، مسـقط، سـلطنة عُمان، ط2، 2014م.

117. **وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام**، سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد (10)، 1414هـ.

118. **وقفات تربوية في ضـوء القرآن الكريم**، عبد العزيز ناصـر الجليل، دار طيبة، الرياض، السـعودية، ط2، 1419هـ، 1998م.

119. **وقفات في حياة الأنبياء عليهم السّلام**، الشيخ خالد عبد العليم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 2004م.

120. **ولله الأسماء الحسنى**، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط3، 1430هـ، 2009م.

فهرس المحتويات:

المبحث الأوّل:

إسماعيل (عليه السلام) نسبه ومولده ونشأته وحديث التاريخ والسنّة النبويّة عنه: 9

أوّلاً: إسماعيل عليه السَّلام نسبه ومولده ونشأته: 9

1-النسب والمولد والنشأة: 9

2- أول من غيّر دين إسماعيل عليه السَّلام: 14

ثانياً: قصة زواج هاجر أم إسماعيل من إبراهيم عليه السَّلام: 15

1- الذّمّة والعهد والرحم لأهل مصر: 16

2- من دلالات الحديث عن زيارة مصر: 17

3- هاجر في بلاد الشام ومولد إسماعيل عليهم السلام: 20

4- هاجر وإسماعيل في بلاد الحجاز: 23

5- إبراهيم في زيارته لبيت إسماعيل: 26

6- التقاء إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت: 28

7- رؤيا ذبح إسماعيل وبناء الكعبة: 28

8- تعدُّد الزوجات في الأمم السابقة: 29

9- حضانة الأم لولدها: 30

ثالثاً: إسماعيل عليه السّلام في كتب السّنة: 31

1- تعويذات إبراهيم عليه السّلام لولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام: 31

2- مهارة إسماعيل عليه السّلام بالرماية: 32
3- أول من نطق بالعربية المبينة إسماعيل عليه السّلام: 32
4- كون كنانة من ولد إسماعيل: 33
5- نفي الاستسقام بالأزلام عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: 33
رابعاً: إسماعيل (عليه السلام) في القرآن الكريم: 34

المبحث الثاني:

قصّة إسماعيل مع والده إبراهيم (عليه السلام) في سورة الصافات 36

أوّلاً: قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ... فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ 37
1- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾: 37
2- قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: 38
3- قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾: 38
ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ... سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ 41
1- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ 43
2- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾: 47
3- قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾: 48
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ... إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ 49
1- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: 49
2- قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: 52
3- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾: 54
رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ 55

1- من هو الذبيح؟ 57

المبحث الثالث:

مكانة إسماعيل عند والده إبراهيم وفي بناء بيت الله وفي دعوته.....60

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ... قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ 65

1- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: 65

2- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: 67

3- قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:.....69

4- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾:.....70

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ... وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ 72

1- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾:.....72

2- ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾:.....76

3- ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: 84

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ... عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.....87

1- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ... وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾:.....87

2- ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:.....89

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ... أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ 91

1- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾:.....95

2- ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:.....96

خامساً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ... إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ 98

1- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾:.....98

2- قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: 99
3- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾: 100
4- قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ 101
5- قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ 103
6- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: 105
سادساً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا... وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ 107
1- قوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾: 109
2- قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: 109
3- قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ 110
4- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: 111
5- أول بيت وضع للناس: 115
6- فضائل الكعبة: 115
7- الأقصى بُني بعد الكعبة بأربعين سنة على يد إبراهيم أو يعقوب (عليهما السلام) 118
8- إبراهيم عليه السلام يدعو لمكة والرسول يدعو للمدينة 119
9- الكعبة مركز الأرض 121
سابعاً: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ... وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ 123
1- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾: 123
2- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ 125
ثامناً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ 126
1- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾: 126
2- قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: 126

تاسعاً: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ... فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ 128
1- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: 128
2- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾: 128
3- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: 131
عاشراً: قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ 132
1- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾: 132
2- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾: 132
3- قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: 132
الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ 133
الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ 135
1- قول الطبري: 135
2- قول القاسمي: 135
الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ 136
1- ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السّلام: 140
2- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان: 144
الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ... فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .. 147
1- قول الطبري: 147
2- قول السعدي: 149
الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ 150
1- قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: 150
2- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: 152

3- قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾: 153
السادس عشر: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ... وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ 154
1- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ 154
2- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: 154
3- قوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾: 155
4- قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾: 155
السابع عشر: قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ... وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ 156
1- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ...كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ 156
3- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾: 157
3- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾: 158
4- قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: 158
الثامن عشر:﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ 159

المبحث الرابع:

دعاء إبراهيم لذريّته ولمكّة وحمده لله على أن وهب له إسماعيل وإسحاق (عليهم السلام). .. 162

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.... 163
1- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾: 163
2- قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: 166
ثانياً: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ... 167
1- قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾:..... 167
2- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾:..... 168

3- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: 169
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ... لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ 169
1- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: 169
2- قوله تعالى: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾: 170
3- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: 171
4- قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: 173
5- قوله تعالى: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: 174
رابعاً: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ 176
1- قول أبو حيان في تفسيره الآية: 177
2- قول الشوكاني في تفسيره الآية: 177
خامساً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ 178
1- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: 178
2- ﴿الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾: 179
3- ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: 180
سادساً: قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ 181
1- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: 181
2- ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ 182
سابعاً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ 183
1- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾: 184
2- ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾: 185
3- ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ 185

ثامناً: إسماعيل (عليه السلام) في سورة مريم..... 186
1- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾: 186
2- ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾: 189
3- ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾: 213
4- ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾: 236
تاسعاً: ذكر إسماعيل (عليه السلام) في سورة الأنبياء:..... 237
1- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾: 237
2- ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ 243
عاشراً: ذكر إسماعيل (عليه السلام) في سورة ص:..... 244
الحادي عشر: أهمّ صفات إسماعيل (عليه السلام) ووفاته: 246
الخلاصة: **249**
المصادر والمراجع: **257**
فهرس المحتويات: **268**
السيرة الذاتية للمؤلف **276**
كتب صدرت للمؤلف..... **277**

السيرة الذاتية للمؤلف

د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ - 1963م.
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفًا.

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.
19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22.الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23.الشيخ عمر المختار.

24.عبد الملك بن مروان وبنوه.

25.فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26.حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27.وسطية القرآن في العقائد.

28.السلطان عبد الحميد الثاني.

29.دولة المرابطين.

30.دولة الموحدين.

31.عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

32.الدولة الفاطمية.

33.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

34.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

35.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

36.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

37.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

38.المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

39.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

40.الشورى في الإسلام.

41.الإيمان بالله جل جلاله.

42.الإيمان باليوم الآخر.

43.الإيمان بالقدر.

44.الإيمان بالرسل والرسالات.

45.الإيمان بالملائكة.

46.الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

47.السلطان محمد الفاتح.

48.المعجزة الخالدة.

49.الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.

50.البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

51.التداول على السلطة التنفيذية.

52.الشورى فريضة إسلامية.

53.الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

54.العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.

55.المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

56.العدل في التصور الإسلامي.

57.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

58.الأمير عبد القادر الجزائري.

59.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

60.سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

61.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

62.أعلام التصوف السُني: "ثمانية أجزاء".

63.المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

64.الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

65.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

66.المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام): الحقيقة الكاملة.

67.قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)

68.نوح (عليه السلام) والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

69.إبراهيمُ خليل الله (عليه السلام): "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

70.موسى (عليه السلام) كليم الله.

71.موسى (عليه السلام) والخضر.

72.موسى (عليه السلام) في سورة طه.

73.موسى (عليه السلام) في سورة القصص.

74.موسى (عليه السلام) في سورة الشعراء.

75.مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

76.لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

77.سقوط الدولة العثمانية (الأسباب – التداعيات).

78.سقوط الدولة الأموية (الأسباب – التداعيات).

79.مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

80.النبي الوزير يوسف الصديق (عليه السلام) من الابتلاء إلى التمكين.

81.ذكريات لا تنسى.

82.الأنبياء الملوك داوود وسليمان (عليهما السلام)، وهيكل سليمان المزعوم.

83.لوط (عليه السلام) ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين.

84.تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان (عليه السلام) وقصة الهيكل المزعوم.

85.نبي الله هود (عليه السلام) وأسباب زوال حضارة قوم عاد.

86.نبي الله صالح (عليه السلام) وأسباب هلاك قوم ثمود.

87.الأبعاد الإنسانية والحضارية في شخصية النبي ﷺ.

88.نبي الله أيوب (عليه السلام) "طريق الشفاء ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾".

89.أنبياء الله إسحاق ويعقوب (عليهما السلام)

90.إسماعيل (عليه السّلام)